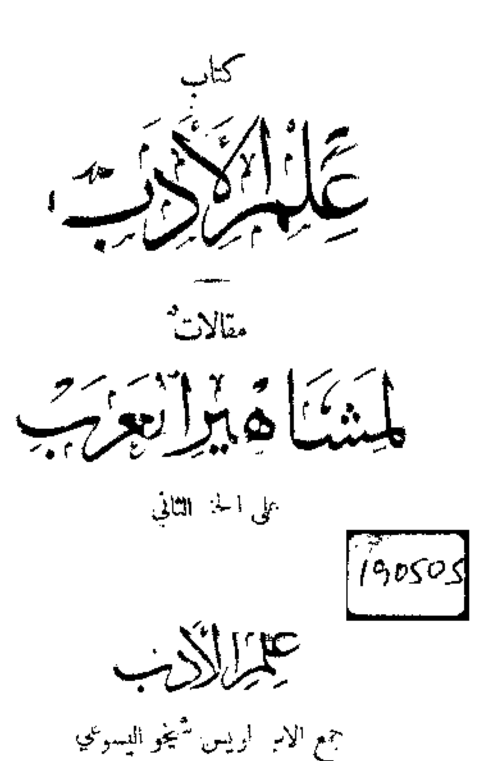


كتاب

علم الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

في الجزء الثاني

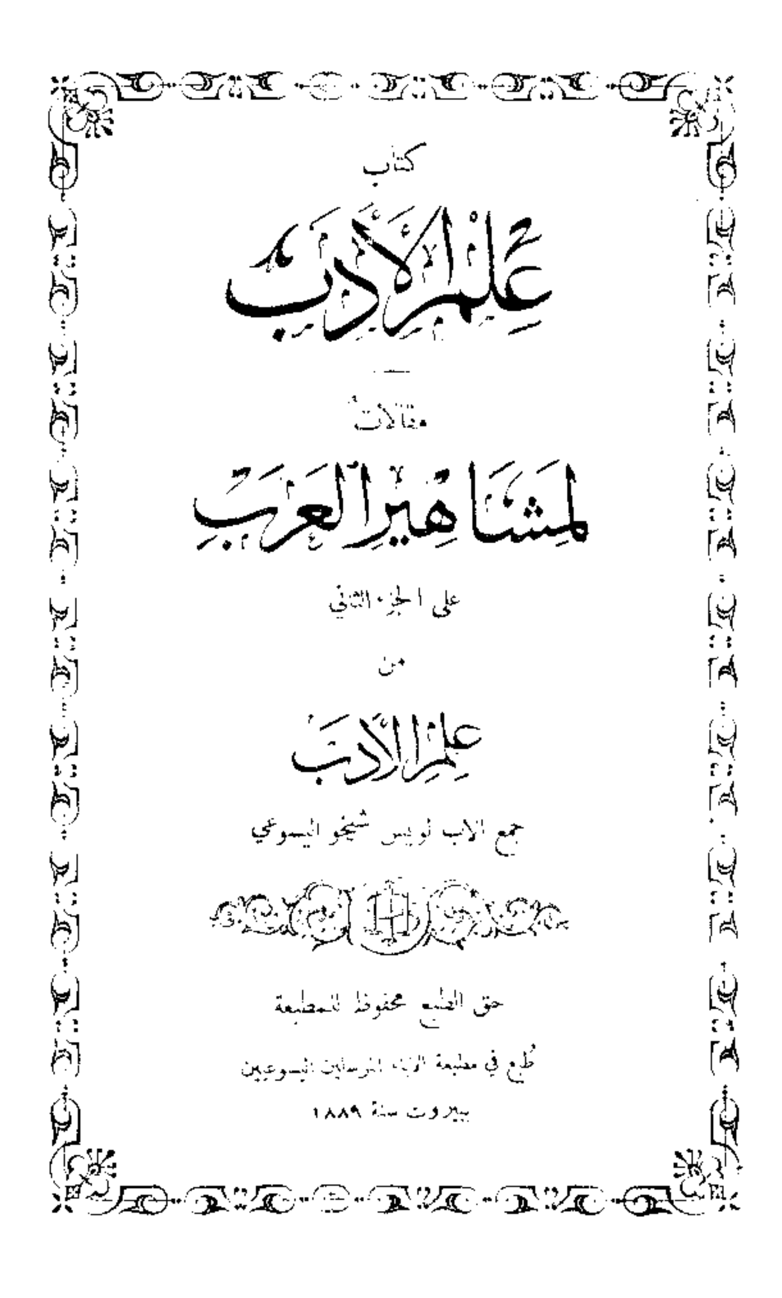
علم الأدب

جمع الأب لويس شيخو اليسوعي

في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

*



كتاب

عِلمِ الأدب

مقالات

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

من

عِلمِ الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مقالات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

القسم الاول

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليه بوجه الاجمال

(عن كلّيات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْخِطَابَةُ فِي اللُّغةِ كَالْخِطَابِ وَهِيَ الْمُكَالَمَةُ او اللَّفظُ الْمُتَوَاضَعُ عليهِ الْمَقْصُودُ بهِ إِفهامُ مَنْ هُوَ مُتهَيّئٌ لِفَهْمِهِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْكَلَامِ النَّفسِيِّ الْمُوَجَّهِ نَحْوَ الْغَيْرِ لِلإِفهامِ. وَعِندَ الْحُكَمَاءِ الخطابةُ هِيَ الْقِيَاسُ الْمُفِيدُ تَرْغِيبَ الْجُمْهُورِ وَحَمْلَهُمْ عَلَى الْمُرَادِ مِنْهُمْ وَمَا يَجِبُ انْ

يُسْتَعْمَلَ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَقَالَاتِ. وَلَمَّا ظَهَرَ ارِسْطُو فِي يُونَانَ وَهَذَّبَ مَبَاحِثَ ٱلْمَنْطِقِ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصُولَهُ وَجَعَلَهُ اوَّلَ ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَفَاتِحَتَهَا جَعَلَ ٱلْخَطَابَةَ احَدَ اقْسَامِهِ ٱلثَّمَانِيَةِ. وَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ تَشْتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ ارْبَعَةٌ مِنْهَا فِي صُورَةِ ٱلْقِيَاسِ وَهِيَ كُتُبُ ٱلْمَقُولَاتِ وَٱلْعِبَارَةِ وَٱلْقِيَاسِ وَٱلْبُرْهَانِ وَارْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَهِيَ كُتُبُ ٱلْجَدَلِ وَٱلسَّفْسَطَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ. وَذٰلِكَ انَّ ٱلْمَطَالِبَ ٱلتَّصْدِيقِيَّةَ عَلَى انْحَاءٍ فَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلْيَقِينَ بِطَبْعِهِ وَهُوَ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكُتُبُ ٱلْارْبَعَةُ ٱلْاولَى. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلظَّنَّ وَهٰذَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكُتُبُ ٱلْارْبَعَةُ ٱلْأُخْرَى. وَفِيهَا تَدْخُلُ ٱلْخَطَابَةُ. وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْاسْلَامِيَّةِ وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَاسِفَةُ ٱلْإِسْلَامِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلتَّلْخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْفَارَابِيُّ وَٱبْنُ سِينَا ثُمَّ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلْانْدَلُسِ. وَلِٱبْنِ سِينَا كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ ٱسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ كُلَّهَا. ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا ٱصْطِلَاحَ ٱلْمَنْطِقِ وَحَصَرُوا مَطَالِبَهُ فِي كُتُبٍ خَمْسَةٍ ٱلْبُرْهَانِ وَٱلْجَدَلِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ وَٱلسَّفْسَطَةِ وَرُبَّمَا يُلِمُّ بَعْضُهُمْ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهَا إِلْمَامًا وَاغْفَلُوهَا كَانْ لَمْ تَكُنْ هِيَ ٱلْمُهِمَّ ٱلْمُعْتَمَدَ فِي ٱلْفَنِّ. وَامَّا ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلْخَطَابَةِ فَهُوَ تَعْرِيفُ ٱلْمَقَايِيسِ ٱلْخَطَابِيَّةِ ٱلْبَلَاغِيَّةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي مُخَاطَبَاتِ ٱلْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْمُشَاوَرَاتِ وَٱلْمُخَاصَمَاتِ فِي ٱلْمُشَاجَرَاتِ اوِ ٱلْمَدْحِ اوِ ٱلذَّمِّ او ٱلْحِيَلِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْاسْتِعْطَافِ وَٱلْاسْتِمَالَةِ وَٱلْاغْرَاءِ وَتَصْغِيرِ ٱلْامْرِ وَتَعْظِيمِهِ وَوُجُوهِ ٱلْمَعَاذِيرِ وَٱلْمُعَاتَبَاتِ وَوُجُوهِ تَرْتِيبِ ٱلْكَلَامِ فِي كُلِّ قِصَّةٍ وَخُطْبَةٍ

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِٱلْقُوَّةِ) ٱلصِّنَاعَةَ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي ٱسْتِقْصَاءِ فِعْلِ ٱلْإِقْنَاعِ ٱلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ (١). وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ ٱلْأَجْنَاسِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

---

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنهُ القول وأُبرز فيهِ الحكم من الاجناس العالية المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

ٱلْبُرْهَانِ وَيُقْنِعُ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَفِي أَنْوَاعِهِمَا . وَكَذٰلِكَ ٱلْهَنْدَسَةُ إِنَّمَا تُعَلَّمُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْاِقْنَاعِ فِي ٱلْاَعْظَامِ وَٱلْاَشْكَالِ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْاَجْسَامِ . وَأَمَّا ٱلْخَطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ ٱلْاِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ ٱلْاَشْيَاءِ فِي أَيِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَأَيِّ جِنْسٍ كَانَ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ تُنْسَبُ إِلَى جِنْسٍ خَاصٍّ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) إِنَّ صِنَاعَةَ ٱلْخَطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ . وَذٰلِكَ أَنَّ كِلَيْهِمَا يَؤُمَّانِ غَايَةً وَاحِدَةً وَهِيَ مُخَاطَبَةُ ٱلْغَيْرِ إِذْ كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا ٱلْاِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ بَلْ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ ٱلْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْاَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ إِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى ٱلنَّظَرَ فِي جَمِيعِ ٱلْاَشْيَاءِ وَيُوجَدُ ٱسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ أَعْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْتَعْمِلُ بِٱلطَّبْعِ ٱلْاَقَاوِيلَ ٱلْجَدَلِيَّةَ وَٱلْاَقَاوِيلَ ٱلْخُطَبِيَّةَ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ ٱلْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا أَصْنَافٌ مِنَ ٱلنَّاسِ خَاصَّةٌ . وَلٰكِنْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هٰذَيْنِ (أَيِ ٱلْخَطَابَةَ وَٱلْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعُ ٱلْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا . وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرِكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرّى للتصديق اكثر منها للتأثير

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخِطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا ٱلْقَانُونَ أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتُ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ . فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلِٱنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلِٱنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبِغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَالْجَوْرُ أُمُورٌ كُلِّيَّةٌ. وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ فَلَهُ فِي ذٰلِكَ تَأْثِيرٌ لٰكِنَّهُ لَيْسَ يُوجِبُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ بِٱلذَّاتِ بَلْ إِنَّمَا يُمِيلُ ٱلْحُكَّامَ إِلَى أَنْ يَقُولُوا إِنَّهُ صَدَقَ فِيمَا ٱدَّعَى أَوْ لَمْ يَصْدُقْ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْدُثَ لِلْحَاكِمِ أَوِ ٱلْمُنَاظِرِ بِذٰلِكَ تَصْدِيقٌ زَائِدٌ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ

(قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلسُّنَنُ هِيَ ٱلَّتِي تُحَدِّدُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ وَتُفَوِّضُ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وُجِدَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يُوجَدْ إِلَى ٱلْحُكَّامِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَتُفَوِّضُ إِلَيْهِمِ ٱلْأُمُورَ ٱلْيَسِيرَةَ وَذٰلِكَ لِشَيْئَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنَّهُ قَلَّ مَا يُوجَدُ حَاكِمٌ يَقْدِرُ أَنْ يُمَيِّزَ ٱلْأُمُورَ عَلَى كُنْهِهَا فَيَضَعَ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ وَهٰذَا عَدْلٌ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ مِنَ ٱلزَّمَانِ وَأَكْثَرُ ٱلْحُكَّامِ ٱلْمَوْجُودِينَ فِي ٱلْمُدُنِ لَيْسَ لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْقُدْرَةُ. (وَٱلثَّانِي) فَلِأَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى أَنَّ ٱلشَّيْءَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ يَحْتَاجُ فِيهِ وَاضِعُ ٱلسُّنَنِ إِلَى زَمَانٍ طَوِيلٍ وَذٰلِكَ لَا يُمْكِنُ فِي ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يَقَعُ فِيهِ ٱلتَّنَاظُرُ فِي ٱلشَّيْءِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ. فَلِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ يَصْعُبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَى ٱلْحُكَّامِ أَنَّ هٰذَا ٱلْأَمْرَ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ نَافِعٌ أَوْ ضَارٌّ بَلْ إِنَّمَا يُفَوَّضُ إِلَيْهِمْ أَنَّ ٱلْأَمْرَ وَقَعَ مِنْ هٰذَا ٱلشَّخْصِ أَوْ لَمْ يَقَعْ وَذٰلِكَ لِبَيَانِهِ وَلِأَنَّهُ أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَهُ صَاحِبُ ٱلسُّنَّةِ



البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب).

(قَالَ) وَلِلْخَطَابَةِ مَنْفَعَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ يَحُثَّ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمَدَنِيِّينَ عَلَى ٱلْاَعْمَالِ ٱلْفَاضِلَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ بِٱلطَّبْعِ يَمِيلُونَ اِلَى ضِدِّ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ فَاِذَا لَمْ يُضْبَطُوا بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ اَضْدَادُ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ. وَذٰلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ ٱلتَّأْنِيبَ وَٱلتَّوْبِيخَ اَعْنِي ٱلَّذِي يَمِيلُ اِلَى ضِدِّ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ اَوِ ٱلْمُدَبِّرَ ٱلَّذِي لَا يَضْبِطُ ٱلْمَدَنِيِّينَ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطْبِيَّةِ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ بَيْنَ ٱلْاِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُشَارِكِ لَهُ فِي اَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ ٱلشَّرِكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَٱلْمَنْفَعَةُ ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي اَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ ٱلْبُرْهَانُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلَّتِي يُرَادُ مِنْهُمْ اعْتِقَادُهَا. وَذٰلِكَ اِمَّا لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تُخَالِفُ ٱلْحَقَّ فَاِذَا سُلِكَ بِهِ نَحْوَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهُلَ اِقْنَاعُهُ. وَاِمَّا لِاَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً لِقَبُولِ ٱلْبُرْهَانِ اَصْلًا. وَاِمَّا لِاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وُقُوعُ ٱلتَّصْدِيقِ فِيهِ. فَلِهٰذَا قَدْ نَضْطَرُّ اِلَى اَنْ نُحَصِّلَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَعْنِي

بالمحمودات. وهذه المنفعة تشارك هذه الصناعة فيها صناعة الجدل كما ذكرنا ذلك في كتاب الجدل. وهذه الصناعة يمكنها الاقناع في المتضادين جميعا كما يمكن ذلك في القياس الجدلي. وذلك انا قد نقنع في الجاني انه اساء وانه لم يسيء ولست اعني انا نفعل الامرين جميعا في وقت واحد بل نفعل هذا في وقت وهذا في وقت بحسب الانفع. وذلك انه كثيرا ما يكون الشيء نافعا في وقت وضده نافعا في وقت آخر. وايضا فانه اذا كانت الاشياء التي تثبت الشيء وضده عندنا عتيدة وسمعنا متكلما قد اقنع في الضد الذي ليس بعدل امكننا بهذه القوة ان ننقض عليه قوله. فهاتان المنفعتان موجودتان في القدرة التي في هذه الصناعة على الاقناع في شيء من الصنائع القياسية الا في هاتين الصناعتين هما مهيأتان بالطبع وعلى السواء للاقناع في كلا المتقابلين. اعني انه ليس واحدة منهما توجد اشد استعدادا للاقناع في احد المتقابلين منها في الآخر بل الاستعداد الموجود فيها على الاقناع في المتقابلين هو على السواء. فاما الاشياء الموضوعة لهاتين الصناعتين اعني الاشياء التي فيها تقنع فليس استعدادها لقبول الاقناع على السواء لكن اذا كانت الامور التي تقنع فيها صادقة كانت الاقاويل الخطبية والجدلية التي تستعمل فيها افضل وابلغ... فقد استبان من هذا ان هذه الصناعة ليس تنظر في احد المتقابلين ولكنها تنظر فيهما على السواء كالحال في الجدل وانها نافعة لهذا جدا. وليس عمل

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تُقْنِعَ وَلَا بُدَّ ، أَعْنِي أَنَّهُ لَيْسَ يَتْبَعُ فِعْلَهَا ٱلْإِقْنَاعُ ضَرُورَةً كَمَا يَتْبَعُ فِعْلَ ٱلنَّجَّارِ وُجُودُ ٱلْكُرْسِيِّ ضَرُورَةً إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ. بَلْ عَمَلُهَا هُوَ أَنْ تُعَرِّفَ جَمِيعَ ٱلْمُقْنِعَاتِ فِي ٱلشَّيْءِ وَتَأْتِيَ بِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ وَإِنْ لَمْ يَقَعْ إِقْنَاعٌ. وَٱلْحَالُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِعْلُهَا ٱلْإِبْرَاءَ وَلَا بُدَّ، بَلْ إِنَّمَا فِعْلُهَا أَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غَايَةَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُمْكِنِ فِعْلُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلْإِبْرَاءِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي أَفْعَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا مِثْلَ أَنْ يُبْرِئَ مَنْ لَيْسَ بِطَبِيبٍ وَيُقْنِعَ مَنْ لَيْسَ بِخَطِيبٍ لٰكِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْحَقِيقِيَّ إِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْغَايَةَ تَتْبَعُ فِعْلَ هٰذَا عَلَى ٱلْأَكْثَرِ وَذٰلِكَ عَلَى ٱلْأَقَلِّ. وَكَمَا أَنَّ فِي ٱلْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ كَذٰلِكَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنِعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ كَذٰلِكَ. لٰكِنْ لَمَّا كَانَ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ لَيْسَ إِنَّمَا يَكُونُ سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ إِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ ٱلْأَقَاوِيلِ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْخَارِجَةِ وَذٰلِكَ لِإِيهَامِهِ أَنَّهُ حَكِيمٌ وَكَانَ ٱلْجَدَلِيُّ إِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ لَهُ عَنِ ٱلصِّنَاعَةِ فَبِٱلْوَاجِبِ لَمْ تَكُنِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ أَعْنِي ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقَايِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

إذا استعملت نحو هذه الغايـة . وأما إذا استعملت على طريق الامتحان فهي جزء منها . وأما الخطيب فلمّا كان خطيباً من أجل الأمور التي من خارج مثل الكرامة وغير ذلك من سائر الخيرات أو من قبل ملكة هذه الصناعة كانت الأقاويل التي يظن بها أنها مقنعة وليست بمقنعة جزءا من هذه الصناعة . لأن المقصود بهذه الأقاويل في هذه الصناعة قد يكون بعينه مقصود السوفسطائي . وإنمـا كان ذلك كذلك لأن المقصود بهذه الصناعة من الذي يراد إقناعه إنما هو الفعل أو الانفعال فإذا حصل ذلك منه فلا فرق بين أن يكون حصوله عن أقاويل هي مقنعة في الحقيقة أو عن أقاويل يظن بها أنها مقنعة وليست بمقنعة . فإن كان هذا الفعل المقصود من المخاطب أو الانفعال خيرًا ما له لا للخطيب كانت الأقاويل التي يظن بها أنها مقنعـة وليست بمقنعة داخلة في هذه الصناعة بالجهة التي دخلت في صناعة الجدل الأقاويل التي يظن بها أنها جدلية إذ لم يقصد بها مقصد السفسطة . وإن كان مقصد الخطيب خيرًا يناله من الخيرات التي يقصدها السوفسطائيون كان القول الذي يظن به أنه مقنع وليس بمقنع من جهـة ما هو سوفسطائي جزءا من هذه الصناعة إذ قد يشارك الخطيب السوفسطائي في غايتـه . فلذلك قد تدخل الأقاويل السوفسطائية في هذه الصناعـة ولا تدخل في صناعة الجدل

البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَّا مِنْ أَنْحَاءِ ٱلْبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنْهَا إِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صِنْفَيِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احدُهُمَا ٱلْمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلْإِرْشَادُ . وَاكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَوْضُوعَاتِ ٱلْخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلِاعْتِذَارِ وَسَائِرِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلْفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِٱلِاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلِاعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ انَّ ٱلَّذِي يَفْعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ افْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِٱلِاتِّفَاقِ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفْعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ اتَمَّ وَافْضَلَ . وَهٰذَا امْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلْخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا انْ تُثْبَتَ اجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلِاعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ أَبُو ٱلْأَشْعَثِ قُلْتُ لِبَهْلَةَ ٱلْهِنْدِيِّ أَيَّامَ ٱجْتَلَبَ يَحْيَى ٱبْنُ خَالِدٍ أَطِبَّاءَ ٱلْهِنْدِ : مَا ٱلْبَلَاغَةُ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْهِنْدِ . قَالَ بَهْلَةُ : عِنْدَنَا فِي ذٰلِكَ صَحِيفَةٌ مَكْتُوبَةٌ وَلٰكِنَّنِي لَا أُحْسِنُ تَرْجَمَتَهَا وَلَمْ أُعَالِجْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ فَأَثِقَ مِنْ نَفْسِي بِٱلْقِيَامِ بِخَصَائِصِهَا وَلَطِيفِ مَعَانِيهَا . (قَالَ أَبُو ٱلْأَشْعَثِ) فَتَلَقَّيْتُ تِلْكَ ٱلصَّحِيفَةَ ٱلْمُتَرْجَمَةَ فَإِذَا فِيهَا : أَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَذٰلِكَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُتَخَيِّرًا لِلَّفْظِ لَا يُكَلِّمُ سَيِّدَ ٱلْأُمَّةِ بِكَلَامِ ٱلْأُمَّةِ وَٱلْمُلُوكَ بِكَلَامِ ٱلسُّوقَةِ وَيَكُونُ فِي كَلَامِهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ وَلَا يُدَقِّقُ ٱلْمَعَانِيَ كُلَّ ٱلتَّدْقِيقِ وَلَا يُنَقِّحُ ٱلْأَلْفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنْقِيحِ وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ وَلَا يَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتَّى يُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا . وَمَنْ تَعَوَّدَ حَذْفَ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَإِسْقَاطَ مُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنَظَرَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ عَلَى جِهَةِ

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْأَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا عَلَى وَجْهِ ٱلِٱسْتِطْرَافِ وَٱلتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَٱعْلَمْ أَنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ ٱلِٱسْمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلِٱسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُونِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْأَمْرِ عَلَى إِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَإِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَأَوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ : (أَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) أَيْ أَوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ ٱللّٰهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى ٱكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ أَتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ . وَإِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَأَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِٱرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ أَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

(١) ويروى على جهة الاعتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرُّف
(٣) ويروى في اقدار

صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ عَلَى طَبَقَاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ أَبْلَغَ وَأَجَادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَخَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حَاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حَاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحَالَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حَالَاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلَالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجَاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجَاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْاِخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلَامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصَائِدَ . قَالَ : لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَإِذَا طَالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلَامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيَادِينِ ٱلْبَلَاغَةِ إِذَا كَثُرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا . وَمِنْ تَمَامِ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلْإِرْتَاجِ

وَٱلْإِفْحَامِ . وَبَلَغَكَ مَا أَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ ٱلْمِنْبَرَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلَّذَيْنِ قَبْلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا ٱلْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمُ ٱلْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ مِنْبَرًا بِخُرَاسَانَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنَّنِي ... بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ ٱلْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ ٱلْاعْتِذَارِ عِنْدَ ٱلْإِرْتَاجِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) أَمْتَنَعَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ ٱلْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ ٱلْمُوسِرُ وَيَفِلُّ ٱلْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ ٱلْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ بَعْدَ ٱلْإِفْحَامِ كَٱلْإِشْرَاقِ بَعْدَ ٱلظَّلَامِ وَقَدْ يَعْزُبُ ٱلْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَإِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ (١) إِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِٱنْبِسَاطِهِ إِذَا ٱرْتَجَلَ . أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ أُمَرَاءُ ٱلْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا ٱحْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا ٱمْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مُقَامِنَا هٰذَا مَقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ ٱلْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ قَدْ جَمَعَ ٱلْهُدُوَّ

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَٱلتَّسَهُّلَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلْحَلَاوَةَ وَلَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَغْنِي عَنِ ٱلْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ : (مُتَخَيِّرَ ٱلْاَلْفَاظِ) فَلِاَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَخَيُّرِ ٱللَّفْظِ وَتَخَيُّرُهُ اَصْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ : (وَيَكُونَ فِي قُوَاهُ فَضْلُ ٱلتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ اَنْ يَكُونَ صَانِعُ ٱلْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعْتَاصُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ اَقْسَامِهِ فَاِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمَفَاخِرِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ اَصْنَافِهِ. وَلِاخْتِلَافِ قُوَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ: كَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ اَشْعَرَ ٱلنَّاسِ اِذَا رَكِبَ وَٱلنَّابِغَةُ اِذَا رَهِبَ وَزُهَيْرٌ اِذَا رَغِبَ وَٱلْاَعْشَى اِذَا طَرِبَ . وَكَذٰلِكَ ٱلْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ وَتَاَخَّرَ فِي غَيْرِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسُرَ نَوْعٌ آخَرُ وَاَخْبَرَ اَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ : اَمَرَنِي ٱلْمَاْمُونُ اَنْ اَكْتُبَ اِلَى ٱلنَّوَاحِي فِي ٱلْاِسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلْقَنَادِيلِ فِي ٱلْمَسَاجِدِ. فَبِتُّ لَا اَدْرِي كَيْفَ اَحْتَذِي فَاَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ : قُلْ فَاِنَّ فِي ذٰلِكَ عِمَارَةَ لِلْمَسَاجِدِ وَاُنْسًا لِلسَّابِلَةِ وَاِضَاءَةً لِلْمُتَهَجِّدِينَ وَنَفْيًا لِمَكَامِنِ ٱلرِّيَبِ وَتَنْزِيهًا لِبُيُوتِ ٱللّٰهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ ٱلظُّلَمِ. فَٱنْتَبَهْتُ وَقَدِ ٱنْفَتَحَ لِي مَا اُرِيدُ فَٱبْتَدَاْتُ بِهٰذَا وَاَتْمَمْتُ عَلَيْهِ. وَٱلْمُقَدَّمُ فِي صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ هُوَ ٱلْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ٱلْمُتَمَكِّنُ مِنْ جَمِيعِ اَنْوَاعِهِ وَبِهٰذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلْفَرَزْدَقِ وَقَالُوا: كَانَ لَهُ فِي ٱلشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا ٱلْفَرَزْدَقُ. وَسُئِلَ

بَعْضُهُمْ عَنْ أَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ أَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَأَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ أَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ أَيْ يَأْتِي مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَأُخْرَى بِالسَّهْلِ فَيَلِينُ إِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ إِذَا أَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا الْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَأَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمَ سَيِّدَ الْأُمَّةِ بِكَلَامِ الْأَمَةِ وَلَا الْمُلُوكَ بِكَلَامِ السُّوقَةِ) لِأَنَّ ذٰلِكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ الرَّأْيِ وَقِلَّةُ الْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ السُّوقِيَّ وَالْمَمْلُوكَ الْأَعْجَمِيَّ بِأَلْفَاظِ أَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي أَهْلِ السَّرَاةِ. كَأَبِي عَلْقَمَةَ إِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اُشْدُدْ قَصَبَ الْمَلَازِمِ وَأَرْهِفْ ظُبَاتِ الْمَشَارِطِ وَأَمِرَّ الْمَسْحَ وَاسْتَحِلَّ الرَّشْحَ وَخَفِّفِ الْوَطْءَ وَعَجِّلِ النَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تَمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ الْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ. وَأَخْبَرَ أَبُو الْمُغَازِلِ الضَّبِّيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالْغَرِيبِ فَخَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَأَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا النِّصَاحِ وَذَاتِ السَّمِّ الطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا الْخَاسِنُ الْمُسَرْهَفُ (١) كَأَنَّ

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتهُ ٱلقمرُ ٱلازهرُ يُنيرُ في حُضرهِ كالحُلَّبِ ٱلاجردِ (١). فقال ٱلخيّاطُ اطلُبها في برِّ لَخْلَخٍ (٢). فقال: وَيلكَ وما تقولُ قبّحك ٱللهُ فما اعلمُ رطانتكَ. فقال: لعنَ ٱللهُ ابغضنا لفظًا وَاخطانا منطقًا

وقولهُ: (ولا يُدقّقَ ٱلمعاني كلَّ ٱلتدقيقِ) قال ابو هلال: لأنَّ ٱلغايةَ في تدقيقِ ٱلمعنى سبيلٌ الى تعميتهِ وتعميةُ المعنى لُكنةٌ الّا اذا أُريدَ بهِ ٱلالغازُ وكانَ في تعميتهِ فائدةٌ مِثلُ اثباتِ (٣) ٱلمعاني وما يجري معها منَ ٱللحونِ ٱلتي استعملوها وكنوا بها عن ٱلمرادِ لبعضِ ٱلغرضِ. فامّا مَن ارادَ ٱلابانةَ في مديحٍ او صفةِ شيءٍ فأتى بإغلاقٍ دلَّ على عجزهِ في ٱلابانةِ وقصورهِ عن ٱلافصاحِ

وقولهُ: (ولا يُنقّحَ ٱلالفاظَ كلَّ ٱلتنقيحِ) فتنقيحُ ٱللفظِ ان يُبنى منهُ بناءٌ لا يكثرُ في ٱلاستعمالِ كما قالَ بعضهم لبعضِ ٱلوزراءِ: احسنَ ٱللهُ إبانتكَ. فقال لهُ ٱلوزيرُ: عجّلَ ٱللهُ إماتتكَ. ويدخلُ في تنقيحِ ٱللفظِ ٱستعمالُ وحشيهِ وتركُ سلسهِ. وقد اخذَ ٱلرواةُ على زُهيرٍ قولهُ:

تقيٌّ نقيٌّ لم يُكثّر غنيمةً   بنهكةِ ذي ٱلقربى ولا بحقلّدِ

فاستبشعوا (ٱلحقلّد) وهو ٱلسيّئُ ٱلخلقِ وقالوا: ليس في لفظِ زهيرٍ انكرُ منهُ. قال ابو عثمان: رأيتهم يزيدون في كتبهم هذا ٱلكلامَ فإن كانوا إنّما رووهُ ودوّنوهُ لأنّهُ يدلُّ على فصاحةٍ وبلاغةٍ فقد

---

(١) وفي رواية: ينير في خضره كالحلّب الاخرز (٢) ويروى: في قر بلخ
(٣) وفي رواية: ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلبَلَاغَةِ وَٱلفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلحَسَنِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلكَلَامِ ٱلمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَقِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلُ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرّد عنّا

تَعوَّدَ حَذفَ فُضُولِ ٱلكَلَامِ وَمُشتَرَكَاتِ ٱلأَلفَاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي ٱلمَنطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلاِستِطرَافِ وَٱلتَّطَرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلكَلَامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحكَمِهِ عِندَ مَنْ يَفهَمُهُ عَنهُ وَيَقبَلُهُ مِنهُ مِمَّنْ عَرَفَ ٱلمَعَانِي وَٱلأَلفَاظَ عِلمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلإِعرَابِ وَٱلمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا كَمَنِ ٱستَطرَفَ شَيْئًا مِنهَا فَنَظَرَ فِيهِ نَظَرًا غَيرَ كَامِلٍ أَوْ أَخَذَ مِنْ أَطرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ أَطرَارِهِ فَتَحَلَّى بِٱسمِهِ وَخَلَا مِنْ رَسْمِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَثِقْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِندَ مَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنفَعَةُ مَنطِقِهِ. لِأَنَّ ٱلعَامِّيَ إِذَا كَلَّمتَهُ بِكَلَامِ ٱلعِلْيَةِ سَخِرَ مِنكَ وَزَرَى عَلَيكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ لِبَعضِ ٱلعَامَّةِ: بِمَ كُنتُمْ تَنتَقِلُونَ ٱلبَارِحَةَ (يَعنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلحَمَّالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (أَيْشَ كَانَ نُقْلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخرِيَتِهِ. فَيَنبَغِي أَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجهَلُونَ

وَأَمَّا قَولُهُ: (مَنْ تَعَوَّدَ حَذفَ فُضُولِ ٱلكَلَامِ إلخ) هُوَ أَنْ يُسقِطَ مِنَ ٱلكَلَامِ مَا يَكُونُ ٱلكَلَامُ مَعَ إِسقَاطِهِ تَامًّا غَيرَ مَنقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثلُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِصُحَارٍ ٱلعَبدِيِّ: مَا ٱلبَلَاغَةُ فَقَالَ: أَنْ تَقُولَ فَلَا تُخطِئَ وَتُسرِعَ فَلَا تُبطِئَ. ثُمَّ قَالَ: أَقِلْنِي هَوَانَ (لَا تُخطِئُ وَلَا تُبطِئُ). فَأَلقَى ٱللَّفظَتَينِ لِأَنَّ فِي ٱلَّذِي أَبقَى غِنًى عَنهُمَا وَعِوَضًا مِنهُمَا.

فَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي زِيَادَةِ ٱلْأَلْفَاظِ فَائِدَةٌ فَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلتَّذْيِيلِ . وَقَوْلُهُ : (وَمُشْتَرَكَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ) فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْإِبَانَةَ عَنْ مَعْنًى فَيَأْتِيَ بِٱلْأَلْفَاظِ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ خَاصَّةً بَلْ يَشْتَرِكُ مَعَهُ مَعَانٍ أُخَرُ فَلَا يَعْرِفُ ٱلسَّامِعُ أَيَّهَا أَرَادَ . وَرُبَّمَا ٱسْتَبْهَمَ ٱلْكَلَامُ فِي نَوْعٍ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ حَتَّى لَا يُوقَفَ عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . فَمِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ جَرِيرٍ :

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ ... يَوْمُ ٱلرَّحِيلِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ

فَوَجْهُ ٱلْإِشْتِرَاكِ فِي هٰذَا أَنَّ ٱلسَّامِعَ لَا يَدْرِي إِلَى أَيِّ شَيْءٍ أَشَارَ مِنْ أَفْعَالِهِ فِي قَوْلِهِ (فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ) أَأَرَادَ أَنْ يَبْكِيَ إِذَا رَحَلُوا أَوْ يَهِيمَ عَلَى وَجْهِهِ مِنَ ٱلْغَمِّ ٱلَّذِي لَحِقَهُ أَوْ يَتْبَعَهُمْ فِي ٱلْمُضِيِّ عَلَى عَزْمَةِ ٱلرَّحِيلِ أَوْ يَأْخُذَ مِنْهُمْ شَيْئًا يَتَذَكَّرُهُمْ بِهِ أَوْ يَدْفَعَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ بِهِ أَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَفْعَلَهُ ٱلْخَلِيلُ عِنْدَ فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ . فَلَمْ يُبِنْ عَنْ غَرَضِهِ وَأَحْوَجَ إِلَى أَنْ يَسْأَلَهُ عَمَّا أَرَادَ فِعْلَهُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ . وَلَيْسَ هٰذَا كَقَوْلِهِمْ : (لَوْ رَأَيْتَ عَلِيًّا بَيْنَ ٱلصَّفَّيْنِ) . لِأَنَّ دَلِيلَ ٱلْبَسَالَةِ وَٱلنِّكَايَةِ فِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ بَيِّنٌ وَأَمَارَةُ ٱلنُّقْصَانِ فِي بَيْتِ جَرِيرٍ وَاضِحَةٌ لِمَنْ يَسْمَعُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ ٱلْبَلَاغَةِ يَسْتَبْرِدُهُ وَيَسْتَغِثُّهُ وَيَسْتَرْجِعُ ٱلْآخَرَ وَيَسْتَجِيدُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ مَالِكٍ ٱلْأَزْدِيِّ

فَإِنَّكَ لَوْ لَاقَيْتَ سَعْدَ بْنَ مَالِكٍ ... لَلَاقَيْتَ مِنْهُ بَعْضَ مَا كَانَ يَفْعَلُ

فَلَمْ يُبِنْ عَمَّا أَرَادَ بِقَوْلِهِ : (لَلَاقَيْتَ) أَخَيْرًا أَرَادَ أَمْ شَرًّا إِلَّا

أَنْ تَسْمَعَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ وَأَمَّا فِي نَفْسِ ٱلْبَيْتِ فَلَا يَتَبَيَّنُ مَغْزَاهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ أَنْ أُودِعَ ٱلثَّرَى ... بِهِ مَا يُقَالُ فِي ٱلسَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ ٱلنَّاسِ فِي ٱلسَّحَابِ إِذَا أَقْلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَذُمُّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يُحِبُّ إِقْلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ إِقْشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُهَا عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُهَا مِنْهُمْ فَلَمْ يُبَيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ ٱلسَّامِعُ . عَلَى أَنَّ ٱلْمُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : إِنَّ أَكْثَرَ ٱلْعَادَةِ فِي ٱلسَّحَابِ أَنْ يُحْمَدَ أَثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَا كَانَ مُبْعِدًا . وَلَمْ أُرِدْ عَيْبَ أَبِي تَمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَإِنَّمَا أَرَدْتُ ٱلْإِخْبَارَ عَنْ وُجُوهِ ٱلْإِشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ . وَمِنَ ٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

وَخَبَّنُ مَا يَخْبَنُ مِنْ آخِرٍ ... مِنْهُ وَٱلطَّابِنِ أَمْهَارُ (١)

ٱلْأَمْهَارُ هَا هُنَا جَمْعُ مُهْرٍ مِنْ قَوْلِهِمْ : مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا . وَٱلْمَصَادِرُ لَا تُجْتَمَعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ أَنَّهُ يُرِيدُ جَمْعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ ٱلْمَعْنَى عَلَيْهِ . وَخَطَبَ بَعْضُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ ٱللهِ تَعَالَى : لَا يُقَاسُ بِٱلْقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِٱلْأَلْمَاسِ . أَرَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَأَصَابَ ٱلسَّجْعَ وَأَخْطَأَ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا مَا بَيْنَهُمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ إِلَّا بِٱلتَّوَهُّمِ . وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخَالِي مِنَ ٱلْإِشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِآخَرَ لَهُ أَرَادَ فِرَاقَهُ :

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوّاس :

وخبز ما يخبز من بعده ... منه والطابن اهمار

لَمَّا تَصَفَّحْتُ اخْلَاقَكَ فَوَجَدْتُهَا مُبَايِنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِغَةً عَنْ قَصْدِ طَرِيقَتِي صَبَرْتُ عَلَيْهَا رِيَاضَــةً لِنَفْسِي عَلَى ٱلصَّبْرِ لِمَسَاوِئِ اخْلَاقِ ٱلْمُعَاشِرِينَ وَلِعِلْمِي بِكَامِنِ ٱلْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْعَالَمِينَ. وَٱلَّذِي رَجَوْتُ مِنْ مَرَمَّةِ خِصَالِكَ بِمَا أُقَابِلُهَا بِهِ مِنَ ٱلتَّجَاوُزِ وَاسْحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا اذْيَالَ ٱلتَّغَاضِي. وَانْتَ مَعَ ذَٰلِكَ لَا تُقَوِّمُ اعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا يَعْطِفُ بِكَ ٱلرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ. فَلَمَّا فَنِيَتْ حِيلَتِي فِيكَ وَانْقَطَعَتْ اسْبَابُ امَلِي مِنْكَ وَرَأَيْتُ ٱلدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى ٱلتَّعَهُّــدِ بِٱلدَّوَاءِ الَّا فَسَادًا وَٱلْخَرْقَ عَلَى ٱلتَّرْقِيعِ الَّا ٱتِّسَاعًا قَدَّمْتُ ٱلْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى ٱلرَّجَاءِ فِيكَ فَاحْتَسَبْتُ ايَّامِي ٱلسَّالِفَةَ فِي ٱسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ: (وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى انْ يَكُونَ لَــهُ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا) اي يَكُونَ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا لِلَّفْظِ بِقَدْرِ ٱلْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْــهِ وَلَا نَاقِصٍ عَنْهُ فَكَانَ كَالطَّبَقِ عَلَى ٱلْإِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يَكُونَ ٱلِٱسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا) فَهٰذَا دَاخِلٌ فِي ٱلْأَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ: وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى انْ يَكُونَ لَهُ ٱلِٱسْمُ طِبْقًا. وَمِثَالُ ٱلْفَاضِلِ مِنَ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ اُذَيْنَةَ:

وَٱسْقِ ٱلْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَٱعْلَمْ لَهُ ... بِٱلْغَيْبِ انْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكَهَا
وَٱجْزِ ٱلْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى انْ لَوْ لَهُ ... يَوْمًا بَذَلْتَ كَرَامَةً لَجَزَاكَهَا

وَمَعْنَى هٰذَا ٱلْكَلَامِ مَحْصُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ: اجْزِ كُلًّا بِفِعْلِهِ. وَكَانَ ٱلسُّكُوتُ لِعُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَاضِلِ عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ ابِي ٱلْعِيَالِ ٱلْهُذَلِيِّ.

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ إِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ إِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ ٱلنُّوكِ مِمَّنْ رَامَ كَدَّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) ٱلتَّضْمِينُ أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ مُفْتَقِرًا إِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَوَّلُ مُحْتَاجًا إِلَى ٱلْأَخِيرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

كَأَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ

قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى إِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْأَعْيَادِ بِأَجْزَلِ ٱلْأَقْسَامِ وَأَوْفَرِ ٱلْأَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْأَنْصَافَ وَٱلْأَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَإِدْخَالُكَ إِيَّاهُ فِي أَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ إِلَّا قَوْلَهُ :(وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ

البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

أَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا أَشْيَاءُ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِٱحْتِجَاجِ بِٱلْأَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتُهِرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْإِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَأَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: (أَحَدُهَا) إِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا أَهْلًا أَنْ يُصَدَّقَ وَأَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلتَّكَلُّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَأَعْضَائِهِ شَأْنُهَا أَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي أَرِسْطُو بِٱلْكَيْفِيَّةِ. وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ أَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي ٱلشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَسُّوهَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ. فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَفِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا أَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ أَوْ وَهِمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ مُمْكِنًا أَنْ يَهِمَ فِيهِ ٱلْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدَّقُونَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْخَطَابَةِ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْقَضِيَّةَ وَٱلْأَنَاةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ ٱلْانْفِعَالِ فَقَطْ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِي يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ ٱلسَّامِعَ بِٱلْقَوْلِ ٱنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِٱلشَّيْءِ وَإِقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ ٱلْفَرَحِ أَوِ ٱلْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذٰلِكَ إِذَا كُنَّا فِي حَالِ ٱلسُّخْطِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوْ حَالِ ٱلرِّضَا عَنْهُ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكَلَّمَ فِيهَا أُولَائِكَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُقْنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتِ ٱلتَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُقْنِعَ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ. (وَثَانِيهَا)

مَعْرِفَةُ ٱلْاَخْلَاقِ وَٱنْفِعَالِ . (وَثَالِثُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ (١) وَذَلِكَ بِاَنْ يَعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِنْ اَيِّ شَيْءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيْفَ يَكُونُ. وَاِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَاَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ اَعْنِي ٱلْمَدَنِيَّةَ. وَاِنَّمَا لَمْ يُوجَدْ لِمَنْ تَقَدَّمَ قَوْلٌ مُسْتَوْفٍ فِي اَجْزَائِهَا اِمَّا مِنْ قِبَلِ جَهْلِهِمْ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهُمْ ضَنُّوا عَلَى غَيْرِهِمْ وَبَخِلُوا عَلَيْهِمْ بِمَا وَقَفُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ لِمَكَانِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلْجَدَلِ فِي اَنَّهَا تَنْظُرُ فِي كِلَا ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ وَفِي اَنَّهُمَا لَيْسَا يَنْظُرَانِ فِي شَيْءٍ مَحْدُودٍ نَظَرًا يَبْلُغَانِ بِهِ ٱلْيَقِينَ لَكِنْ اِنَّمَا يَبْلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱلْيَقِينِ

---

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة. وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, moeurs oratoires, passions)



الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوّل

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْمَنْسُوبَةَ إِلَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّصْدِيقُ وَٱلِاعْتِرَافُ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلدَّعْوَى وَذٰلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَثْبِيتِ ٱلشَّيْءِ عِنْدَ ٱلْمُعْتَرِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ أَنَّا إِنَّمَا نَعْتَرِفُ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي رَأَيْنَا أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا وَٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي تَثْبُتُ بِهِ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِأَنَّ هٰذَا هُوَ أَصْلُ ٱلتَّصْدِيقِ وَعَمُودُهُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُوقِعُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّصْدِيقِ أَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلْبَلَاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوْعٌ مِنَ ٱلْقِيَاسِ وَمَعْرِفَةُ ٱلْقِيَاسِ جُزْءٌ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْمَنْطِقِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِمَّا فِي كُلِّهَا وَإِمَّا فِي أَجْزَاءٍ مِنْهَا. وَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَعْرِفُ ٱلْقِيَاسَ مِنْ كَمْ شَيْءٍ يَأْتَلِفُ وَيَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعْرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ أَنْ

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيهِ امّا الكبرى وامّا الصغرى

تعرف القياس الذي هو جنسه . والذي يزيد على هذا فيعلم لماذا تعمل الضمائر والفصول التي بين الضمير وبين سائر المقاييس التي تستعمل في الصنائع الأخر فهو اقدر من ذينك . والمعرفة بهذا كله انما هو لصناعة المنطق . فان للقوة الواحدة بعينها اعني للصناعة الواحدة بعينها ان تعرف الشيء الذي هو حق والذي هو شبيه بالحق والتصديقات الخطبية وان لم تكن حقًّا فهي شبيهة بالحق وايضا فان الناس متهيئون بطبيعتهم كل التهيئة نحو الوقوف على الحق نفسه وهم اكثر ذلك يرومونه ويبلغون عنه . والمحمودات وهي التي تكون منها الضمائر شبيهة بالحق من قبل انها نائبة عند الجمهور مناب الحق . والشبيه بالحق قد يدخل في علم الحق الذي هو علم المنطق . واذا كان الامر هكذا فقد استبان ان قصور هؤلاء فيما تكلموا فيه من امر الخطابة انما كان من اجل انه لم يكن عندهم علم بالمنطق وان سائر من تكلم في الخطابة ومن يستعمل الاقاويل الخطبية فقط من غير ان يتقدموا فيعرفوا هذه الاشياء التي هي عمود البلاغة انهم انما يتكلمون في اشياء تجري من البلاغة مجرى التزيين والتنميق الذي يكون في ظاهر الشيء وصفته لا في الاشياء التي تتنزل منها منزلة ما به قوام الشيء ووجوده وان كان قد يظن بما فعلوا من ذلك انهم قد بلغوا الغاية من الاقاويل الاقناعية وجروا في ذلك على طريق الصواب والعدل

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ ٱلْمُوَصِّلُ إِلَى ٱلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِدْرَاكُ إِمَّا تَصَوُّرًا أَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَإِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ ٱلظَّنِّيَّ وَٱلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِٱلْقَطْعِيِّ. وَيُسَمَّى ٱلظَّنِّيُّ إِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْمَعْلُولِ عَلَى ٱلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال: (الطريق) اي ما يقع فيهِ النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر. (وحدُّهُ) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقاً بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ. وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل بهِ اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لهُ. واراد بالنظر فيهِ ما يعمُّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا. ويتناول ايضاً التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم توْخذ مع ترتيبها. واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلُّ مَا كَانَ ٱلْقَوْلُ أَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ أَكْثَرَ مُؤَاتَاةً وَتَأَتِّيهَا لِأَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ أَقَلَّ عُمُومًا كَانَ أَحْرَى أَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ . وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْمَوَاضِعُ مِنَ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطَبِيَّةِ وَٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْجَدَلِيَّةِ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَنْطِقِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلسِّيَاسِيَّةَ أَعْنِي ٱلْإِرَادِيَّةَ . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ (*) فَإِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصورًا او تصديقًا فكـذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر . (فان كان) المطلوب (تصورًا سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفًا) . (وان كان) المطلوب (تصديقًا سمي) طريقهُ (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالغيم الرطب الموصل الى ظن المطر . (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضًا مع التخصيص الاول (بما يكون) الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا انيًّا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لِمِّيًّا

تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا بَلْ فِي جَمِيعِهَا إِذْ كَانَتْ لَا تُسْتَعْمَلُ نَفْسُهَا وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ قُوَّتُهَا. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْجُزْئِيَّةِ مِثْلُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَإِنَّهَا لَا تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَلَا ٱلَّتِي فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْخُلُقِيَّةِ تُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَإِذَنِ ٱلْمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنْهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ إِذْ مَا يُتَصَوَّرُ مِنْهَا هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرَ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَأَمَّا ٱلْأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنْهَا ٱلْمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تَلْتَئِمُ مِنْهَا ٱلصِّنَاعَةُ ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعُ مَخْصُوصَةٌ بِهَا. لٰكِنَّ ٱلْأَنْوَاعَ ٱلَّتِي نَحْنُ عَازِمُونَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ عَلَى ذِكْرِهَا لَيْسَتْ هِيَ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْمَقَايِيسُ ٱلْخُطَبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ جَدَلِيَّةً فَضْلًا عَنْ خُطَبِيَّةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ ٱلْمَعْمُولَةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَكْثَرُ ذٰلِكَ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنْهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ مِنْ أَجْنَاسِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنْهَا عَامًّا لِلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي نُحَدِّدُ بَعْدُ

البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

التعريف عند اهل العربية هو جعل الذات مشارا بها الى خارج اشارة وضعية ويقابلها التنكير . وعند المنطقيين هو الطريق الموصل الى المطلوب التصوري ويسمى معرّفا وقولا شارحا ايضا ويسمى حدا ايضا عند الاصوليين . وذلك المطلوب التصوري يسمى معرّفا ومحدودا . وبالجملة فالمعرّف ما يكتسب به التصور فخرج ما يحصل بطريق الحدس وما يحصل من الملزومات البيّنة من العلم باللوازم فان الاكتساب انما هو بالنظر . وقال المنطقيون : لا بدّ في المعرّف من مميّز فان كان المميّز ذاتيا سمّي المعرّف حدّا وان كان عرضيا سمّي المعرّف رسما . وقال المتقدمون : ان الرسم منه تام يميّز المرسوم من كل ما يغايره وهو يتركّب من الجنس القريب والخاصة كتعريف الانسان بالحيوان الضاحك . ومنه ناقص يميّزه عن بعض ما يغايره ويكون بالخاصة وحدها او بها وبالجنس البعيد كتعريف الانسان بالضاحك او بالجسم الضاحك او بعرضيات تختص جملتها بحقيقة واحدة كقولنا في

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ : اِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ . وَصَرَّحُوا بِاَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجَوْدَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْاَعَمِّ وَٱلْاَخَصِّ وَاَيَّدَ ذٰلِكَ بِاَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ اَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمْيِيزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْاَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرِّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتُهُ . فَاِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ . وَاَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِاَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ . اِمَّا ذَاتِيٍّ اَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ اَوْ عَرَضِيٍّ . فَيَجِبُ اَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ اَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْاِيجِيُّ : (*) اَلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرَّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ اَوْ اَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ اِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ اَوْ اَكْثَرَ .

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول : (المعرّف تجب معرفته قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفته طريق الى معرفته وسبب لها فلا بد ان تتقدمها . (فيكون غيره) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلوماً قبل ان يكون معلوماً (او) يكون ايضاً (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منه لم يكن معلوماً قبله . (فلا يعرف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرّف الشيء (بما لا يُعرَف الا به) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دوراً صريحاً كقولك : الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة . (او اكثر) ويسمى دوراً مضمراً كقولك : الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمان مقدار الحركة . (ولا بد) اشارة الى شرط آخر للمعرّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) به (التمييز) . (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ انْ يُسَاوِيَهُ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ ٱلتَّمْيِيزُ إِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ ٱلْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا. اَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ اَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَإِنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَإِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا. وَعَلَى ٱلتَّقْدِيرَيْنِ فَإِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ ٱلذَّاتِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَإِلَّا فَنَاقِصٌ. وَٱلْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ ٱلْبَسِيطِ فَإِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَإِلَّا فَلَا. وَكُلُّ كُلِّيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَإِلَّا فَلَا.

اي لولا كونه مساوياً (لدخل فيه غير المعرّف) على تقدير كونه اعمّ مطلقاً او من وجه (فلم يكن مانعاً) من دخول غير المعرف فيه (و) لا (مطرداً) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليه المعرّف ايضاً. (او خرج عنه بعض افراده) على تقدير كونه اخص امّا مطلقاً او من وجه (فلم يكن جامعاً) لجميع افراد المعرّف (و) لا (منعكساً) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليه المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التمييز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولا يلتبس شيء منها بغيرها... (ولا بد فيه) اي في المعرّف (من مميز مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتياً سمي) المعرّف (حدّاً) (والا سمي رسماً. وعلى التقديرين فان ذكر فيه تمام الذاتي المشترك بينه وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامّ) إمّا حد تامّ مركب من الجنس والفصل القريبين وامّا رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب. (والا فناقص) امّا حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذه في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيّ التصور (يحد) باجزائه حدّاً تامّاً وناقصاً (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء له (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كلي) مركب او بسيط (له خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريف (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتمييز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرَّف (والَّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح للتعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسمًا على حدة. ولما كان استئناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فانَّهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذُكر مركَّبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًّا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًّا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا ...

وَاضِحَ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسِّرَ بِلَفْظٍ أَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ إِنَّهُ يُقَدِّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَعَمَّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسية

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

ٱلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شَرِكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ إِلَى أَجْزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ إِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا أَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ أَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصِّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام محصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخِّر الجنس فيــه كان حدًّا ناقصاً فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المنحصرة في الجنس والفصل . (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك ما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم . (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيره . (وبالجملة فعن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه يصدر الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

اَلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ . وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ اِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ . وَاِمَّا اِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ . وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا اِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ . وَيُقْسَمُ اَيْضًا اِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ : ٱلْمُسَاوَاةُ . وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا . وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ . وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ . وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا . وَاِنْ تَصَادَقَا فَاِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَاِلَّا فَاِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا : (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ . (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدُقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ . وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَاِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ . فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِلَى نَوْعٍ مِنْ

اَلْأَنْوَاعِ فَيَجْعَلَهُ جِنْسًا تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا لِأَمْرِهِ بَعْدَ أَنْ يَحْصُرَ جَمِيعَ أَقْسَامِهِ. وَٱلْمُرَادُ عِنْدَهُمْ بِالنَّوْعِ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا عَلَى مُتَعَدِّدٍ ذِهْنًا كَمَا هُوَ النَّوْعُ ٱلْمَعْهُودُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْمَنْطِقِ أَوْ لَا يَصْدِقُ إِلَّا عَلَى فَرْدٍ وَاحِدٍ كَالْجُزْئِيِّ ٱلْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ. وَٱلْمُرَادُ بِالْكُلِّيِّ ٱلْجِنْسُ وَهُوَ مَا صَدَقَ عَلَى مُتَعَدِّدٍ ٱخْتَلَفَتْ حَقِيقَةُ أَفْرَادِهِ. وَمِثَالُ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

هِيَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَقْصَى وَرُؤْيَتُكَ ٱلْمُنَى
وَمَنْزِلُكَ ٱلدُّنْيَا وَأَنْتَ ٱلْخَلَائِقُ

فَقَدْ قَصَدَ تَعْظِيمَ مَمْدُوحِهِ فَجَعَلَ مَنْزِلَهُ ٱلَّذِي هُوَ جُزْئِيٌّ كُلِّيًّا وَهُوَ ٱلدُّنْيَا وَجَعَلَ ذَاتَهُ ٱلَّتِي هِيَ جُزْئِيَّةٌ كُلِّيَّةً وَهِيَ ٱلْخَلَائِقُ. وَأَمَّا حَصْرُ أَقْسَامِ ٱلْجُزْئِيِّ فَلِأَنَّ ٱلْعَالَمَ عِبَارَةٌ عَنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ وَجَمَادٍ. وَٱلْمَنْزِلُ شَامِلٌ لَهَا

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسية والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

اَلْجِنْسُ فِي ٱللُّغَةِ ٱلضَّرْبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلنَّوْعِ. يُقَالُ: ٱلْإِنْسَانُ نَوْعٌ وَٱلْحَيَوَانُ جِنْسٌ. وَيُرَادُ بِهِ عِنْدَ أَهْلِ ٱلْعَرَبِيَّةِ ٱلْمَاهِيَّةُ، وَكُلُّ مَا دَلَّ عَلَى شَيْءٍ وَعَلَى كُلِّ مَا أَشْبَهَهُ وَبِٱلنَّظَرِ إِلَى

هٰذَا قِيلَ ٱسْمُ ٱلْجِنْسِ ٱسْمٌ مَوضُوعٌ لِلْمَاهِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَٱلْجِنْسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْأَغْرَاضِ دُونَ ٱلْحَقَائِقِ . وَقِيلَ أَيْضًا : ٱلْجِنْسُ هُوَ ٱلْمَقُولُ عَلَى أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ . وَٱلنَّوْعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِٱلْعَدَدِ فَقَطْ كَٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا أُطْلِقَ ٱلْجِنْسُ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلْعَامِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ ٱلْفَلَاسِفَةِ أَوْ نَوْعًا . كَٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي ٱلْإِنْسَانِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّ ٱلْجِنْسَ يُقَدَّمُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنِ ٱلْمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ ذٰلِكَ ٱلْجِنْسَ فَقَطْ كَٱلْحَيَوَانِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي ٱلْحَيَوَانِيَّةِ كَٱلْفَرَسِ وَٱلْغَنَمِ وَٱلْبَقَرِ وَنَحْوِهَا . وَإِنْ كَانَ ٱلْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ ٱلْجَوَابُ هُوَ غَيْرَهُ كَٱلْجِسْمِ ٱلنَّامِي بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ ٱلْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَٱلنَّبَاتَاتِ . . وَٱلْأَجْنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَٱلْأَنْوَاعُ مُتَنَازِلَةً إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْعَالِي وَإِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ ٱلْجِنْسُ ٱلْمُفْرَدُ



البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعلَمْ اَنَّ ٱلعِلِّيَّةَ وَٱلمَعْلُولِيَّةَ مِنَ ٱلعَوَارِضِ ٱلشَّامِلَةِ لِلمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقَابُلِ كَٱلإِمكَانِ وَٱلوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ ٱحتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَٱلمُحتَاجُ اِلَيهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلمُحتَاجُ مَعْلُولًا. وَٱلعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَٱلاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِٱلفِعْلِ كَٱلهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ ٱلصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِٱلقُوَّةِ كَٱلخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلمَادَّةُ. وَلَهَا اَسْمَاءٌ بِاعتِبَارَاتٍ مُختَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيهَا ٱلصُّوَرُ ٱلمُختَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱستِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يُبتَدَأُ ٱلتَّرْكِيبُ. وَاُسطُقُسٌّ اِذْ اِلَيهَا يَنتَهِي ٱلتَّحلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلمَاهِيَّةِ. (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجْلِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلجُلُوسِ عَلَيهِ لَهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلوُجُودِ. وَٱلاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلمُرَكَّبِ. وَٱلغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِٱلاِختِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعلِ ٱلمُوجِبِ غَايَةً اَيضًا تَشبِيهًا. وَٱلغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي ٱلخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةُ

الْعِلِّيَّةِ وَالْمَعْلُولِيَّةِ . وَيُسَمَّى جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ الْغَايَةِ كَمَا فِي الْبَسِيطِ . وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ الْأَرْبَعِ كَمَا فِي الْمُرَكَّبِ . . . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعِلَّةِ وَالشَّرْطِ أَنَّ الْعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ الْحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِالذَّاتِ . أَمَّا الشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ تَأْثِيرُ الْمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيُبُوسَةِ الْحَطَبِ لِلْإِحْرَاقِ إِذِ النَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي الْحَطَبِ بِالْإِحْرَاقِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاول

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

أَعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا الْمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا النَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ أَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ . (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ النَّزَاهَةُ عَنِ الذَّمِّ كَرَمًا . وَالتَّجَاوُزُ فِي الْمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَالسَّرَفُ فِي الذَّمِّ انْتِقَامًا

يصدرُ عن شرٍّ . وكلاهما شينٌ وإن سلِمَ من الكذبِ . على أنّ السّلامةَ من الكذبِ في المدحِ والذمِّ متعذّرةٌ لاسيّما إذا مدحَ تقرّبا وذمّ تحنّقا . وحُكيَ عن الأحنفِ بن قيسٍ أنّهُ قالَ سهرتُ ليلتي أفكّرُ في كلمةٍ أرضي بها سلطاني ولا أسخطُ بها ربّي فما وجدتُها . وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ : إنّ الرّجلَ ليدخلُ على السّلطانِ ومعهُ دينهُ فيخرجُ وما معهُ دينهُ . قيلَ : وكيفَ ذلكَ . قالَ : يُرضيهِ بما يُسخطُ اللهَ عزّ وجلّ . وسمعَ ابنُ الرّوميّ رجلا يصفُ رجلا ويبالغُ في مدحهِ فأنشأ يقولُ :

إذا ما وصفتَ امرءًا لامرئٍ ... فلا تغلُ في وصفهِ واقصدِ
فإنّكَ إن تغلُ تغلُ الظّنو ... نُ فيهِ إلى الأمدِ الأبعدِ
فيضؤلُ من حيثُ عظّمتَهُ ... لفضلِ المغيبِ على المشهدِ

(ومن آدابهِ) أن لا تبعثهُ الرّغبةُ والرّهبةُ على الاسترسالِ في وعدٍ أو وعيدٍ يعجزُ عنهما ولا يقدرُ على الوفاءِ بهما . فإنّ من أطلقَ بهما لسانهُ وأرسلَ فيهما عنانهُ ولم يستثقلْ من القولِ ما يستثقلهُ من العملِ صارَ وعدهُ نكثا ووعيدهُ عجزا . (ومن آدابهِ) إن قالَ قولا حقّقهُ بفعلهِ وإذا تكلّمَ بكلامٍ صدّقهُ بعملهِ فإنّ إرسالَ القولِ اختيارٌ والعملَ بهِ اضطرارٌ ولئن يفعلَ ما لم يقلْ أجملُ من أن يقولَ ما لم يفعلْ . وقالَ بعضُ الحكماءِ : أحسنُ الكلامِ ما لا يُحتاجُ فيهِ إلى الكلامِ أي يكتفي بالفعلِ من القولِ . وقالَ محمودٌ الورّاقُ :

اَلْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ ٱلْفِعْلُ ... وَٱلْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ ٱلْعَقْلُ

لَا يَثْبُتُ ٱلْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ... يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلْأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِٱللِّينِ وَٱللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَالَطَهُ بِٱلْخُشُونَةِ وَٱلْعُنْفِ. فَإِنَّ لِينَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلتَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي ٱلتَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ ٱلْكَلَامُ لَغْوًا وَٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ ٱنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنْ نَقْصَ ٱلطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ ٱلرَّدَّ وَتُشِيرُ بِٱلْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ ٱلْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ ٱلْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ ٱلْغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ ٱلْفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى إِنْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ ٱلْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ أَحَدَ ٱلنَّكِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ ٱلْبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو ٱلْحَسَنِ

ابنُ الحارثِ الهاشميُّ :

تحرَّ مِنَ الطُّرقِ اوساطَهَا وَعَدِّ عَنِ الموضعِ المُشتَبِهْ
وَسَمعَكَ صُنْ عَنْ قبيحِ الكلامِ كصونِ اللسانِ عنِ النطقِ بِهْ
فَانَّكَ عِندَ استماعِ القبيحِ شريكٌ لقائلِهِ فانتبِهْ

وَمِمَّا يَجرِي مَجرَى فحشِ القولِ وهُجرِهِ في وجوبِ اجتنابِهِ ولزومِ تنكُّبِهِ ما كانَ شنيعَ البديهةِ مُستنكَرَ الظاهرِ وإن كانَ عَقِبَ التأمّلِ سَليمًا وبعدَ الكشفِ والرَّوِيَّةِ مُستقيمًا كالذي رواهُ الازديُّ عَنِ الصُّولِيِّ لبعضِ المتكلّفينَ مِنَ الشعراءِ :

انَّني شيخٌ كبيرٌ كافرٌ بِاللهِ سِيري
انتَ رَبِّي وَالهي رازقُ الطفلِ الصغيرِ

يُريدُ بقولِهِ (كافرٌ) اي لابسٌ لانَّ الكُفرَ التغطيةُ . ولذلكَ سُمِّيَ الكافرُ باللهِ كافرًا لانَّهُ قد غطّى نعمةَ اللهِ بمعصيتِهِ . وقولُهُ : (باللهِ سيري) يُقسِمُ عليها ان تسيرَ . وقولُهُ : (انتَ رَبِّي) يعني رَبِّي وَلَدَكِ مِنَ التربيةِ . وإلهي رازقُ الطفلِ الصغيرِ كما انَّهُ رازقُ الولدِ الكبيرِ . فانظرْ الى هذا التكلّفِ الشنيعِ والتعمّقِ البشيعِ ما اعتاضَ مِن حيثُ البديهةِ اذا سَلِمَ بعدَ الفكرِ والرَّوِيَّةِ الّا لوْمًا إنْ حسُنَ فيهِ الظنُّ او ذمًّا إنْ قويَ فيهِ الارتيابُ . وقلّما يكونُ ذلكَ الّا مِن خاسعٍ بَطِرٍ او مرتابٍ اشِرٍ

البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْخَطِيبَ ٱلْحَرِيَّ بِٱلْإِرْشَادِ مَنْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ: (إِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ تَصِحُّ ٱلرَّوِيَّةُ. وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: ٱسْتَرْشِدُوا ٱلْعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْحَسَنِ لِٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ: ٱحْذَرُوا مَشُورَةَ ٱلْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تَحْذَرُ عَدَاوَةَ ٱلْعَاقِلِ إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقُ إِلَيْكَ مَكْرُ ٱلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ ٱلْجَاهِلِ. وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ: مَا أَكْثَرَ صَوَابَكُمْ. قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ. وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ ٱلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ ٱلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّجَارِبِ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ: ٱلْأَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ ٱلْأَسْتَارِ ٱلْكَامِنَةِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَٱلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنِ ٱسْتَعَانَ بِذَوِي ٱلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ ٱلْمَأْمُولِ. وَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ:

وَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ   وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلٰكِنْ إِذَا مَا ٱسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ   فَحَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذٰلِكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ٱلدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ ٱلسَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ ٱلْعَزِيمَةِ. (وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ ٱلنُّصْحَ وَٱلْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ ٱلْفِكْرَةَ وَيُمْحِضَانِ ٱلرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا ٱلْحَازِمَ غَيْرَ ٱلْحَسُودِ وَٱللَّبِيبَ غَيْرَ ٱلْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ ٱلنِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى ٱلْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى ٱلْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ ٱلْمُشْفِقِ ٱلْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ ٱلْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ   وَٱسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَٱرْضَ مِنَ ٱلْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ   بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا   تَصِحُّ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ   فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَالِمَ ٱلْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ ٱلْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَٱسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِالرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ   فِي مُشْكِلِ ٱلْأَمْرِ فَٱخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلْخَامِسَةُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ ٱلْأَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَٱلْهَوَى صَادٌّ وَٱلرَّأْيَ إِذَا عَارَضَهُ ٱلْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ ٱلْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ أَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يَحْكُمُ ٱلْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي ٱلْهَوَى ذَا ٱلرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ
وَيُحْمَدُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي ٱلْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَإِذَا ٱسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا لِلْإِرْشَادِ وَٱلْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱسْتِشَارَتِهِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي ٱلْحَاجَةِ أَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّوَابِ أَقْرَبُ لِخُلُوصِ ٱلْفِكْرِ وَخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ ٱلْهَوَى وَٱرْتِفَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ: إِنَّ رَأْسَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللّٰهِ ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَمَا ٱسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَإِذَا أَرَادَ ٱللّٰهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ أَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ٱلْأَسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ ٱلْحَكِيمُ لِٱبْنِهِ شَاوِرْ مَنْ جَرَّبَ ٱلْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِٱلْغَلَاءِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ ٱلرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلأَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلانْسَانِ . وَٱلغَلْوَةُ ٱلأُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ . حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ . وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ . وَلَمَّا كَانَ ٱلإِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ . خَالِي ٱلسَّرِيرَةِ . عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلأَدَبِيَّةِ . غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلعَقْلِيَّةِ . فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ . وَلَا يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ . فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ . وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ . وَيَنْخَرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْدُودَاتِ . وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ . فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ ٱلغِذَاءِ . وَلَا يَحْفَلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلأَذَى . وَإِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ . وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ . فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلعَوَالِمِ . وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلعَظَائِمِ . بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا . وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا . وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى ٱلدُّخُولِ فِي أَبْوَابِهَا . وَٱلغَوْصِ فِي عُبَابِهَا . فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلأَوْصَابِ . وَمَا يَسْتَنْظِرُهُ مِنَ ٱلأَتْعَابِ . فَمَا ٱلثَّدْيُ إِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلقُوتِ . وَمَا ٱلْمَهْدُ إِلَّا إِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حَالُ ٱلفُتُوَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّانِي لِلْحَيَاةِ ٱلْإِنسَانِيَّةِ. وَٱلْمَسَاحَةُ ٱلْأُولَى لِٱنْتِشَارِ ٱلْقُوَى ٱلْعَقْلِيَّةِ أَوِ ٱلتَّلُّ ٱلْأَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلْأَجَلِ. وَمَسْلَكِ ٱلْعَمَلِ. فَيَصْعَدُ ٱلْإِنسَانُ عَلَيْهِ وَيَنظُرُ ٱلْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ. فَيَرَاهُ مَشْهَدًا بَدِيعَ ٱلْجَمَالِ. وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ ٱلْآمَالُ. وَتَرْقُصُ فِيهِ ٱلْمَلَذَّاتُ وَٱلْأَمَانِي. وَتَحُومُ حَوْلَهُ ٱلْبَشَائِرُ وَٱلتَّهَانِي. فَتَشْمَلُهُ شُمُولُ هٰذَا ٱلظُّهُورِ. وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حُمَيَّةُ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ. فَيَبِيتُ سَكْرَانَ بِٱلْأَفْرَاحِ. وَمَأْخُوذًا بِرَنِينِ تِلْكَ ٱلْأَقْدَاحِ. فَيَبْسِمُ مَدَى ٱلْأَوْقَاتِ. وَلَا يَعْلَمُ مَا ٱلْآفَاتُ. إِذْ يَظَلُّ مُلْتَفًّا بِكِسَاءِ ٱلْآمَالِ. وَمُحْتَفًّا بِأَوْهَامِ ٱلْأَعْمَالِ. وَلَا يَنظُرُ إِلَّا إِلَى ذَاتِهِ. وَلَا يَحْفِلُ إِلَّا بِصِفَاتِهِ. هَائِمًا فِي مَلَاهِي دُنْيَاهُ. وَمُتَهَافِتًا عَلَى حَدَاثَةِ قُوَاهُ. وَهٰكَذَا يَهْبِطُ فِي وَادِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمُلِمِّ. وَيَخْبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلْبَحْرِ ٱلْخِضَمِّ. وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبٍ وَٱنْكِبَابٍ. إِلَى أَنْ يَنْشُلَهُ ٱلصَّوَابُ. وَيُدْرِكَهُ ٱلشَّبَابُ

(حَالُ ٱلشُّبُوبِيَّةِ) أَمَّا ٱلشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّالِثُ لِلْأَجَلِ. وَمَحَلُّ ٱلْكَدِّ وَٱلْعَمَلِ. وَمَوْقِعُ ٱلْيَأْسِ وَٱلْأَمَلِ. حَيْثُمَا يُوجَدُ ٱلْإِنسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ ٱلْعُمْرِ. حَائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهْيِ وَٱلْأَمْرِ. فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا. مُنْطَقًا بِكَافَّةِ ٱلْأَشْيَاءِ. مُلْتَطِمًا بِأَمْوَاجِ ٱلْعَالَمِ وَأَهْوَائِهِ. مَصْرُوعًا وَمَأْخُوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوْضَائِهِ. وَهٰكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ ٱلْحَوَاسِّ. وَتَشِبُّ فِي دِمَاغِهِ نَارُ ٱلْوَسْوَاسِ. وَتَصْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلْأَهْجَاسِ. فَيَنْدَفِعُ إِلَى مُنَازَلَةِ ٱلْأَقْدَارِ وَٱلْأَيَّامِ. وَمُقَاتَلَةِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْأَوْهَامِ. فَتَارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلْآمَالُ إِلَى أَوْجِ ٱلْأَفْرَاحِ وَٱلْمَسَرَّاتِ.

وَطَوْرًا تَـكُبُّ بِهِ ٱلْخَيْبَـاتُ فِي حَضِيضِ ٱلْأَتْرَاحِ وَٱلْحَسَرَاتِ . يَرَى ٱلْعَالَمَ قَرِيبَ ٱلْمَنَالِ . فَيَنْدَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلْأَهْوَالِ . حَتَّى إِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلْبَعْضِ طَمِعَ بِٱلْـكُلِّ . وَإِذَا فَازَ بِٱلشَّبَحِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ . فَلَا يَـكُونُ إِلَّا مُضْغَةً فِي أَفْوَاهِ ٱلْمَطَامِعِ . وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلْقَوَامِعُ . وَذٰلِكَ إِنَّمَا يُوجَدُ مُهْبِطًا لِحَوَادِثِ ٱلْحِـدْثَانِ . وَمُسْقِطًا لِمَصَائِبِ ٱلزَّمَانِ . وَلَا تَزَالُ زَهْرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَيْنَ ذُبُولٍ وَٱفْتِرَارٍ . وَلَا يَبْرَحُ بَدْرُ هٰذَا ٱلْعُمْرِ ٱلْبَاهِي بَيْنَ خُسُوفٍ وَٱسْفِرَارٍ . إِلَى أَنْ تَنْثُرَ ٱلشَّيْخُوخَةُ تَاجَ تِلْكَ ٱلزَّهْرَةِ . وَيَصْفَعَ ٱلْهَرَمُ وَجْهَ هَاتِيكَ ٱلْقَمْرَةِ . حَيْثُمَا يَسْقُطُ ٱلشَّبَابُ مِنْ فَرْشِهِ . وَيَرْتَفِعُ ٱلْمَشِيبُ عَلَى عَرْشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيْخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلْإِنْسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمْرِهِ سَيْرَ ٱلْمُسَافِرِ فِي ٱلْقِفَارِ . إِلَى أَنْ يَبْلُغَ رَابِعَ ٱلْأَدْوَارِ . وَهُوَ دَوْرُ ٱلدُّثَارِ . هٰذَا إِذَا أَمْكَنَهُ ٱلْخَلَاصُ مِنْ لُصُوصِ ٱلْحَوَادِثِ . وَٱلْمَنَاصُ مِنْ أُسْدِ ٱلْـكَوَارِثِ . وَنَهْبَةِ ٱلْأَعْرَاضِ . وَقَنَاةِ ٱلْأَمْرَاضِ فَيَلْبَثُ هُنَاكَ مَنْهُوكًا مِنْ تَعَبِ ٱلْمَسِيرِ . وَمَضَضِ ٱلتَّأْثِيرِ . إِذْ يَعُودُ مُنْحَنِيًا تَحْتَ أَحْمَالِ ٱلْحَيَاةِ وَأَثْقَالِهَا . وَمَرْضُوضًا مِنْ صَدَمَاتِ ٱلدُّنْيَا وَأَهْوَالِهَا . فَتَصْمُتُ ضَوْضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ . وَيَخْرَسُ رَنِينُ أَنْفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ . فَيَكِفُّ بَصَرُهُ . وَيَجِفُّ فِكْرُهُ . وَيَقِلُّ ذَوْقُهُ . وَيَـكْثُرُ شَوْقُهُ . وَيَبْخَلُ حَتَّى بِٱلْفَلْسِ . وَيَزِيدُ حِرْصُهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ . وَيَجُودُ بِٱلْفَلْسِ . فَإِذَا ٱلْتَفَتَ إِلَى وَرَائِهِ وَرَأَى ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا . وَٱلطُّرُقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا . ظَهَرَتْ لَهُ ٱلْأَشْيَاءُ أَشْبَاحَ أَحْلَامٍ . وَمَلَاعِبَ أَوْهَامٍ . وَكُلُّهَا تَجْرِي نَظِيرَهُ إِلَى ٱلزَّوَالِ .

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ. فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ. ضَحِكَ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ. أَمَّا إِذَا الْتَفَتَ إِلَى الْأَمَامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ الْأَيَّامِ. حَنَّ إِلَى الْوُجُودِ. وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ. وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ. وَالْحَاضِرُ يَرْدَعُهُ. وَالْمُسْتَقْبِلُ يُطْمِعُهُ. حَتَّى تَخْتَطِفَ عَامَّةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ الْمَنِيَّةِ. وَتَسْلِبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَّةٍ. فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُنْيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبْرِ النِّسْيَانِ. حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ الْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا. وَتَسْتَرِدُّ الْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ الْخَطِيبَ إِذَا مَا أَرَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوُّنَ أَخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ أَحْوَالِهِمْ. قَالَ أَفْلَاطُونُ: لِكُلِّ أَمْرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالْتَمِسْ مِنَ الْأُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجْرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَازِ وَالْإِخْتِصَارِ. عَلَى أَنَّهُ لَا يَتِمُّ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ وَمَعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ. إِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ. وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدِّمَاتٍ مِنْهَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَتَى مَا رَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ أَحْوَالَهَا وَأَحْوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتْبَةٍ يَشْرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ. وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ أَعْلَى مَنْزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ أَوْضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ أَوْ جِهَاتٍ. لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَعْظَمَ مَثَلًا وَإِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِأَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْ مَنْزِلَتِهِ فَإِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعِمًّا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْمَضْلِيَّةِ إِذْ لَيْسَ فِي أَجْزَاءِ ٱلْعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أَشْيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ. فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا. وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ... وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ أَنْفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ أَحْوَالِ ٱلنَّاسِ وَأَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَاهَى إِلَيْهِ مِنْهَا وَأَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنْهَا. ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدَ فِي ٱلتَّنَكُّبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ ٱلْأَشْخَاصِ

ٱلنَّاس قُوَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا نَاطِقَةٌ وَٱلْأُخْرَى بَهِيمِيَّةٌ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا نِزَاعٌ غَالِبٌ. فَنِزَاعُ ٱلْقُوَّةِ ٱلْبَهِيمِيَّةِ نَحْوَ ٱللَّذَاتِ ٱلْعَاجِلَةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِثْلَ أَنْوَاعِ ٱلْغِذَاءِ وَنِزَاعُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنُّطْقِيَّةِ نَحْوَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلْعَوَاقِبِ.. فَعَلَى كُلِّ مَنْ يُرْشِدُ ٱلْجُمْهُورَ وَيَحُضُّهُمْ عَلَى نَيْلِ ٱلْفَضَائِلِ أَنْ لَا يَتَغَافَلَ عَنْ تَحْرِيضِهِمْ عَلَى مَا هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ وَأَنْ لَا يُهْمِلَهُمْ فَإِنَّهُ مَتَى مَا أَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ ٱلطَّرَفِ ٱلْآخَرِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبَهِيمِيُّ. وَإِذَا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّثُوا بِبَعْضٍ مِنْهُ حَتَّى إِذَا أَرَادَ رَدَّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ لَحِقَهُ مِنَ ٱلنَّصَبِ أَضْعَافَ مَا كَانَ يَلْحَقُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْمَلَهُمْ. وَنَقُولُ أَيْضًا إِنَّ ٱلْخَطِيبَ لَا يَنْجُو فِي جَمِيعِ مُتَصَرَّفَاتِهِ مِنْ أَنْ يَلْقَى ٱلْجُمْهُورَ مَائِلًا إِلَى أَمْرٍ مَحْمُودٍ أَوْ أَمْرٍ مَذْمُومٍ. وَلَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ فَائِدَةٌ وَمَوْضِعُ رِيَاضَةٍ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ أَنْ يُحَاوِلَ دَفْعَ ٱلسَّامِعِينَ إِلَى ذَلِكَ ٱلْأَمْرِ ٱلْمَحْمُودِ ٱلَّذِي يَلْقَاهُ إِنْ وَجَدَ ٱلسَّبِيلَ إِلَى ٱلدَّفْعِ إِلَيْهِ وَيُنَبِّهُهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبُ عَلَيْهِمِ ٱلتَّمَسُّكَ بِهَا مَتَى وَجَدَ ٱلْفُرْصَةَ لِذَلِكَ. وَإِذَا يَلْقَاهُ ٱلْأَمْرُ ٱلْمَذْمُومُ فَيَجْتَهِدُ فِي ٱلتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَٱلتَّجْنِيبِ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا فَلْيُنَبِّهْهُمْ عَلَى ٱلِاعْتِبَارِ بِمَنْ نَالَهُمْ مَضَارُّ مِثْلِهَا. فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ جُلِّهَا وَدِقِّهَا خَيْرِهَا وَشَرِّهَا مَوْضِعَ ٱلرِّيَاضَةِ لِنَفْسِهِ وَإِرْشَادِ ٱلْجُمْهُورِ. وَإِذَا تَيَقَّنَ ذَلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْدِمَ عَلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَحْوَالِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صَادِقَةٍ وَصَدْرٍ وَاسِعٍ وَثِقَةٍ أَنَّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ قَلَّ يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعًا يَجِلُّ. وَنَبْدَأُ بِتَعَهُّدِ ٱلْخَطِيبِ لِلرُّؤَسَاءِ إِنَّهُ

يجب عليه ان يكون ملازما لما هو في صدده مواظبا على ما فوّض اليه ولا يخشى الملال وخصوصا من الملوك. وان يكون مجتهدا في طلب وجوه حسان لكل ما يطلبه منهم اذ لا شيء من الامور في العالم الّا وله وجهان احدهما جميل والآخر قبيح فليطلب لكل امر من اموره وجها جميلا يصرفه اليه ويتكلف لذكره بحضرته فانّ الخطيب المفوّض اليه تدبير ذلك الرئيس كالسيل المنحدر من الربوة ان اراد المرء ان يواجهه اهلك نفسه واتى عليه السيل فاغرقه. وان سعى معه وعلى جانبيه وتلطف ليصرفه الى الناحية بان يطرح في بعض جوانبه مقدارا من السُدد ويطرق له من الجانب الآخر لا ينشب ان يصرفه الى حيث شاء. فينبغي له كذلك ان يستعمل مع الرئيس في صرف وجهه عما يريد صرفه عن امر يريد ان يجري معه فيما هو جار نحوه ولا يواجهه وان كان في غاية الانبساط معه ولا يقرّ بما يلقي منه الى الناس مما يستقبح فيبان بين الخير والاقرار. وينبغي ان يتلطف كل التلطف في مثل المنافع من جهة الرؤساء بان لا يلحّ في السؤال ولا يديمه ولا يظهر الطمع والشره من نفسه ويجتهد في ان يطلب من الرؤساء اسباب المنافع لا المنافع انفسها. وليجتهد في ان يظهر في كل ما يقول ويفعل انه انما يفعله زينة وجمالا للرئيس لا لنفسه وانه يريد وجه الصلاح في خلاف ما يأبيه ويذكر له في الوقت بعد الوقت على سبيل الحكايات عن غيره والحيل اللطيفة

بَعْضَ مَا يَعْرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا أَسْتَعْمَلَ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ ٱلْحَالُ بِمُرَادِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمَمًا يَنْفَرِدُونَ بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنَ ٱلنَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمْ ٱلِاسْتِخْدَامَ وَٱلِاسْتِعْبَادَ وَفِي أَنْفُسِهِمِ ٱلْإِصَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ هٰذَا بِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ ٱلنَّاسِ لَهُمْ وَإِطْرَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصْوِيبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهٰذِهِ قَوَانِينُ يَنْتَفِعُ بِٱسْتِعْمَالِهَا ٱلْخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ ٱلرُّؤَسَاءِ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا ٱلْمَرْءُ مَعَ ٱلْأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ ٱلْأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَٱلْأَصْدِقَاءُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلْأَصْفِيَاءُ ٱلْمُخْلِصُونَ فِي ٱلصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُّدَ أَسْبَابِهِمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيُجْرِي ٱلْحَالَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذٰلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدَ فِي ٱلْإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ ٱلْجُهْدِ فَإِنَّ ٱلصَّدِيقَ زَيْنُ ٱلْمَرْءِ وَعَضُدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ فَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَٱلصِّنْفُ ٱلْآخَرُ أَيِ ٱلْأَصْدِقَاءُ فِي ٱلظَّاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ بِتَشَبُّهٍ وَتَصَنُّعٍ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصًا مِنْ عُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي ٱسْتِمَالَتِهِمْ وَٱلصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ ٱلظَّاهِرِ

دُونَ اَخذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذَهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَاِنَّهُ مَهْمَا عَمِلَ ذٰلِكَ يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ اِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ الْاَصْفِيَاءِ لَهُ . اَمَّا ٱلْاَكْفَاءُ ٱلْاَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَالَدَهُمْ وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَيْسُوا بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمْ ٱلنُّصَحَاءُ ٱلَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيْهِ وَيَعْزِمَ عَلَى قَلْبِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلَ اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ ٱلتَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ اَغْرَاضِهِمْ عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ فَاِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ ٱلصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى اِنْفَاذِ ٱلْاَمْرِ . وَمِنْهُمْ ٱلصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصْلَاحِ مَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى ٱلْخَطِيبِ اَنْ يَمْدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ فَاِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ كُلِّ ٱلنَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ ٱلْخَطِيبُ اِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ ٱلنِّيَّةِ . وَمِنْهُمْ ٱلسُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى ٱلْخَطِيبِ اَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ ٱلسَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ وَسُكُونٍ بَالِغٍ لِيَيْأَسُوا مِنْ مُنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِالشَّتَاتَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ ٱلْاِكْتِرَاثِ . وَمِنْهُمْ اَهْلُ ٱلْكِبْرِ وَٱلْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضَعْفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ ٱلتَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ ٱلْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثَرُهُمْ فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَّوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَأَنَا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ : فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُوَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدَ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيَحْذَرَهُمْ مِنْهُ . وَمِنْهُمُ ٱلْبُلَدَاءُ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ . فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرَّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

إِنَّ ٱلْخُلُقَ هُوَ حَالٌ بِهِ يَفْعَلُ ٱلْإِنْسَانُ أَفْعَالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ٱخْتِيَارٍ. وَٱلْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزَةً وَطَبْعًا وَفِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلرِّيَاضَةِ وَٱلِٱجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِمْ ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إِلَيْهِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَذْمُومَةُ فَإِنَّهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلْبُخْلِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلتَّشَرُّرِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ اِلَّا اَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْاَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَاَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْاَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَاَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِاَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْاِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ اَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ اَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَاِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلْاِحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَاِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْاَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلْاِفْتِقَارُ اِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلْاِنْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ اِلَى ٱلْاِعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ اُمُورِهِ. اَمَّا ٱلْاَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ اِلَيْهَا وَهُمْ اَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِاجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ اِلَّا اَنَّهُ

(١) ويروى: ويتصنع لاجتنابها

إذا نُبه عليه أحس بقبحه فرجعا حمل نفسه على تركه. ومنهم من إذا تنبه إلى ما فيه من النقائص او نُبه عليها ورام العدول عنها تعذر عليه ذلك ولم يطاوعه طبعه ولو كان مؤثرا للعدول عنها مجتهدا في ذلك. وهذه الطائفة تحتاج ان ترشد الى طريق التدرب والتعلم بالعادات المحمودة حتى تصير اليها على التدريج. ومن الناس من إذا تنبه على الاخلاق الرديئة او نُبه عليها فلا يحن الى تجنبها ولا تسمح نفسه بمفارقتها بل يؤثر الاضرار عليها مع علمه برداءتها وقبحها وهذه الطائفة ليس الى تهذيبها طريق الا بالقهر والعقوبة ان لم يردعها التخويف والترهيب. فاما الاخلاق المحمودة فانها وان كانت في بعض الناس غريزية فليست في جميعهم فعلى الباقين ان يصيروا اليها بالتدرب والرياضة ويرتقوا اليها بالاعتياد والتألف وقد يوجد في بعض الناس من لا يقبل طبعه العادات الحسنة ولا الاخلاق الجميلة وذلك يكون لرداءة جوهره وخبث عنصره. وهذه الطائفة من جملة الاشرار الذين لا يرجى صلاحهم. وكثير من الناس من يقبل كثيرا من الاخلاق المحمودة ويأنف طبعه عن بعضها فلا يعد هذا شريرا بل تكون رتبته في الخير والتهذيب بحسب محاسنه

البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَمَّا ٱلأَخلَاقُ ٱلَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَانَّ مِنْهَا (ٱلعِفَّةَ) وَهِيَ ضَبطُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلشَّهوَاتِ وَقَسْرُها عَلَى ٱلأَكتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اَوَدَ ٱلجَسَدِ وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَطْ وَٱجتِنَابُ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّقصِيرِ فِي جَمِيعِ ٱللَّذَّاتِ وَقَصْدِ ٱلِاعْتِدَالِ. وَاَنْ يَكُونَ مَا يَقتَصِرُ عَلَيهِ مِنَ ٱلشَّهوَاتِ عَلَى ٱلوَجهِ ٱلمُستَحَبِّ ٱلمُتَّفَقِ عَلَى ٱلِارتِضَاءِ بِهِ وَفِي اَوقَاتِ ٱلحَاجَةِ ٱلَّتِي لَا غِنَاءَ عَنهَا وَعَلَى ٱلقَدرِ ٱلَّذِي لَا يَحتَاجُ اِلَى اَكثَرَ مِنهُ. وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ هِيَ غَايَةُ ٱلعِفَّةِ

(وَمِنهَا اَيضًا ٱلقَنَاعَةُ) وَهِيَ ٱلِاقتِصَارُ عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ ٱلعَيشِ وَٱلرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ ٱلمَعَاشِ وَتَركُ ٱلحِرصِ عَلَى ٱكتِسَابِ ٱلاَموَالِ وَطَلَبِ ٱلمَرَاتِبِ ٱلعَالِيَةِ مَعَ ٱلرَّغبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَإِيثَارِهِ وَٱلمَيلِ اِلَيهِ وَقَهرِ ٱلنَّفسِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱلتَّقَنُّعِ بِٱليَسِيرِ مِنهُ. وَهٰذَا ٱلخُلُقُ مُستَحسَنٌ مِنْ اَوَاسِطِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ فَاَمَّا ٱلمُلُوكُ وَٱلعُظَمَاءُ فَلَيسَ ذٰلِكَ مُستَحسَنًا مِنهُمْ وَلَا تُعَدُّ ٱلقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنهَا ٱلتَّصَوُّنُ) وَهُوَ ٱلتَّحَفُّظُ مِنَ ٱلتَّبَذُّلِ. فَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلتَّحَفُّظُ

مِنَ ٱلْهَزْلِ ٱلْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ أَهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطُ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْفُحْشِ وَذِكْرِ ٱلْخَنَا وَٱلْمَزْحِ وَٱلسَّخِيفِ وَخَاصَّةً فِي ٱلْمَحَافِلِ وَمَجَالِسِ ٱلْمُحْتَشِمِينَ إِذْ لَا أُبَّهَةَ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي ٱلْمَزْحِ وَيُفْحِشُ فِيهِ. وَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلِٱنْقِبَاضُ عَنْ أَدْنِيَاءِ ٱلنَّاسِ وَأَصَاغِرِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَٱلتَّحَرُّزُ مِنَ ٱلْعِيشَةِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْخَسِيسَةِ وَٱلتَّرَفُّعُ عَنْ طَلَبِ ٱلْحَاجَاتِ مِنْ لِئَامِ ٱلنَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ وَٱلتَّوَاضُعِ لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَٱلْإِقْلَالُ مِنَ ٱلْبُرُوزِ أَعْنِي ٱلطَّوَافَ مِنْ غَيْرِ ٱضْطِرَارٍ وَٱلتَّبَذُّلَ بِٱلْجُلُوسِ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ إِنَّ ٱلْإِكْثَارَ مِنْ ذٰلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ ٱلْعُيُوبِ فَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلنَّاسِ قَدْرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ ٱسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلِٱنْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ثَلْمِ جَاهٍ أَوْ فَسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى ٱلِٱنْتِقَامِ مِنْ مُغْضِبِيهِمْ. وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ ٱلصَّغِيرِ عَلَى ٱلْكَبِيرِ وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ فِي ٱلْحَالِ فَإِنَّهُ وَإِنْ أَمْسَكَ عَنْهُ فَرُبَّمَا يُعَدُّ ذٰلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا

(وَمِنْهَا ٱلْوَقَارُ) وَهُوَ ٱلْإِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْعَبَثِ وَكَثْرَةِ ٱلْإِشَارَةِ وَٱلْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَغْنَى عَنِ ٱلتَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلْإِصْغَاءُ عِنْدَ ٱلِٱسْتِفْهَامِ وَٱلتَّوَقُّفُ عِنْدَ ٱلْجَوَابِ وَٱلتَّحَفُّظُ عِنْدَ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلْمُبَادَرَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ. وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْوَقَارِ أَيْضًا ٱلْحَيَاءُ وَهُوَ غَضُّ ٱلطَّرْفِ وَٱلِٱنْقِبَاضُ مِنَ ٱلْكَلَامِ حِشْمَةً لِلْمُسْتَحْيِينَ مِنْهُ وَهٰذِهِ

ٱلعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ اَوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلْوُدُّ) وَهُوَ ٱلْمَحَبَّةُ ٱلْمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ اِتِّبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْاِنْسَانِ اِذَا كَانَ لِاَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلْوَقَارِ وَٱلْاُبَّهَةِ وَٱلْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَاَمَّا ٱلتَّوَدُّدُ اِلَى اَرَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَاَهْلِ ٱلْخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ ٱلْوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ اَوْثَقُ ٱلْوُدِّ وَاَثْبَتُهُ فَاَمَّا مَا كَانَ ٱبْتِدَاؤُهُ ٱجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ اَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا اَفْضَى اِلَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوُدِّ وَٱلْجَزَعِ وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ اِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خِلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ اِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَاِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَٱلرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِاَجْلِهَا. وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ اِلَى ٱلْجَوْرِ وَاِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلْقَاتِلِ عِنْدَ ٱلْقَوَدِ وَٱلْجَانِي عِنْدَ ٱلْقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلْوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ ٱلْخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ اَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا اَضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ اَبْلَغَ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

الجاه الّا انّ انتفاع الملوك بهذا الخلق انفع وحاجتهم اليه اشدّ لانّه متى عرف منهم قلة الوفاء لم يوثق بمواعيدهم ولم تتمّ اغراضهم ولم تسكن اليهم جندهم واعوانهم

(ومنها اداء الامانة) وهو التعفف عمّا يتصرف الانسان فيه من مال غيره وما يوثق به عليه من الاعراض والحرم مع القدرة عليه وردّ ما يستودع الى مودعه

(ومنها كتمان السرّ) وهذا الخلق مركّب من الوقار واداء الامانة. فانّ اظهار السرّ من فضول الكلام. وليس بوقور من تكلّم بالفضول والفضولي ناقص الشرف. فكما انّ من استودع مالا فاخرجه الى غير مودعه فقد حقر الامانة كذلك من استودع سرّا فاخرجه الى غير صاحبه فقد حقر الامانة ايضا. وكتمان السرّ محمود من جميع الناس وخاصة من يصحب السلطان واولياء الامور فانّ اخراجه اسرارهم قبيح في نفسه يؤدي الى ضرر عظيم وبلاء جسيم

(ومنها التواضع) وهو ترك الترؤس واظهار الخمول وكراهية التعظيم والزيادة في الاكرام وان يتجنب الانسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالمال والجاه وان يتحرّز من الاعجاب والكبر. ولا يحمد التواضع الّا من اكابر الناس ورؤسائهم واهل الفضل والعلم واما ما سوى هؤلاء فلا يكونون متواضعين بالتواضع لانّ الضعة هي محلّهم ومرتبتهم ولو كانوا غير متضعين

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَوِدَّائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْأَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ أَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغِضًا لِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْإِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ ٱعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ إِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلِٱغْتِيَالِ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمِ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخِصَّائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلسَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ٱسْتِحْقَاقٍ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ الَى ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّبْذِيرِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا وَمُضَيِّعًا. وَٱلسَّخَاءُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَامَّا فِي ٱلْمُلُوكِ وَٱلْاوْلِيَاءِ فَامْرٌ وَاجِبٌ لِانَّ ٱلْبُخْلَ يُؤَدِّي إِلَى ٱلضَّرَرِ ٱلْعَظِيمِ فِي ٱلْاحْكَامِ. وَٱلسَّخَاءُ وَٱلْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْجُنْدِ وَٱلْاعْوَانِ فَيَعْظُمُ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّجَاعَةُ) وَهِيَ ٱلْاقْدَامُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْمَهَالِكِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ذٰلِكَ وَثَبَاتُ ٱلْجَأْشِ اي ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلِٱسْتِهَانَةُ بِٱلْمَوْتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَاعْوَانِهِمْ ٱلْيَقُ وَاحْسَنُ بَلْ لَيْسَ يَسْتَحِقُّ لِلْمُلْكِ مَنْ عَدِمَ هٰذِهِ ٱلْخَلَّةَ. وَاكْثَرُ ٱلنَّاسِ اخْطَارًا وَاحْوَجُهُمْ إِلَى ٱقْتِحَامِ ٱلْغَمَرَاتِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْحُكَّامُ فَٱلشَّجَاعَةُ إِذًا مِنْ اخْلَاقِهِمِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلتَّشَبُّهِ بِٱلْغَيْرِ فِيمَا يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَٱلِٱجْتِهَادُ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةٍ اعْلَى مِنْ دَرَجَتِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ اوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُؤْدَدًا فَامَّا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلزِّينَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجَزَعُ نَافِعًا وَٱلْحُزْنُ وَٱلْقَلَقُ

مُجْدِيًا وَٱلِاجْتِهَادُ دَافِعَةَ ضَرَرِ تِلْكَ ٱلشَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ ٱلصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ ٱلْجَزَعَ إِذَ لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ٱسْتِصْغَارُ مَا دُونَ ٱلنِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي ٱلْأُمُورِ وَطَلَبُ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلسَّامِيَةِ وَٱسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ عِنْدَ ٱلْعَطِيَّةِ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَطَلَبِ ٱلْغَايَاتِ وَٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ ٱمْتِنَانٍ وَلَا ٱعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمِنْ عِظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ . فَٱلْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيَّةِ وَٱلْحَمِيَّةُ وَٱلْغَيْرَةُ مَعًا وَٱلْغَضَبُ عِنْدَ ٱلْإِحْسَاسِ بِٱلنَّقْصِ . وَتَلْحَقُ ٱلْإِنْسَانَ ٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرَمِ لِأَنَّ فِي ٱلتَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ ٱلْمُتَعَرِّضَ لِلْحَرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَٱلِاهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِ ٱلْهِمَّةِ ٱلْأَنَفَةُ مِنْهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلْعَدْلُ) وَهُوَ ٱلتَّقَسُّطُ ٱللَّازِمُ لِلِاسْتِوَاءِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَايِبَ فَإِنَّ مِنْهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلِٱنْهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِٱسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلْإِدْمَانُ عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلْقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ ٱلْحَيَاءَ وَيُذْهِبُ مَاءَ ٱلْوَجْهِ وَيَخْرِقُ حِجَابَ ٱلْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلْحِرْصُ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ قَبُحَ طَرِيقُ ٱكْتِسَابِهَا وَٱلْمُنَاوَشَةُ عَلَيْهَا وَٱلِٱسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْقُنْيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلْأَعْرَاضِ. وَهٰذَا ٱلْخُلْقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتَزِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ ٱطِّرَاحُ ٱلْحِشْمَةِ وَتَرْكُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلِٱسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسُّخْفِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلْفُحْشِ وَٱلتَّفَوُّهُ بِٱلْخَنَا وَذِكْرُ ٱلْأَعْرَاضِ وَٱلْمَزْحِ وَٱلْجُلُوسُ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلْمَعَايِشِ ٱلرَّدِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

للسفلاء وهذا الخلق قبيح بجميع الناس

(ومنها السفه) وهو ضد الحلم وهو سرعة الغضب والطيش من يسير الامور والمبادرة في البطش والايقاع بالمؤذي والسرف في العقوبة واظهار الجزع من ادنى ضرر والسب الفاحش. وهذا الخلق مستقبح من كل احد الا انه بالملوك والرؤساء اقبح منه بغيرهم

(ومنها الخرق) وهو كثرة الكلام والحركة من غير حاجة وشدة الضحك والمبادرة الى الامور من غير توقف وسرعة الجواب وهذا الخلق مستقبح من كل احد وهو باهل العلم وذوي النباهة اقبح. ومن قبيله قلة الاحتشام لمن يجب احتشامه والمجاهرة بالاجوبة الغليظة الفظة المستشنعة وهذا الخلق مكروه وخاصة بذوي الوقار

(ومنها الهوى) وهو افراط الحب والسرف فيه. وهذا الخلق مكروه من جميع الناس يحمل صاحبه على الفجور وارتكاب الفواحش وكثرة التبذل وقلة الحياء وهو يشين الانسان كثيرا

(ومنها القساوة) وهذا الخلق مركب من البغض والشجاعة وهو التهاون بما يلحق الغير من الالم والاذى. وهذا الخلق مكروه من كل احد الا من الجند واصحاب السلاح والمتولين الحروب فان ذلك غير مكروه منهم اذا كان في موضعه

(ومنها الغدر) وهو الرجوع عما يبذله الانسان من نفسه ويضمن الوفاء به. وهذا الخلق مستقبح ان كان لصاحبه فيه مضلعة

وَمَنفَعَةٌ. وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ أَقْبَحُ وَأَضَرُّ فَإِنَّ مَنْ عُرِفَ مِنْهُمْ بِالْغَدْرِ لَمْ يَرْكُنْ إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ إِنْسَانٌ فَإِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنْهَا الْخِيَانَةُ) وَهِيَ الْاِسْتِبْدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْحُرَمِ وَتَمَلُّكُ مَا يُسْتَوْدَعُ وَمُجَاحَدَةُ مُودِعِهِ. وَمِنَ الْخِيَانَةِ أَيْضًا طَيُّ الْأَخْبَارِ إِذَا نُدِبَ الْإِنْسَانُ لِتَأْدِيَتِهَا وَتَحْرِيفُ الرَّسَائِلِ إِذَا حَمَلَهَا وَصَرْفُهَا عَنْ وَجْهِهَا. وَهٰذَا الْخُلُقُ أَعْنِي الْخِيَانَةَ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَيَثْلِمُ الْجَاهَ وَيَقْطَعُ وُجُوهَ الْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا إِفْشَاءُ السِّرِّ) وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْخُرْقِ وَالْخِيَانَةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِوَقُورٍ مَنْ لَمْ يَضْبِطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا يُسْتَسَرُّ بِهِ وَالسِّرُّ أَحَدُ الْوَدَائِعِ وَإِفْشَاؤُهُ نَقِيصَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَالْمُفْشِي بِالسِّرِّ خَائِنٌ وَهٰذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بِمَنْ يَصْحَبُ الْمُلُوكَ وَأَوْلِيَاءَ الْأُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ. وَمِنْ قَبِيلِ إِفْشَاءِ السِّرِّ أَيْضًا الْغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ وَهِيَ أَنْ يُبَلِّغَ إِنْسَانٌ إِنْسَانًا عَنْ آخَرَ قَوْلًا مَكْرُوهًا وَهٰذَا الْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ أَيْضًا بِمَا يَسْمَعُهُ أَوْ يَبْلُغُهُ فَنَقْلُهُ إِلَى مَنْ يَكْرَهُهُ قَبِيحٌ لِأَنَّ فِي ذٰلِكَ إِيقَاعَ وَحْشَةٍ بَيْنَ الْمُبَلِّغِ وَالْمُبَلَّغِ عَنْهُ وَذٰلِكَ غَايَةُ الشَّرِّ

(وَمِنْهَا الْكِبْرُ) وَهُوَ اسْتِعْظَامُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ وَاسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْاِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ وَاسْتِصْغَارُهُمْ وَالتَّرَفُّعُ عَلَى مَا يَجِبُ التَّوَاضُعُ لَهُ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِأَنَّ

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ ٱلْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ اِذْ اِنَّ ٱلْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ ٱلنَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ ٱلْكَمَالِ . وَايضًا فَاِنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُبْغِضُهُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَمَنْ تَبْغُضُهُ ٱلنَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْعُبُوسُ) وَهُوَ ٱلتَّقَطُّبُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ وَقِلَّةُ ٱلتَّبَسُّمِ وَاظْهَارُ ٱلْكَرَاهِيَةِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْكِبْرِ وَغِلَظِ ٱلطَّبْعِ فَاِنَّ قِلَّةَ ٱلْبَشَاشَةِ هِيَ ٱسْتِهَانَةٌ بِٱلنَّاسِ وَٱلِاسْتِهَانَةَ بِٱلنَّاسِ تَكُونُ مِنَ ٱلْاِعْجَابِ وَٱلْكِبْرِ وَقِلَّةُ ٱلتَّبَسُّمِ ايضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ ٱلْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ ٱلطَّبْعِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلْأَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا ٱلْكَذِبُ) وَهُوَ ٱلْاِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ اكْثَرُ قُبْحًا لِاَنَّ ٱلْيَسِيرَ مِنَ ٱلنَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخُبْثُ) وَهُوَ اضْمَارُ ٱلشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاظْهَارُ ٱلْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْحِيَلِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ فِي ٱلْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا . (وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْخُبْثِ ٱلْحِقْدُ) وَهُوَ اضْمَارُ ٱلشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ ٱلْاِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ ٱلْفُرْصَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ ٱلْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ ٱلْمُسْتَعْطِي مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى اعْطَائِهِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَخَاصَّةً ٱلْمُلُوكَ وَٱلْعُظَمَاءَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْبُخْلَ يُبْغِضُ مِنْهُمْ اكْثَرُ مِمَّا يُبْغِضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

في حكمهم ويبغضهم الى رعيتهم

(ومنها الجبن) وهو توهم المخاوف وتمكينها في العقل بدون طائل وعدم الاقدام على الامور عند اللزوم والرعب من مواجهة ذوي الامر عند الاقتضاء . وهذا الخلق مكروه الّا انه بالجنود واصحاب الحروب مضرّ جدا

(ومنها الحسد) وهو التألم مما يراه الانسان لغيره من الخير ويجده فيه من الفضائل والاجتهاد في اعدام الغير ما هو له . وهذا الخلق مكروه وقبيح بكل احد

(ومنها الجزع عند الشدة) وهذا الخلق مركب من الخرق والجبن . وهو مستقبح جدا اذا لم يكن مجديا نفعا واما اظهاره للحيلة عند الوقوع في الشدة او لاستغاثة مغيث او اجتلاب معين للمساعدة فغير مكروه ولا يعد نقيصة

(ومنها صغر الهمة) وهو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية وقصور الآمال عن بلوغ الغايات واستكثار اليسير من الفضائل واستعظام القليل من العطايا والاعتداد بذلك والرضى باواسط الامور واصاغرها . وهذا الخلق قبيح بكل احد وهو بالملوك والعظماء اقبح بل ليس بمستحق للاعتبار من صغرت همته

(ومنها الجور) وهو الخروج عن العدل في جميع الامور كأخذ الاموال من غير وجهها الحلال والمطالبة بما لا يجب من الحقوق وفعل الاشياء في غير مواضعها ولا اوقاتها ولا على القدر

ٱلَّذي يَجِبُ لَهَا وَعَلى ٱلْوَجهِ ٱلَّذي يُستَحَبُّ فيهَا وَمن قَبيـل ذٰلكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبذيرُ ايضًا

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنهَا حُبُّ ٱلكَرَامَةِ) وَهُوَ ان يُسَرَّ ٱلانسَانُ بٱلتَعظيمِ وَٱلتَّبجيلِ وَٱلمُقَابَـلَةِ بِٱلمدحِ وَٱلثَّناءِ ٱلجميلِ . وَهٰذَا ٱلخُلقُ مَحمُودٌ في ٱلاَحدَاثِ وَٱلصِبيَانِ لِانَّ مَحَبَّةَ ٱلكَرَامَةِ تَحُثُّهُم عَلى ٱلرَغبَةِ في اكتِسابِ ٱلفَضَائِلِ . وَذٰلكَ انَّ ٱلحَدَثَ وَٱلصَّبيَّ اِذَا مُدِحَا عَلى فَضيلةٍ وُجِدَت فيهِمَا كَانَ ذٰلكَ دَاعِيًا لهُمَا الى ٱلازدِيَادِ في ٱلفَضَائِلِ . وَامَّا ٱلاَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاس فَانَّ ذٰلكَ يُعَدُّ مِنهُم نَقيصَةً . لِاَنَّ ٱلانسَانَ اِنَّمَا يُمدَحُ عَلَى ٱلفَضيلةِ اِذَا كَانَت مُستَغرَبَةً مِنهُ امَّا اِذَا كَانَ من اَهلِ ٱلفَضلِ فَلَا يَنبَغي انَ يُسَرَّ اوْ يَستَغرِبَ مَا يَظهَرُ مِنهُ مِنَ ٱلفَضَائِلِ . وَكَذٰلكَ ٱلاِكرَامُ وَٱلتَّبجيلُ اِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱستحقاقهِ فَانَّهُ يَجرِي مَجرَى ٱلمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلمَلَقِ غَيرُ مَحمُودٍ لِاَنَّهُ مِن جِنسِ ٱلخَديعَةِ

(وَمِنهَا حُبُّ ٱلزِينَةِ) وَهُوَ ٱلتَصَنُّعُ بِلُبسِ ٱلثِيَابِ ٱلفَـاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلخَيلِ وَكَثرَةِ ٱلخَدَمِ وَٱلحَشَمِ وَهٰذَا مُستَحسَنٌ مِنَ ٱلمُلُوكِ وَٱلعُظَمَاء وَٱلاَحـدَاثِ وَٱلظُّرَفَاء وَٱلنِّسَاء . فَامَّا ٱلرُّهبَانُ وَٱلزُّهَادُ

وَالشُّيُوخُ وَاهلُ العِلمِ وخاصَّةً الخُطَبَاء وَالوَاعِظُونَ ورُؤَسَاء الدِّينِ فَانَّ التَصَنُّعَ بِالزِّينَةِ مُستَقبَحٌ مِنهُم والمُستَحسَنُ بِهِم هُوَ لُبسُ الخشِنِ وكَرَاهِيَةُ التَنَعُّمِ ولُزُومُ بُيُوتِ الصَّلاةِ

(ومنها المجازاة على المدح) وَهُوَ مجَازَاةُ مَن يمدَحُ الانسانَ وَيَشكُرُهُ فِي المجالِسِ والمحافِلِ . وهذا الخُلقُ مُستَحسَنٌ مِنَ المُلُوكِ وَالرُؤَسَاء لِانَّهُ يَدعُو المادحَ الى الازديادِ في مَدحِهِ فَيَكتَسِبُ المَمدُوحُ ذِكرًا جميلا يبقى الى الدهرِ . وَمِن فضائِلِ المُلُوكِ وَالرُّؤَسَاء بَقَاء ذِكرِهِم الجميلِ . وَامَّا محبَّتُهُم سَمَاعَ المدحِ مِنَ المادِحِ مواجهةً فذلِكَ غَيرُ مُستَحَبٍّ مِنهُم لِانَّهُ مِن جِنسِ الملقِ وَحبُّ الملقِ مَكرُوهٌ لِكَونِهِ مِن قِبَلِ الخَدِيعَةِ كما تقدَّمَ . فَامَّا إِيثَارُهُم انتِشَارَ ذِكرِهِم وَمَدَائِحِهِم وَتَنَاوُلَ النَاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعدَهُم فَانَّهُ مَحمُودٌ . وَمُجَازَاةُ المادِحِ مُستَحسَنَةٌ مِنَ المُلُوكِ وَمَنعُهُم مُستَقبَحٌ وَعَارٌ عَلَيهِم لِانَّ ذلِكَ يدعُو الى ذَمِّهِم وَذَمُّهُم يبقى ايضا الى الدهرِ فَيَبقَى لَهُم ذِكرًا قبيحًا وَذلِكَ مَكرُوهٌ مِنَ المُلُوكِ وَالرُؤَسَاء . امَّا اصاغِرُ النَاسِ فَمَحَبَّتُهُم جزاءَ المادِحِ لَهُم غَيرُ مُستَحسَنٍ لِانَّ المادِحَ اذا مدحَ الدنيءَ مِنَ النَاسِ فَانَّمَا يَخدَعُهُ فَاذا اجازَهُ اعتقَدَ انَّهُ اخذَ مِنهُ تِلكَ الجائِزَةَ بِالحِيلَةِ . وَكَثِيرٌ مِنَ النَاسِ اذا مُدِحُوا بِمَا لَيسَ فِيهِم يُبَادِرُونَ الى مُجَازَاةِ المادحِ فَيَكُونُونَ قَد وَضَعُوا الشَّيءَ فِي غَيرِ مَوضِعِهِ فَلَو صَرَفُوا ذلِكَ الشَّيءَ الى الضُّعَفَاء وَاهلِ المَسكَنَةِ كانَ ذلِكَ اجمَلَ بِهِم وَاليَقَ

(وَمِنهَا الزُّهدُ) وَهُوَ قِلَّةُ الرَّغبَةِ فِي الاموالِ وَالادِّخَارِ وَغَيرِهَا

وَإِيثَارُ ٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلرَّمَقَ وَٱلِاسْتِخْفَافُ بِٱلدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَّاتِهَا وَقِلَّةُ ٱلِاكْتِرَاثِ بِٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَٱسْتِصْغَارُ ٱلْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ وَأَرْبَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَرُؤَسَاءِ ٱلدِّينِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَعَادِ وَٱلْبَقَاءِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ. فَأَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذْ إِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱحْتِشَادِ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَٱدِّخَارِهَا لِيُدَبِّرَ بِهَا مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوْزَتَهُ وَيَتَفَقَّدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهٰذَا مُضَادٌّ لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ ٱلِادِّخَارَ أَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْحَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّيَاسَةِ

فَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ أَمَّا ٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ فَضَائِلَ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا ٱلْمَذْمُومَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَقَلَّمَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يُحِسَّ بِهَا وَلَمْ يَفْطُنْ إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ ٱلْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوْلَى ٱلْأُمُورِ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتْبَعَ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْمَحْمُودَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱعْتِيَادِهَا وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لا كما يعتقد الجهّال والعامّة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم . وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله . وذلك لانّ كثرة المال انّما تتفاضل بها احوال الناس وامّا نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال . وذلك لانّ الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالاً عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخيّر العالم ولو كان فقيرًا بل انّما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرًا فقيرًا وامّا التفضيل فلا يكون الّا بكثرة الفضائل فقط . ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضًا فلعمري انه يكون احسن حالاً من الفاضل المعسر لانّ ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصّة اذا كان فاضلاً عادلاً عفيفًا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقّه ويتفقّد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

امّا الناقص الجاهل السيّء العادات فانّ الغنى ربّما زاده نقصًا وعيوبًا واضاف الى معايبه عيوبًا اخرى . ولا يعدّ بخيلاً من لا مال له وان كان البخل من طبعه لانّ فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لانّ الانسان انّما يعاب بما يظهر منه وامّا من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبًا عليه عارًا . وايضًا فانّ اكثر الفجور

وَٱلمَحظُورَاتِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلرَّدِيئَـةِ لَا تُنَالُ غَالِبًا إِلَّا بِٱلأَمْوَالِ فَٱلفَقِيرُ ٱلمُعسِرُ وَإِنْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَـكَادُ يَظْهَرُ ذٰلِكَ مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمَـكَّنَ مِن شَهوَاتِهِ فَتَظْهَرُ حِينَئِذٍ عُيُوبُهُ . وَبِنَاءً عَلَيْـهِ يَـكُونُ ٱلغِنَى مُـكسِبًا لِصَاحِبِهِ أَحيَانًا عُيُوبًا وَنَقَائِصَ وَٱلفَقرُ فَضَائِلَ وَمَحَاسِنَ . فَيُنتَجُ مِنْ ذٰلِكَ إِذًا أَنَّ ٱلنَّاسَ لَا تَتَفَاضَلُ حَقِيقَةً بِٱلأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ بِٱلآدَابِ وَٱلمَحَاسِنِ ٱلذَّاتِيَّةِ . فَٱلخَلِيقُ بِٱلإِنسَانِ أَنْ يَسُوسَ نَفْسَهُ بِٱلآدَابِ ٱلمُسْتَحسَنَةِ وَيَسلُكَ بِهَـا ٱلطَّرِيقَ ٱلمَحمُودَةَ فَإِنَّهُ بِذٰلِكَ يَـكُونُ مَحبُوبًا عِنْـدَ ٱلنَّاسِ مَقبُولًا لَدَيْهِمْ مُعَظَّمًا فِي نُفُوسِهِمْ مُفَضَّلًا عَنْ غَيْرِهِ مُوَقَّرًا عِنْـدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلقَولِ عَظِيمَ ٱلجَاهِ

فَهٰذِهِ حَالَةُ ٱلعَظَمَةِ ٱلحَقِيقِيَّةِ ٱلمُكتَسَبَةِ بِٱلأَموَالِ لِأَنَّ ٱلمَالَ قَدْ تَلحَقُهُ ٱلمَصَائِبُ فَإِذَا فَارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنزِلَتُهُ مِنْ نُفُوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلمُعَظَّمَ لَهُ كَانَ مَالُهُ لَا نَفْسُهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلمَـالُ لَمْ يَبقَ لَهُ شَيْءٌ يُعَظَّمُ مِنْ أَجلِهِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ ٱلعَالِمُ ٱلنَّفِيسُ ٱلفَاضِـلُ ٱلمُهَذَّبُ ٱلأَخلَاقِ لِأَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيْرُ مُفَارِقَةٍ لَهُ فَهُوَ مُعتَـبَرٌ دَائِمًا وَمُعَظَّمٌ مِنْ أَجلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (*)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

وَبِمَا أَنَّ ٱلرَّاغِبَ فِي سِيَاسَةِ نَفْسِهِ ٱلْمُؤْثِرَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِ إِذَا نُبِّهَ عَلَى خُلُقٍ مَذْمُومٍ وُجِدَ فِيهِ وَأَحَبَّ ٱجْتِنَابَهُ رُبَّمَا صَعُبَ عَلَيْهِ ٱلْإِنْتِقَالُ عَنْهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَرُبَّمَا لَمْ يَنَلِ ٱلتَّخَلُّصَ مِنْهُ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ أَوْ رُبَّمَا ٱسْتَحْسَنَ أَيْضًا خُلُقًا مَحْمُودًا لَا يَجِدُهُ لِنَفْسِهِ وَآثَرَ ٱلتَّخَلُّقَ بِهِ لَمْ تَسْمَحْ لَهُ عَادَتُهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مُرَادِهِ. لِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ نَرْسُمَ لِلرَّاغِبِينَ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ طُرُقًا يَتَدَبَّرُونَ بِهَا وَيَتَدَرَّجُونَ فِيهَا حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مُرَادِهِمْ مِنِ ٱعْتِيَادِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلِٱنْطِبَاعِ عَلَيْهَا وَتَجَنُّبِ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلتَّفَرُّغِ مِنْهَا وَلِهٰذَا نَذْكُرُ طَرِيقَ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّعَمُّلِ لِٱعْتِيَادِهَا لِكَيْ يُمْكِنَ لِلرَّاغِبِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهَا فَنَقُولُ:

إِنَّهُ لَأَمْرٌ مُقَرَّرٌ أَنَّ سَبَبَ ٱخْتِلَافِ ٱلْأَخْلَاقِ فِي ٱلنَّاسِ هُوَ ٱخْتِلَافُ قُوَى ٱلنَّفْسِ ٱلثَّلَاثِ فِيهِمْ وَهِيَ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلنَّاطِقَةُ وَأَنَّ إِصْلَاحَ ٱلْأَخْلَاقِ هُوَ تَذْلِيلُ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ مِنْهَا وَٱلْغَضَبِيَّةِ وَتَمْيِيزُ

(*) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكريا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيره. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور متوصلاً به حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱستِعمَالُ ٱلمَحمُودِ مِنْ افعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدرُّجِ لِٱستِعمَالِ ٱلعَادَاتِ ٱلجَمِيلَةِ وَٱلعُدُولُ عَنِ ٱلعَادَاتِ ٱلقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدرُّجُ فِي تَذلِيلِ هَاتَينِ ٱلقُوَّتَينِ

امَّا ٱلنَّفسُ ٱلشَّهوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ إِلَى قَمعِهَا ان يَتَذَكَّرَ ٱلانسَانُ فِي اوقَاتِ شَهوَاتِهِ وَعِندَ شِدَّةِ ٱلعَزمِ إِلَى لَذَّاتِهِ انَّهُ يُرِيدُ تَذلِيلَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ فَيَعدِلُ عَمَّا تَاقَت نَفسُهُ إِلَيهِ مِنَ ٱلشَّهوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ إِلَى مَا هُوَ مُستَحسَنٌ مِن جِنسِ تِلكَ ٱلشَّهوَةِ وَيُنفِقُ عَلَى ارتِضَائِهِ وَيَقتَصِرُ عَلَيهِ . فَإِن لَم تَنكَسِرْ شَهوَاتُهُ بِمِثلِهَا وَبَعدَهَا فَإِن سَكَنَت اقتَصَرَ وَإِلَّا عَاوَدَ الفِعلَ مِنَ ٱلوَجهِ ٱلمُستَحسَنِ. فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ ٱلنَّفسُ وَإِذَا ٱستَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلحَالِ الِفَت هٰذِهِ ٱلعَادَةَ وَتَأَنَّسَت بِهَا وَاستَوحَشَت مِمَّا سِوَاهَا . وَيَنبَغِي لِمَن ارَادَ قَمعَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ ان يُكثِرَ مِن مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ وَٱلوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَاهلِ ٱلعِلمِ فَإِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَن كَانَ مَعرُوفًا بِٱلعِفَّةِ وَيَستَرذِلُونَ مَن كَانَ فَاجِرًا مُنهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلمَجَالِسِ تَضطَرُّهُ إِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوِيهِم لِئَلَّا يَستَرذِلُوهُ وَيَغضَبُوا مِنهُ وَيَلحَقَ بِرُتبَةِ مَن يُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ وَٱلمَجَالِسِ . وَيَنبَغِي لَهُ ايضًا ان يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلاخلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَاخبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلمُنهَمِكِينَ وَمَن يُكثِرُ ٱلهَزلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلحَقُ بِرُتبَةِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ . وَاكثَرُ مَا

يجبُ لهُ انْ يتجنَّبَ السُّكرَ فإنّهُ مِمّا يُثيرُ نفسهُ الشَّهوانيَّةَ ويُقوّيها ويحملها على التهتُّكِ وارتكابِ الفواحشِ والمجاهرةِ بها . وينبغي لِمَن ارادَ قمعَ نفسهِ الشَّهوانيَّةِ انْ يُقلَّ مِن استماعِ الغناءِ وخاصَّةً مِن النساءِ المتصنِّعاتِ والشُّبَّانِ الظُّرفاءِ فإنَّ للسَّماعِ قوَّةً عظيمةً في إثارةِ الشَّهوةِ . . . امّا الطَّعامُ فينبغي انْ تعلمَ انْ غايتهُ هوَ الشّبعُ لدفعِ الم الجوعِ . وفاخِرُ الطَّعامِ ودنيئهُ جميعُهما مُشبعانِ فليسَ للمبالغةِ في تجويدِ الطَّعامِ الكثيرِ حظٌّ ولا فائدةٌ . والاولى هوَ التوسُّطُ في انواعِ المآكلِ وانْ يكونَ مِنَ الجنسِ الذي نشأَ عليهِ الانسانُ واعتادهُ والفهُ . . . وطريقُ التدرُّجِ الى الاقتصارِ في الطَّعامِ هوَ انْ يُبادِرَ ذو الشَّهوةِ الى ايِّ شيءٍ وجدهُ مِنَ المآكلِ فإنْ كانَ المُشتهى الذي تاقتْ نفسهُ اليهِ حلوًا فالا ايّ حلاوةٍ وجدها وإنْ كانَ غيرَ ذلكَ فالا ما يشتهيهِ مِنَ الطَّعامِ فإنَّهُ اذا تناولَ الانسانُ مِنْ ذلكَ تكرارًا وشبعَ منهُ سكنتْ شهوتهُ وكفّتْ نفسهُ بعدَ ذلكَ

وينبغي لِمَنْ احبَّ العفَّةَ انْ يكونَ ابدًا متيقِّظًا ذاكرًا لِما يلحقُ الفاجرَ والنهِمَ والشَّرِهَ والمتهتِّكَ مِنَ القباحةِ والعارِ في الدُّنيا جاعلًا ذلكَ ديدنهُ وشعارهُ ومداومًا على ذكرهِ . فإنَّ نفسهُ حينئذٍ تُبغضُ الشَّهواتِ الرديئةَ وتشتاقُ الى التعفُّفِ والقناعةِ وتطربُ عندَ العدولِ عنِ الفواحشِ معَ القدرةِ عليها وترتاحُ لِما يُنشرُ عنها وما يبلغُها عنِ النَّاسِ مِنَ الثناءِ الجميلِ على صاحبِها . فهذا هوَ طريقُ رياضةِ النَّفسِ

إلى قهر القوة الشهوانية وتذليلها وقمعها أعني طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية فيما يتعلق بالشهوات واللذات الدنيئة

فأما النفس الغضبية فإن طريق قمعها وتذليلها هو أن يصرف الإنسان همته إلى تفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدتهم ويلاحظ تسفههم على أخصامهم وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم فإنه يشاهد إذ ذاك منظرًا شنيعًا يأنف منه الخاص والعام وأن يتذكر في أوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ووثوب إخوانه وأوداته في جميع محاوراته ومعاملاته ما شاهده من أولئك . فإنه إذا تفكر فيما كان استخفه منهم فتنكسر بذلك سورة غضبه ويحجم عما هم بالإقدام عليه من السب والوثوب فإن لم يكف بالكلية قصر ولم ينته إلى غاية الفحش

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية أن يتذكر في أوقات غضبه على من يؤذيه أو يتجنى عليه أنه لو كان هو الجاني ما الذي كان يستحق أن يقابل به على جنايته فإنه بهذا الفعل يعتقد أن درك تلك الجناية وذلك الأذى يسير جدا فإذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني المؤذي بحسب اعتقاده خفيفة وحينئذ لا يسرف في الانتقام ولا يفحش في الغضب فمتى فعل ذلك دائمًا وجعله ديدنا وتفقد معايب السفهاء ومن يسرع إليه الغضب لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد إليه وإذا استمر على هذا

العمل مدة صار له خلقا وعادة

وينبغي لمن رغب في تذليل قوته الغضبية ان يتجنب حمل السلاح في مجالس الشراب وحضور مواضع الفتن ومقامات الحروب وفي مجالسة الاشرار ويتجنب معاشرتهم ومخالطة الشرط فان هذه المواضع تكسب قساوة القلب وتغلظه وتعدمه الرأفة فتشتد لذلك القوة الغضبية فاذا اراد تذليلها وتسكينها يجب ان يجعل مجالسته لاهل الوقار والشيوخ والرؤساء والافاضل ومن يقل غضبه ويكثر حلمه ووقاره

وينبغي له ان يتجنب المسكر من الشراب فانه يهيج القوة الغضبية اكثر مما يهيج القوة الشهوانية ...

وينبغي لمن اراد تذليل قوتيه الغضبية والشهوانية معا ان يستعمل في جميع ما يفعله الفكر ولا يقدم على شيء الا بعد ان يروي فيه ويجعل الفكرة واتباع الرأي ديدنه وعادته فان الرأي وجودة الفكر يقبحان له السفه وسرعة الغضب والانهماك في الشهوات واتباع اللذات . واذا استقبح ذلك احجم عنه وعدل الى ما يقتضيه الرأي والفكر وان لم يرتدع بالكلية لا بد ان يؤثر فيه ذلك فيقتصر عما يريد التسرع اليه

وملاك الامر في تهذيب الاخلاق وضبط القوة الشهوانية والقوة الغضبية هي القوة الناطقة فان بهذه القوة تكون جميع السياسات فاذا كانت قوية متمكنة من صاحبها امكنه ان

يَسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلْقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَخِفُ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلْمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلْآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلِٱرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلْأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلْفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا أَيْضًا مُجَالَسَةُ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابُ عُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمْ ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

أَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَإِنَّمَا يُمْكِنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ • فَإِنَّهَا إِذَا ٱرْتَاضَتْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ أَنِفَتْ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يَسْتَكْرِهُهُ مِنَ ٱلْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱسْتِحْسَانُ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعِ لِٱعْتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعِ ٱلْمَحْمُودِ ٱلْمَرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكِ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمُسْتَقْبَحِ وَتَذْلِيلِ قُوَّةِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَضَبْطِهَا وَقَهْرِهَا هُوَ إِصْلَاحُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيَتُهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلْإِمْعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَدْقِيقِ ٱلْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفْسِ وَيُصَوِّرِ ٱلْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَاتِهِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ أَيُّهُمَا أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَأَيُّهُمَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ فَإِنَّهُ إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةٌ

وَقْتِ ٱسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ اَمَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا اِلَى ٱلدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ فِي شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِسْرَاعِ اِلَى ٱلْاَنْتِقَامِ وَٱلسَّبِّ وَٱلْفُحْشِ فَمَتَى ٱنْجَلَتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلَ اَمْرَهُ فَرَاَى اَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ ٱلْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعَرَّةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ٱرْتَكَبَ حَالَ ٱلْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ اَجْلِهَا. كَذٰلِكَ ٱلْعَادَاتُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ هِيَ اَيْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْاِنْسَانِ نَفْعًا كَٱلْحَسَدِ مَثَلًا وَٱلْحِقْدِ وَٱلْخُبْثِ وَاَمْثَالِ هٰذِهِ اِذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَاِنِ ٱنْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذٰلِكَ فَهِيَ مَضَرَّةٌ لَهُ لِاَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّرِّ وَٱسْتَعَدُّوا لِاَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْاِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَٱحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ ٱلْخَيْرِ.. فَاِذَا حَاسَبَ ٱلْاِنْسَانُ نَفْسَهُ وَاَجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ اَنَّ ٱلضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ ٱلْاَخْلَاقِ اَكْثَرُ مِنَ ٱلنَّفْعِ بِهَا وَاَنَّ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَاِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٍّ وَاَنَّ هٰذَا ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِٱلضَّرَرِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْعَارِ ٱلدَّائِمِ ٱلْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ سِيَاسَةَ اَخْلَاقِهِ اَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ ٱلْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى اِلَّا

بأعلى درجة فإنه إذا جعل ذلك غرضه كان حريًا أن يتوسط في الفضائل ويبلغ فيها رتبة مرضية إن فاتته الدرجة العليا وأما إن قنع بالتوسط يأمن أن يقصر عن بلوغه فيبقى في أدنى المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع أبدًا في التمام.

فهذا الذي ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الأخلاق ومنهج التدرج في محمودها وكيفية تهذيبها فإذا أخذ الإنسان بتدريب نفسه به وأكثر من مراعاته وتعهده صارت له الفضائل ديدنًا والمحاسن خلقًا وطبعًا

هذا وقد بقي علينا أن نذكر أوصاف الإنسان التام الجامع لمحاسن الأخلاق... فنقول إن الإنسان التام هو الذي لم تفته فضيلة من الفضائل ولم تشنه رذيلة من الرذائل وهذا الحد قلما ينتهي إليه إنسان وإذا انتهى إليه افتراضا كان أشبه منه بالناس. وذلك لأن الإنسان مضروب بأنواع النقص مستول على طبعه ضروب الشر وبناء على ذلك فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط به كل فضيلة ومنقبة حسنة فالتمام وإن كان عزيزا بعيد التناول إلا أنه ممكن وهو غاية ما ينتهي إليه الإنسان فإذا صدقت عزيمته وأعطى الاجتهاد حقه كان ممكنا له أن ينتهي إلى الغاية المقصودة المنتهي، هو لها تلك التي تسمو نفسه إليها

أما تفصيل ذلك هو أن يكون متفقدا لجميع أخلاقه متيقظا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُتَلَذِّذًا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ أَقَلَّ أَوْصَافِهِ . .

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُنِّنَ فِي أَبْوَابِهِ وَٱجْتَهَدَ كُلَّ ٱلْاجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ . وَمَا أَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَادِرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاوّل

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرُّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ : أَمعاشِرَ ٱلكُتَّابِ أَحسِنُوا ٱلإِبتِدَاءاتِ فَإِنَّهُنَّ دَلائِلُ ٱلبَيانِ . وَذَلِكَ أَن يَجعَلَ ٱلخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلامِهِ وَأَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلمَقصُودِ ٱلَّذِي دَعَاهُ لِإِلقائِهِ فَيَنظُرَ إِلَى ٱلغَرَضِ ٱلمَطلُوبِ فَيَجعَلَ ٱلتَّحمِيدَ أَوِ ٱلدُّعاءَ أَوِ ٱلتَّضمِينَ مُشعِرًا بِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِن أَعلَى مَرَاتِبِ ٱلبَلاغَةِ وَإِنَّمَا خُصَّتِ ٱلإِبتِدَاءاتُ بِٱلإِختِيارِ لِأَنَّها أَوَّلُ مَا يَطرُقُ ٱلسَّمعَ مِنَ ٱلكَلامِ فَإِذَا كَانَ ٱلإِبتِداءُ مُونِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلمَعنَى ٱلوَارِدِ بَعدَهُ تَوَفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِإِستِماعِ مَا يَجِيءُ بَعدَهُ فَيَقرَعُ أَسماعَهُم شَيءٌ بَدِيعٌ لَيسَ لَهُم بِمِثلِهِ عَهدٌ فَيَرغَبُونَ أَن يَستَمِعُوا مَا بَعدَهُ لِفَهمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلكُتَّابُ وَٱلوَاعِظُونَ أَكثَرَ ٱلإِبتِداءاتِ بِٱلحَمدِ لِلّٰهِ لِأَنَّ ٱلنَّفسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّناءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

إِلَى ٱلْاسْتِمَاعِ . وَقَدْ قِيلَ : كُلُّ كَلَامٍ لَا يُبْتَدَأُ فِيهِ بِٱلْحَمْدَلَةِ فَهُوَ أَبْتَرُ . وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلْبَابِ أَنْ يُجْعَلَ مَطْلَعُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْخُطَبِ أَوِ ٱلرَّسَائِلِ أَوِ ٱلشِّعْرِ دَالًّا عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ إِنْ فَتْحًا فَفَتْحًا وَإِنْ كَانَ هَنَاءً فَهَنَاءً أَوْ كَانَ عَزَاءً فَعَزَاءً وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي • وَفَائِدَتُهُ أَنْ يُعْرَفَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ بِهِ وَيَسْتَفْتِحَ ٱلْمُتَكَلِّمُ أَبْوَابَ ٱلْأَسْمَاعِ وَيَسْتَحْضِرَ ٱلْأَذْهَانَ لِلْاسْتِمَاعِ . وَهٰذَا ٱلشُّعْبُ عَظِيمُ ٱلنَّفْعِ لِمَنْ حَقَّقَهُ وَلَا يُفْتَحُ بَابُهُ إِلَّا لِمَنْ طَرَقَهُ وَقَدْ يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ بِبَرَاعَةِ ٱلْاسْتِهْلَالِ وَسَيَأْتِي عَنْهُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْمَجْمُوعِ عِنْدَ ٱلْكَلَامِ عَنِ ٱلشِّعْرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْقَضِيَّةُ قَوْلٌ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لِقَائِلِهِ إِنَّهُ صَادِقٌ فِيهِ أَوْ كَاذِبٌ وَهِيَ مَجْمُوعُ ٱلْمَعْلُومَاتِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ وَٱلنِّسْبَةُ ٱلْحُكْمِيَّةُ وَٱلْحُكْمُ وَادْرَاكُ هٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ تَصْدِيقٌ . وَٱلْقَضِيَّةُ إِمَّا حَمْلِيَّةٌ وَإِمَّا شَرْطِيَّةٌ . قَالُوا : إِنْ كَانَ ٱلْمَحْكُومُ عَلَيْهِ وَٱلْمَحْكُومُ بِهِ قَضِيَّتَيْنِ عِنْدَ ٱلتَّحْلِيلِ أَيْ عِنْدَ حَذْفِ مَا يَدُلُّ عَلَى ٱلْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلنِّسْبَةِ

ٱلحكمية سُميت شرطية وإلا سُميت حملية . فإن قولنا مثلا : (زيد نائم) . قضية حملية . لأن طرفيها مفردان عند التحليل ويسمى الطرف الأول من القضية الحملية وهو المخبر عنه موضوعا والثاني محمولا . وقولنا : (إن كانت الشمس طالعة فالنهار موجود) قضية شرطية . لأنه إذا حذفنا (إن والفاء) الموجبتين للربط بقي : (الشمس طالعة) (والنهار موجود) وهما قضيتان . والقضية الحملية إما شخصية وهي التي يكون المحكوم عليه فيها جزئيا معينا كقولك : زيد كاتب . وإما كلية وهي التي يكون المحكوم عليه فيها كليا يشمل جميع أفراد الموضوع . وتكون كلاهما إما موجبة وإما سالبة . وإنما يحكم في القضية الشرطية على التعليق وهو وجود إحدى قضيتيها معلق على وجود الأخرى أو على نفيها وهي قسمان متصلة وهي التي يحكم فيها بلزوم قضية أخرى أو لا لزومها وهي التي توجب التلازم بين جزئيها نحو : لو كان في السماء والأرض آلهة إلا الله لفسدتا . ومنفصلة وهي التي يحكم فيها بامتناع اجتماع قضيتين فأكثر في الصدق وهي التي جزءاها متعاندان نحو : العالم إما قديم أو حادث . ويسمى الطرف الأول من القضية الشرطية مقدما والثاني تاليا . ولا بد من رابط بين الموضوع والمحمول

وللقضية أقسام غير هذه منها (القضية البسيطة) وهي التي حقيقتها أو معناها إما إيجاب فقط نحو : كل إنسان حيوان بالضرورة.

وَامَّا سَلبٌ فقط نحوَ : لا شيءَ مِنَ الإنسانِ بحجرٍ بالضرورةِ . ومنها (القضيَّةُ المركَّبةُ) وهي التي حقيقتُها ملتئمةٌ من إيجابٍ وسلبٍ معاً نحوَ : كلُّ إنسانٍ ضاحكٌ لا دائماً . ومنها (القضيَّةُ النظريَّةُ) وهي التي يُسأَلُ عنها ويُطلَبُ بالدليلِ إثباتُها في العلم . فهي من حيثُ انَّها يُسأَلُ عنها تُسمَّى مسألةً . ومن حيثُ يُطلَبُ حصولُها مطلباً . ومن حيثُ تُستخرَجُ من البراهينِ نتيجةً . ومن حيثُ يُبتنَى عليها الشيءُ اصولاً . ومن حيثُ انَّها منطبقةٌ على جزئيَّاتِ موضوعةٍ تتعرَّفُ احكامُها منها قاعدةً . ومن حيثُ يتألَّفُ منها الحجَّةُ مقدّمةً وقضيَّةً . ومن حيثُ تحتمِلُ الصدقَ والكذبَ خبراً

البحث الثالث

في القياس واقسامهِ وانواعهِ

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليَّات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَامَّا القياسُ فهو قولٌ مؤلَّفٌ من قضايا اذا وُضِعَت لزِمَ عنها بذاتِها لا بالعَرَضِ قولٌ آخرُ اضطراراً كقولنا : العالمُ متغيّرٌ وكلُّ متغيّرٍ حادثٌ فانَّهُ مؤلَّفٌ من قضيَّتينِ ولزِمَ عنهما انَّ العالمَ حادثٌ وهو القياسُ العقليُّ والمنطقيُّ . والقولُ الآخرُ يُسمَّى مطلوباً قبلَ اقامةِ الدليلِ عليهِ . ونتيجةً بعدَ تركيبِ القياسِ لهُ واقامةِ الدليلِ

عَلَيهِ وَيُسمَّى بِالرِّدْفِ ايضًا. وَمَوضُوعُ النَّتيجَةِ هُوَ الحَدُّ الاصغَرُ وَالمَحكُومُ فِيهَا هوَ الحَدُّ الاكبَرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي القَضِيَّتَينِ الاولَيَينِ يُسَمَّى حَدًّا اوسَطَ. وَيدعُونَ القَضِيَّةَ المُشتَمِلَةَ عَلَى الحَدِّ الاكبَرِ مُقَدَّمَةً كُبرَى وَالمُشتَمِلَةَ عَلَى الحَدِّ الاصغَرِ مُقَدَّمَةً صُغرَى. وَمَجمُوعُ المُقَدِّمَةِ الصُّغرَى بِالكُبرَى فِي القِيَاسِ يُعرَفُ بِالضَّربِ. وَنِسبَةُ الحَدِّ الاوسَطِ اِلَى الاصغَرِ وَالاكبَرِ هُوَ الشَّكلُ. وَاشكَالُ القِيَاسِ اربَعَةٌ لِاَنَّ الاوسَطَ اِن كَانَ مَحمُولًا فِي الصُّغرَى مَوضُوعًا فِي الكُبرَى فَهوَ (الشَّكلُ الاوَّلُ) كَقَولِكَ: كُلُّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ. وَشَرطُ اِنتَاجِ هٰذَا الشَّكلِ اِيجَابُ الصُّغرَى وَكُلِّيَّةُ الكُبرَى وَهُوَ يَختَصُّ بِاَنَّهُ يُنتِجُ المُوجِبَةَ الكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي الاشكَالِ لَا يُنتِجُ المُوجِبَةَ الكُلِّيَّةَ بَل اِمَّا مُوجِبَةً جُزئِيَّةً او سَالِبَةً. وَاِن كَانَ الحَدُّ الاوسَطُ مَحمُولًا فِي الصُّغرَى وَالكُبرَى فَهوَ (الشَّكلُ الثَّانِي) كَقَولِكَ: كُلُّ اِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيءَ مِنَ الجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيءَ مِنَ الجَمَادِ بِاِنسَانٍ. وَكَقَولِ البَعضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجهُولُ الصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيعُهُ لَيسَ بِمَجهُولِ الصِّفَةِ وَالنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيعُهُ. وَشَرطُ اِنتَاجِهِ اختِلَافُ مُقَدِّمَتَيهِ فِي الاِيجَابِ وَالسَّلبِ وَكُلِّيَّةُ كُبرَاهُ وَمِن خَوَاصِّهِ اَنَّهُ لَا يُنتِجُ اِلَّا سَالِبَةً. وَاِن كَانَ الاوسَطُ مَوضُوعًا فِي الصُّغرَى وَالكُبرَى فَهوَ (الشَّكلُ الثَّالِثُ) نَحوَ كُلُّ اِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ اِنسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعضُ الحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرطُ اِنتَاجِهِ اَن تَكُونَ صُغرَاهُ مُوجِبَةً

وَانْ تَكُونَ احدَى مُقدَّمتَيهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَوَاصِهِ انَّ نَتيجتَهُ لَا تَكُونُ اِلَّا جُزْئِيَّةً . وَاِنْ كانَ ٱلحَدُّ ٱلاَوسَطُ عكسَ ٱلاَوَّلِ بِانْ يَكُونَ مَوضُوعًا فِي ٱلصُّغرَى مَحمُولًا فِي ٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلرَّابِعُ) كقَولِكَ : كُلُّ اِنسانٍ حيَوانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ اِنسانٌ فَبَعضُ ٱلحيَوانِ نَاطِقٌ

وَٱلقِيَاسُ يَنقَسِمُ الَى كَامِلٍ وَغَيرِ كَامِلٍ فَٱلقِيَاسُ ٱلكَامِلُ هُوَ ٱلقِيَاسُ ٱلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلزَمُ عَنهُ بَيِّنًا عِندَ وَضعِهِ فَلَا يَحتَاجُ انْ نُبَيِّنَ انَّ ذلكَ لَازِمٌ عَنهُ . وَٱلغَيرُ ٱلكَامِلِ هُوَ ٱلَّذِي يَلزَمُ عَنهُ شَيءٌ وَلٰكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي اَوَّلِ ٱلاَمرِ انَّ ذلكَ يَلزَمُ عَنهُ . بَلْ اِذَا أُرِيدَ انْ نُبَيِّنَ ذلكَ بُيِّنَ بِشَيءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيرُ خَارِجٍ مِن جُملَةِ مَا قِيلَ بَلْ امَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ او عَكسُهُ تَغيِيرُ شَيءٍ مِنهُ وَٱفتِرَاضُهُ . وَٱلقِيَاسُ اِمَّا انْ يَكُونَ مَا يَلزَمُهُ لَيسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلفِعلِ بِوَجهٍ بَلْ بِٱلقُوَّةِ وَيُسمَّى قِيَاسًا ٱقتِرَانِيًا كقَولِكَ : كُلُّ جِسمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِٱقتِرَانِ ٱلحُدُودِ فِيهِ . وَامَّا انْ يَكُونَ مَا يَلزَمُهُ هُوَ او نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلفِعلِ وَيُسمَّى قِيَاسًا ٱستِثنَائِيًّا كقَولِكَ : انْ كَانَتِ ٱلنَّفسُ لَهَا فِعلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا



البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِأَقْسَامِ ٱلْقِيَاسِ مُلْحَقَاتٌ اخَرُ يُقْسَمُ إِلَيْهَا . (أَوَّلُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُرَكَّبُ وَهُوَ قِيَاسٌ رُكِّبَ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ يُنْتِجُ مُقَدِّمَتَانِ مِنْهَا نَتِيجَةً وَهِيَ مَعَ ٱلْمُقَدِّمَةِ ٱلْأُخْرَى نَتِيجَةً أُخْرَى وَلَا تَزَالُ تَتَابَعُ بَعْضُهَا مُقَدِّمَاتٍ لِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَحْصُلَ ٱلْمَطْلُوبُ . فَإِنْ صُرِّحَ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْأَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَوْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ لِوَصْلِ تِلْكَ ٱلنَّتَائِجِ بِٱلْمُقَدِّمَاتِ كَقَوْلِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ إِنْسَانٌ وَكُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ فَكُلُّ كَاتِبٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذُو حِسٍّ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِنَتَائِجِ تِلْكَ ٱلْأَقْيِسَةِ سُمِّيَ مَفْصُولَ ٱلنَّتَائِجِ وَمَطْوِيَّهَا كَقَوْلِكَ : كُلُّ كَاتِبٍ إِنْسَانٌ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ حَيَوَانٌ . وَكُلُّ حَيَوَانٍ ذُو حِسٍّ . وَكُلُّ ذِي حِسٍّ نَامٍ . وَكُلُّ نَامٍ جِسْمٌ فَكُلُّ كَاتِبٍ جِسْمٌ . (وَٱلثَّانِي) قِيَاسُ ٱلْخُلْفِ . وَهُوَ قِيَاسٌ ٱسْتِثْنَائِيٌّ يُقْصَدُ فِيهِ إِثْبَاتُ ٱلْمَطْلُوبِ بِإِبْطَالِ نَقِيضِهِ كَمَا إِذَا قِيلَ كُلُّ نَبَاتٍ نَامٍ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلْجَمَادِ بِنَامٍ فَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ . فَيُقَالُ لَوْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمَطْلُوبُ حَقًّا أَيْ لَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّبَاتِ بِجَمَادٍ لَصَدَقَ نَقِيضُهُ أَيْ بَعْضُ ٱلنَّبَاتِ جَمَادٌ . لٰكِنْ لَوْ كَانَ هٰذَا

ٱلنَّقِيضُ حَقًّا لَمَا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا . وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ خَلْفًا لِأَنَّ ٱلْمُتَمَسِّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ أَيْ مِنْ وَرَائِهِ . (وَٱلثَّالِثُ) قِيَاسُ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ ٱلْحُكْمِ ٱلْكُلِّيِّ . وَيُحَدُّ أَيْضًا ٱلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي أَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ أَيْضًا : هُوَ تَصَفُّحُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِإِثْبَاتِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ ثُمَّ ٱلِاسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلِاسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ جِسْمٍ إِمَّا حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ أَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتِجُ أَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِأَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ ٱلْقِيَاسِ وَلِهٰذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ كَقَوْلِنَا : كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُّهُ ٱلْأَسْفَلُ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ وَٱلْفَرَسَ وَٱلْحِمَارَ وَٱلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ . فَإِنَّهُ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ بِجَوَازِ ٱلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي ٱلتِّمْسَاحِ . (وَٱلرَّابِعُ) قِيَاسُ ٱلتَّمْثِيلِ وَهُوَ إِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَٱلْمَدِينَةِ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ أَجْزَاءٍ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ وَإِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ

أَمَّا أَنْوَاعُ ٱلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (أَحَدُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ العِلْمِ . (وَٱلثَّانِي) ٱلجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا ٱلخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ ٱلجُمْهُورِ نَحْوُ : ٱلعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ . (وَٱلثَّالِثُ) ٱلخَطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ ٱلسَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ : ٱلصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ . وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ . (وَٱلرَّابِعُ) ٱلشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ : ٱلخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ ٱلنَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ ٱلنَّفْسَ . (وَٱلخَامِسُ) ٱلمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِٱلصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ ٱلأَسَدِ : هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ . وَٱلعُمْدَةُ فِي ٱلخَطَابَةِ عَلَى ٱلبُرْهَانِ ٱلخَطَابِيِّ أَيْ ذِي ٱلمُقَدَّمَاتِ ٱلمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ ٱلأَقَاوِيلَ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلإِثْبَاتُ وَٱلإِبْطَالُ كَمَا أَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا ٱلأَسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

أستقراء والصنف الثاني القياس وما يظن به أنه قياس كذلك الأقاويل المثبتة في الصناعة والمنطقة صنفان احدهما شبيه بالأستقراء وهو المثال والآخر شبيه بالقياس وهو الضمير. والضمير الذي يظن به انه ضمير وليس بضمير يشبه الذي يظن به هنالك انه قياس وليس بقياس . وكذلك المثال الذي يظن به انه مثال وليس بمثال يشبه الاستقراء الذي يظن به انه استقراء وليس باستقراء . فالضمير هو القياس الخطبي والمثال هو الاستقراء الخطبي. والخطباء اذا تؤمل امرهم ظهر انهم يفعلون جميع التصديقات التي تكون بالقول بهذين الصنفين اعني اما بالمثال واما بالضمير . وذلك انهم يومون بفعلهم هذا ان يتشبهوا بالاستقراء والقياس . والذي يفعلون من ذلك انما يفعلونه بما هو مثال في الحقيقة او بما يظن به انه كذلك وتبين في كتاب القياس ان كل تصديق فانه يكون بالقياس وان الاستقراء والمثال انما يفيدان التصديق بما فيهما من قوة القياس. فاما ما هو القياس وما الفصل بينه وبين البرهان فقد قيل في كتاب الجدل وقد تبين هنالك ايضا الفرق بين القياس والاستقراء . والاستقراء والمثال يشتركان في ان كليهما يثبتان ان هذا الشيء موجود كذا او غير موجود كذا من اجل وجود ذلك الشيء او لا وجوده في شبيهه . والضمير والقياس يشتركان في ان كليهما قول يوضع فيه شيء فيلزم عنه شيء آخر . واذا كان الامر هكذا فهو بين ان في كل واحد من

هٰذَيْنِ ٱلْجِنْسَيْنِ مِنَ ٱلْقَوْلِ نَوْعًا خُطَبِيًّا وَنَوْعًا جَدَلِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا وَنَوْعًا سُوفِسْطَائِيًّا. فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ ٱلْاِسْتِقْرَاءُ وَٱلْقِيَاسُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ يُوجَدُ فِي ٱلْخَطَابَةِ ٱلْمِثَالُ وَٱلضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يُخْتَلَفُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ بِجِهَةِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ ٱلَّتِي فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ وَصِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ. وَٱلْقِيَاسُ فِي ٱلْجَدَلِ أَوْثَقُ مِنَ ٱلْاِسْتِقْرَاءِ وَٱلْمِثَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَقْنَعُ مِنَ ٱلضَّمِيرِ لِأَنَّ ٱلضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ٱلْعِنَادُ أَكْثَرَ مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَى ٱلْمِثَالِ وَسَبَبُ هٰذَا سَنُخْبِرُ بِهِ فِيمَا بَعْدُ وَكَذٰلِكَ كَيْفَ نَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ. فَأَمَّا ٱلْآنَ فَيَنْبَغِي أَنْ نَحُدَّ هٰذَيْنِ ٱلطَّرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْإِقْنَاعِ ٱلَّتِي ٱلضَّمِيرَ وَٱلْمِثَالَ فَنَقُولُ:

إِنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلْمُقْنِعَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُقْنِعًا لِوَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِجَمَاعَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِأَكْثَرِ ٱلنَّاسِ. وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي أَمْرٍ جُزْئِيٍّ. وَكِلَا هٰذَيْنِ مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ. وَٱلَّذِي يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلْجُزْئِيَّاتِ ضَرْبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ: إِنَّ كَذَا إِنَّمَا هُوَ كَذَا لِمَوْضِعِ كَذَا. مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: إِنَّ شَرَابَ ٱلسَّكَنْجَبِينِ يَنْفَعُ فُلَانًا لِأَنَّهُ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلضَّمِيرَ. (وَٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَقُولَ: إِنَّ كَذَا إِنَّمَا كَانَ كَذَا لِأَنَّهُ مِثْلُ كَذَا. مِثْلُ أَنْ يَقُولَ. إِنَّ فُلَانًا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ لسَّكَنْجَبِينِ لِأَنَّ فُلَانًا ٱنْتَفَعَ بِهِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمِثَالَ. وَٱلْمُقْنِعَاتُ ٱلَّتِي هِيَ مُقْنِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمِلُهَا

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ أَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ أَوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ ٱلْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتَّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدِّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ أَنْ يُقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ ٱلصِّنَاعِيِّ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ وَيَرَوْنَ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصَرَّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدِّمَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدِّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدِّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلضَّمَائِرَ لَمَّا

كانت تصنع في الاكثر في الأمور الممكنة وذلك بيّن في الامور المشاورية فانه ليس يشير احد على احد بأمر ضروري الوجود ولا ممتنع الوجود وكانت المقدمة الكبرى في امثال هذه المواد كاذبة بالجزء لم يصرحوا بها في المقاييس التي يستعملونها في هذه الصناعة لئلا يفطن لكذبها . وايضاً فلما كانت المقاييس الجيدة الصنعة في هذه الصناعة انما هي احد صنفين إما المقاييس التي تؤلف من المقدمات البينة اقناعها بنفسه واما من مقدمات تتبين مقدماتها بمقدمات اخر تختلط بها والا لم يتبين حمدها . فقد يلحق ضرورة في هذا الصنف الثاني ان يعسر تأليف المقدمات وترتيبها الترتيب الصناعي لمكان كثرة المقدمات وطول الزمان الذي يصرح فيه بجميعها وترتب ترتيبا صناعيا وذلك الشيء لا يساعد عليه الحكام بل يحملون المتكلم بين ايديهم ان يكون كلامه بسيطاً غير متكلف فيه صنعة على الجمهور في ذلك فانه متى كان الكلام ليس على هذه الصفة كان غير مقنع . وذلك في الامرين اللذين يكون فيما الاقناع اعني في ان الشيء موجود او غير موجود وفي انه اذا وجد محمود او غير محمود . وكذلك اذا استعمل التصديق بطريق اخذ الاشباه واستقصي وجعل على طريق الاستقراء عرض العسر الذي وصفناه من الطول والكثرة . واذا كان هذا هكذا فاذن القياس الخطبي وهو الضمير والمثال انما يكونان في الاشياء التي يكون فيها القياس والاستقراء باطلاق وتلك

ٱلْأَشْيَاء مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاسْتِقْرَاء . فَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاء بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ ٱسْتِقْرَاء وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا . وَإِذَا أُخِذَتْ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلِاسْتِقْرَاء مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا . وَتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ أَخْذُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاعْتِبَارِ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَإِنَّ ٱلْإِقْنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ ذَلِكَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هَذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْء ٱلَّذِي يَلْزَمُ إِذَا أُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ . وَعَلَى هَذَا فَلَا يُصَرِّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلْأَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلِاعْتِبَارِ إِلَّا بِشَبِيهٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا أَيْ مَحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ وَبِهَذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا إِذْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلِاسْتِقْرَاء ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذَلِكَ فِي ٱلْأَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذَلِكَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ . وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّهَا كَأَنَّهَا أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَةُ ٱلْوُجُودِ . وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدِّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدِّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ . وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدِّمَاتٍ مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ . وَأَعْنِي بِٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَأَنْ يُسَاءَ إِلَى ٱلْمُسِيءِ . وَأَعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ . وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُمْكِنَةِ أَعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ . وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَهِيَ ٱلَّتِي نِسْبَتُهَا إِلَى ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ نِسْبَةُ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ أَعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِذْ كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ لَا تُوجَدُ لِكُلِّهِ . وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي إِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ أَعْنِي أَنَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَأْخُوذَةُ حَدًّا أَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخَصُّ مِنْهُمَا . أَمَّا ٱلَّذِي هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلْأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمَتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشْبِهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدِّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدِ ٱنْطَوَى فِيهَا كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدِّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لٰكِنْ تُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

والدَّلائــل الَّتي تكونُ في الشكل الثالث والثاني تُخصُّ بإسم العلامة وما كان منها في الشكل الاوَّل يُخصُّ بإسم الدليل . والذي في الشكل الثاني هو اخصُّ بإسم العــلامة من الثالث كما انهُ ما كان من ذلك في الممكنة الاكثرية يُخصُّ بإسم الاشبه وان كان في الممكنة على التساوي خُصَّ بإسم الضمــير المشتبه . فقد تبيَّن من هذا القول ما هي المحدودات والدلائــل والعلامات وما الفرق بينهما . لكنَّ الذي تبيَّن من الاقاويــل القياسيَّة على الحقيقة إنما هو في كتاب القياس فإنهُ هنالك تبيَّن ما هو القياس وكم اجناس الاقاويل القياسية وتبيَّن في جنس جنس منها ما هو قياسٌ وما ليس بقياس . واما (المثال) فقد بيَّنا فيما تقدَّم انهُ استقراء ما لكنْ يباين الاستقراء بانهُ ليس يُصار فيــه لا من الجزئي الى بيان الامر الكلي كما يُصار في بعض انواع الاستقراء ولا من الكلي الى الجزئي كما قــد يُصار في بعض انواع الاستقراء . وذلك اذا بيَّنا بالكلي الذي اثبتناه بالاستقراء جزئيا آخر غير الجزئيات التي اثبتها الكلي باستقرائها ويوافقهُ في انهُ يصير من جزئي الى جزئي لاجتماعهما في امر كلي . وذلك اذا جمعنا في الاستقراء الامرين جميعا اعني ان نصير فيه من الجزئي الى الكلي ثم من الكلي الى جزئي آخر فانَّا في هذا الفعل قد صرنا من جزئي الى جزئي بتوسط الكلي كالحال في المثال فانَّ المثال انما يصير فيه من جزئي الى جزئي

لِأَشْتِرَاكِهِمَا فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ إِذَا كَانَ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَنْقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى ٱلْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ٱلْكُلِّيِّ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإِلَّا لَمْ تَصِحَّ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ أَعْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌّ وَكَانَ وُجُودُ ذَٰلِكَ ٱلْحُكْمِ مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي ٱلْإِسْتِقْرَاءِ أَعْنِي إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلنَّقْلَةِ إِلَى ٱلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْحَرَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذَٰلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِٱلْمَلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذَٰلِكَ مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ لِأَقْوَامٍ يُعَدِّدُهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ. فَإِنَّ قَائِلَ هٰذَا ٱلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ ٱلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي هُوَ: إِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي جُمْلَةِ عَدُوِّ ٱلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ. إِلَّا إِنَّ هٰذَا ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي ٱرْتَسَمَ فِي ٱلنَّفْسِ بِٱلْقُوَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ ٱلنَّقْلَةَ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ إِلَيْهِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ ٱسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنَ ٱلْأَقَلِّ كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا ٱلْقَدْرِ ٱلْمُعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي فُصُولِ ٱلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تُعْمَلُ فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ ٱلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هاهُنا. وسبب غموضه أنّ الضمائر تكون في جميع المقولات العشر كما تكون القياسات الجدلية لكنّ من الضمائر ما يكون في الموادّ التي في الصنائع مثل الضمائر التي تُستعمل في الأمور الكلّيّة والجزئيّة في صناعة الطبّ وغيرها من الصنائع. وهذه فينبغي أن تُستعمل في هذه الصنائع على نحو استعمال البراهين في تلك الصناعة لا على ما يستعملها الخطيب في المادّة التي تخصّ الخطابة مثل أن يأتي بها جزءا من خطبة. وسائر الأشياء التي تكون بها الأقاويل الخطبيّة أتمّ فعلا وأنفذ مما يذكر بعد. ومن الضمائر ما يكون في الأمور التي تخصّ هذه الصناعة بحسب ما تبيّن من نفعها وهي الأمور الإراديّة وهذه هي التي ينبغي أن تُستعمل على جهة ما يستعمل الخطباء الأقاويل الخطبيّة. ومن هذه الأشياء ينبغي أن تُعدّد في هذه الصناعة الأشياء التي هي فصول الضمائر لا من تلك الموادّ التي تحتوي عليها صناعة صناعة



الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاول

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ إِثْبَاتِ ٱلْمَطْلُوبِ وَنَفْيِهِ او نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ ٱلْخَصْمِ. وَٱلْآدَابُ ٱلطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا ٱلْمُدَّعِي عَلَى ٱلْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ ٱلْخَبْطُ فِي ٱلْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ ٱلصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ ٱلْمُنَاظَرَةُ أَيْضًا فِي اصْطِلَاحِ أَهْلِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ أَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ إِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اي تَوَجُّهُ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مَطْلَبُ أَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ ٱلْآخَرِ إِذَا تَوَجَّهَا فِي ٱلنِّسْبَةِ وَإِنْ كَانَ ذَاكَ ٱلتَّوَجُّهُ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ ٱلْإِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ إِظْهَارَ ٱلْحَقِّ وَٱلصَّوَابِ. وَٱلْمَسَائِلُ ٱلْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ ٱلْأَفْكَارِ

وَٱلْأَنْظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلْأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ ٱلْآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلْأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلْأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ . فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعْرَفُ مَرَاتِبُ ٱلْبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلْمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلْبَحْثِ

أَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يُبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامٍ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنًى لِعِلْمِ ٱلْخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلْمَنْطِقِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ . وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلْمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلْبَحْثِ . وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلْإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلْأَحْكَامِ ٱلْعِلْمِيَّةِ وَٱلْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلْإِلْزَامِ عَلَى ٱلْمُخَالِفِينَ . وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ ٱلْجِدَالِ هُوَ عِلْمُ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ ٱلْمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ . وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَأَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُتَنَاظِرَيْنِ فِي ٱلْأَسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلْاحْتِجَاجِ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلْأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاًّ وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اوْ مُعَارَضَتِهِ وَايْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِٱسْتِدْلَالُ . وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِٱلْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِٱسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اوْ غَيْرِهِ . وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِٱلْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْإِجْمَاعِ وَٱلِٱسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ ايِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْأَمْرِ كَثِيرَةٌ وَإِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اشْبَهَ بِٱلْقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . إِلَّا انَّ صُوَرَ ٱلْأَدِلَّةِ وَٱلْأَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِٱسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ إِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْإِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ كَٱلنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْأَمْصَارِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ اِرَادَتُكَ فِيهَا اَنْ تَظْهَرَ الْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ الْبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ الْإِرَادَةِ عَلَامَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تُفَرِّقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ الْبَحْثُ فِي الْخَلَاءِ اَحَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي الْمَلَإِ وَاسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اَعْلَمْ اَنَّ السُّؤَالَ عَنِ الْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ الْقَلْبِ اِلَى الطَّبِيبِ وَالْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِإِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَاَعْلَمْ اَنَّ الْجَاهِلِينَ الْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَالْعُلَمَاءَ الْأَطِبَّاءُ . وَالْعَالِمَ النَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ الْمُعَالَجَةَ وَالْعَالِمَ الْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ الْمُعَالَجَةِ وَالصَّلَاحِ وَاِذَا كَانَتِ الْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ الطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ : هٰذَا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِاَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ الْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ الْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ الْمُعَالَجَةَ وَالْبَاقِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ . وَاَمَّا الْمَرَضُ الَّذِي يَقْبَلُ الْعِلَاجَ

فَهُوَ أَنَّ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا عَالِمًا عَاقِلًا فَإِنَّهُمَا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ الْحَسَدِ وَالْغَضَبِ وَحُبِّ الْجَاهِ وَالْمَالِ وَالشَّهْوَةِ وَيَكُونَ طَالِبَ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وَامْتِحَانٍ وَبَحْثٍ. وَهٰذَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ فَيَجُوزُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ . أَمَّا الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ أَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ وَاعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَالْحَسَدُ لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ لِأَنَّهُ مِنَ الْعِلَلِ الْمُزْمِنَةِ فَكُلَّمَا تُجِيبُهُ بِأَحْسَنِ الْجَوَابِ وَأَفْصَحِهِ وَأَوْضَحِهِ لَا يَزِيدُ لَهُ ذٰلِكَ إِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَالطَّرِيقُ أَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ :

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا ... إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ

فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرُكَهُ مَعَ مَرَضِهِ قَالَ : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى وَالْحَسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ النَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ. وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ الْحَمَاقَةِ وَهُوَ أَيْضًا كَالْحَسُودِ لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (١) إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ الْأَحْمَقِ وَذَاكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ لِطَلَبِ الْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ الْعَقْلِيِّ وَالشَّرْعِيِّ فَيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى الْعَالِمِ الْكَبِيرِ

---

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره المجود لا في الانجيل ولا في التقاليد . ولا نعلم عمّن رواه الغزالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ . وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونَ سُؤَالُهُ لِلْاِسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلْاِشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا . وَفِي ٱلْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضَيِّعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا ... أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلِمْ لِمْ
إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ ... سِوَى حَرْفَيْنِ لِمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ . وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضَيِّعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ : إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ . وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ . وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ . وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صحيفة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَأَغْمَضُهُ مَنْصِبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعْجَلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْأَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعَهُ بِمِثْلِهِ . وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَٱخْتَارَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِتْمَامِهِ حَتَّى إِذَا ٱطْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ . فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ أَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَدَتْ عَجَاجَتَهُ فَلَا شَيْءَ أَعْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْأَلَدِّ ٱلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلحَطَبِ ٱلجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ إِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ أَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلمَادَّةِ أَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلعَرَضِ إِذِ ٱلغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلاِحْتِرَازُ عَنِ ٱلخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلاِعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلعَوَامَّ أَنَّهُ عَالِمٌ لِيَظْهَرَ لَهُمْ عَجْزُهُ عَنِ ٱلفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلاِقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلاِعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا. قَالَ شَارِحُ إِشْرَاقِ ٱلحِكْمَةِ: مَوَادُّ ٱلمُغَالَطَةِ ٱلمُشَبَّهَاتُ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلأَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلمُغَالَطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: إِنَّ أَسْبَابَ ٱلغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ إِلَى

اَمرٍ وَاحِدٍ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَاَشْبَاهِهِ ثُمَّ اِنَّهَا تَنقَسِمُ اِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلاَلفَاظِ وَالَى مَا يَتعلَّقُ بِٱلمَعَانِي . (وَٱلاَوَّلُ) يَنقَسِمُ اِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلاَلفَاظِ لَا مِنْ حَيثُ تَرَكُّبِهَا وَالَى مَا يَتعلَّقُ بِهَا مِنْ حَيْثُ تَرَكُّبِهَا . (وَٱلاَوَّلُ) لَا يَخْلُو اِمَّا اَنْ يَتعلَّقَ بِٱلاَلفَاظِ اَنفُسِهَا وَهُوَ اَنْ تَكُونَ مُختَلِفَةَ ٱلدَّلَالَةِ فَيَقَعَ ٱلاِشتِبَاهُ بَيْنَ مَا هُوَ ٱلمُرَادُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ . وَيَدْخُلُ فِيهِ ٱلاِشْتِرَاكُ وَٱلتَّشَابُهُ وَٱلمَجَازُ وَٱلاِستِعَارَةُ وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا وَيُسَمَّى جَمِيعًا بِٱلاِشْتِرَاكِ ٱللَّفظِيِّ . وَامَّا اَنْ يَتعلَّقَ بِاَحوَالِ ٱلاَلفَاظِ وَهِيَ اِمَّا اَحْوَالٌ ذَاتِيَّةٌ دَاخِلَةٌ فِي صِيَغِ ٱلاَلفَاظِ قَبْلَ تَحَصُّلِهَا كَٱلاِشْتِبَاهِ فِي ٱللَّفظِ ٱلمُخْتَارِ بِسَبَبِ ٱلتَّصْرِيفِ اِذَا كَانَ بِمَعْنَى ٱلفَاعِلِ اَوِ ٱلمَفْعُولِ . وَاِمَّا اَحوَالٌ عَارِضَةٌ لَهَا بَعْدَ تَحَصُّلِهَا كَٱلاِشْتِبَاهِ بِسَبَبِ ٱلاِعْجَامِ وَٱلاِعْرَابِ . (وَٱلمُتَعَلِّقَةُ بِٱلتَّرْكِيبِ) تَنقَسِمُ اِلَى مَا يَتعلَّقُ ٱلاِشتِبَاهُ فِيهِ بِنَفْسِ ٱلتَّرْكِيبِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ مَا يَتَصَوَّرُهُ ٱلعَاقِلُ فَهُوَ كَمَا يَتَصَوَّرُهُ . فَاِنَّ لَفْظَ (هُوَ) يَعُودُ تَارَةً اِلَى ٱلمَعْقُولِ وَتَارَةً اُخْرَى اِلَى ٱلعَاقِلِ وَالَى مَا يَتعلَّقُ بِوُجُودِهِ وَعَدَمِهِ اَيْ بِوُجُودِ ٱلتَّرْكِيبِ وَعَدَمِهِ . وَهٰذَا ٱلاٰخِرُ يَنقَسِمُ اِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلتَّرْكِيبُ فِيهِ مَوْجُودًا فَيُظَنُّ مَعْدُومًا وَيُسَمَّى تَفْصِيلَ ٱلمُرَكَّبِ . وَالَى عَكْسِهِ وَيُسَمَّى تَرْكِيبَ ٱلمُفَصَّلِ وَاَمَّا (ٱلمُتَعَلِّقَةُ بِٱلمَعَانِي) فَلَا بُدَّ اَنْ تَتعلَّقَ بِٱلتَّأْلِيفِ بَيْنَ ٱلمَعَانِي اِذِ ٱلاَفرَادُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهَا غَلَطٌ لَوْ لَمْ يَقَعْ فِي تَأْلِيفِهَا بِنَحْوٍ مَا وَلَا يَخْلُو مِنْ اَنْ تَتَعلَّقَ بِتَأْلِيفٍ يَقَعُ بَيْنَ ٱلقَضَايَا اَوْ بِتَأْلِيفٍ يَقَعُ فِي قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ . وَٱلوَاقِعَةُ بَيْنَ ٱلقَضَايَا اِمَّا قِيَاسِيٌّ

اَوْ غَيْرُ قِيَاسِيٍّ . وَٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِٱلتَّأْلِيفِ ٱلْقِيَاسِيِّ إِمَّا اَنْ تَقَعَ فِي ٱلْقِيَاسِ نَفْسِهِ لَا بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ اَوْ تَقَعَ فِيهِ بِقِيَاسِهِ اِلَى نَتِيجَتِهِ . وَٱلْوَاقِعَةُ فِي نَفْسِ ٱلْقِيَاسِ إِمَّا اَنْ تَتَعَلَّقَ بِمَادَّتِهِ اَوْ بِصُورَتِهِ . اَمَّا (ٱلْمَادِّيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مَثَلًا بِحَيْثُ اِذَا رُتِّبَتِ ٱلْمَعَانِي فِيهَا عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ صَادِقًا لَمْ تَكُنْ قِيَاسًا وَاِذَا رُتِّبَتْ عَلَى وَجْهٍ يَكُونُ قِيَاسًا لَمْ يَكُنْ صَادِقًا كَقَوْلِنَا : كُلُّ اِنْسَانٍ نَاطِقٌ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ وَلَا شَيْءَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ بِحَيَوَانٍ اِذْ مَعَ اِثْبَاتِ قَيْدِ (مِنْ حَيْثُ هُوَ نَاطِقٌ) فِيهِمَا تَكْذِبُ ٱلصُّغْرَى وَمَعَ حَذْفِهِ عَنْهُمَا تَكْذِبُ ٱلْكُبْرَى . وَاِنْ حُذِفَ مِنَ ٱلصُّغْرَى وَاُثْبِتَ فِي ٱلْكُبْرَى تَنْقَلِبُ صُورَةُ ٱلْقِيَاسِ لِعَدَمِ ٱشْتِرَاكِ ٱلْاَوْسَطِ . وَاَمَّا (ٱلصُّورِيَّةُ) فَكَمَا تَكُونُ مِنْهُ اِلَى ضَرْبٍ غَيْرِ مُنْتِجٍ تَكُونُ اَيْضًا عَلَى ضَرْبٍ مُنْتِجٍ . وَهٰذَا يُسَمَّى سُوءَ ٱلتَّأْلِيفِ بِٱعْتِبَارِ ٱلْبُرْهَانِ وَسُوءَ ٱلتَّرْكِيبِ بِٱعْتِبَارِ غَيْرِهِ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي ٱلْقِيَاسِ بِٱلْقِيَاسِ اِلَى ٱلنَّتِيجَةِ) فَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا لَا يَكُونُ ٱلنَّتِيجَةُ مُغَايِرَةً لِأَحَدِ اَجْزَاءِ ٱلْقِيَاسِ فَلَا يَحْصُلُ بِٱلْقِيَاسِ عِلْمٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فِي ٱلْمُقَدَّمَاتِ وَتُسَمَّى مُصَادَرَةً عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ . وَاِلَى مَا تَكُونُ مُغَايِرَةً لَكِنَّهَا لَا تَكُونُ مَا هِيَ ٱلْمَطْلُوبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْقِيَاسِ وَيُسَمَّى وَضْعَ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً كَقَوْلِنَا : ٱلْاِنْسَانُ وَحْدَهُ ضَحَّاكٌ وَكُلُّ ضَحَّاكٍ حَيَوَانٌ . وَاَمَّا (ٱلْوَاقِعَةُ فِي قَضَايَا لَيْسَتْ بِقِيَاسٍ) فَتُسَمَّى جَمْعَ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ كَمَا يُقَالُ : زَيْدٌ وَحْدَهُ كَاتِبٌ . فَاِنَّهُ قَضِيَّتَانِ لِاِفَادَتِهِ اَنَّهُ لَيْسَ غَيْرُهُ كَاتِبًا . وَاَمَّا (ٱلْمُتَعَلِّقَةُ

بِالْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ) فَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْئَيِ الْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذَلِكَ يَكُونُ بِوُقُوعِ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ وَيُسَمَّى إِيهَامَ الْعَكْسِ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْجِنْسِ بِحُكْمِ نَوْعٍ مِنْهُ مُنْدَرِجٍ تَحْتَهُ نَحْوَ: هٰذَا لَوْنٌ وَاللَّوْنُ سَوَادٌ فَهٰذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ الْحُكْمُ عَلَى الْمُطْلَقِ بِحُكْمِ الْمُقَيَّدِ بِحَالٍ أَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هٰذِهِ رَقَبَةٌ وَالرَّقَبَةُ مُؤْمِنَةٌ. وَإِمَّا أَنْ تَقَعَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنْهَا. وَتَنْقَسِمُ إِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بَدَلَ الْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا يُشْبِهُهُ كَعَوَارِضِهِ أَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى أَخْذَ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ كَمَنْ رَأَى الْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ التَّوَهُّمُ وَالتَّكْلِيفُ فَظَنَّ أَنَّ كُلَّ مُتَوَهِّمٍ مُكَلَّفٌ. وَإِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ الْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلٰكِنْ لَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيْسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيْدٌ الْكَاتِبُ إِنْسَانٌ. أَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ الشُّرُوطِ أَوِ الْقُيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ غَيْرَ الْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَقَدْ حَصَلَ مِنَ الْجَمِيعِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَوْعًا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفْظِيَّةٌ يَتَعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالْبَسَائِطِ هِيَ الِاشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ اللَّفْظِ وَفِي أَحْوَالِهِ الذَّاتِيَّةِ وَفِي أَحْوَالِهِ الْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِالتَّرْكِيبِ وَهِيَ الَّتِي فِي نَفْسِ التَّرْكِيبِ وَتَفْصِيلِ الْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ الْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. أَرْبَعَةٌ مِنْهَا بِاعْتِبَارِ الْقَضَايَا الْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ التَّأْلِيفِ وَالْمُصَادَرَةُ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيْسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ الْمَسَائِلِ فِي مَسْأَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَثَلَاثَةٌ بِاعْتِبَارِ الْقَضِيَّةِ الْوَاحِدَةِ وَهِيَ إِيهَامُ الْعَكْسِ وَأَخْذُ مَا بِالْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِالذَّاتِ وَسُوءُ اعْتِبَارِ الْحَمْلِ. فَهٰذِهِ هِيَ الْأَجْزَاءُ

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ . وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ أَوْ يُخْجِلُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ أَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي أَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ أَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ : مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْأَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرْكِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ . قَالَ : مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنَازِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّآلِئِ بِلَا نِظَامٍ . وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ : قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ . وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ. وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مُخْرَجٍ. حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا   أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَصْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ ٱبْنِ شَبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ : أَتَاكُمْ وَٱللّٰهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ. فَقَالَ : أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا. قَالَ : نَعَمْ فَوَٱللّٰهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ. فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ. (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ : صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا. فَحَمِدَ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ : رَفَعَهَا ٱللّٰهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يُصَرِّفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً ثُمَّ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ. فَبَيْنَا تَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفَّةً إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلْعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلْعَصَا، (ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ فَقَالَ) : فَكَانَ هٰذَا أَوْجَدَهُ ٱللّٰهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَأَنْشَأَهُ أَمْرَدَ وَشَابًّا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ إِلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ إِلَى هٰذِهِ ٱلْعَصَا فَتَبَارَكَ ٱللّٰهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلْعِبَادِ. قَالَ شَبِيبُ بْنُ شَبَّةَ : فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى يَدَيْهِ أَحْسَنَ مِنْهُ. وَلَمَّا أَقَامَ أَبُو جَعْفَرٍ صَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شَبَّةَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ أَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَيْتُ كَٱلْيَوْمِ أَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا أَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا أَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا أَبَلَّ رِيقًا وَلَا أَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا أَحْسَنَ طَرِيقًا إِلَّا أَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يَرُضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْأَحَبِّ وَٱيْمُ ٱللّٰهِ إِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ أَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ : مَا أُعْجِبُ بِكِتَابِ أَحَدٍ كَإِعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقٰسِمِ بْنِ عِيسَى فَإِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمُرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدِرَةُ إِلَى ٱلْإِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ إِلَى ٱلْإِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلْمَغْزَى فِي أَلْفَاظِهِ. وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا ٱلْفَصْلَ وَصْلًا فَإِنَّهُ أَشَدُّ وَأَعْجَبُ وَأَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ. وَلْيَكُنِ ٱلتَّنَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ. وَكَانَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ إِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ : أَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا إِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. وَكَانَ

ٱلحارِثُ بْنُ أَبِي شَمِرٍ ٱلغَسَّانِيُّ يَقُولُ لِكاتِبِهِ ٱلْمُرَقِّشِ: إِذَا نَزَعَ بِكَ ٱلْكَلَامُ إِلَى ٱبْتِدَاءِ مَعْنًى غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَصِلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا تَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ فَإِنَّكَ إِنْ مَذَقْتَ أَلْفَاظَكَ بِغَيْرِ مَا يَحْسُنُ أَنْ تَمْذُقَ بِهِ نَفَرَتِ ٱلْقُلُوبُ عَنْ وَعْيِهَا وَمَلَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱسْتَثْقَلَتْهُ ٱلرُّوَاةُ. وَكَانَ بَزَرْجَمْهَرُ يَقُولُ: إِذَا مَدَحْتَ رَجُلًا وَهَجَوْتَ آخَرَ فَٱجْعَلْ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فَصْلًا حَتَّى تَعْرِفَ ٱلْمَدْحَ مِنَ ٱلْهِجَاءِ كَمَا تَفْعَلُ فِي كُتُبِكَ إِذَا ٱسْتَأْنَفْتَ ٱلْقَوْلَ وَأَكْمَلْتَ مَا سَلَفَ مِنَ ٱللَّفْظِ. وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ لِكَاتِبِهِ ٱلْحَرَّانِيِّ: مَا مَنْزِلَةُ ٱلْكَاتِبِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. قَالَ: أَنْ يَكُونَ مَطْبُوعًا مُحْتَنِكًا بِٱلتَّجْرِبَةِ سَالِمًا بِحَلَالِ ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ وَحَرَامِهِمَا بِٱلدُّهُورِ فِي تَدَاوُلِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَبِٱلْمُلُوكِ فِي سِيَرِهَا وَأَيَّامِهَا مَعَ بَرَاعَةِ ٱللَّفْظِ وَحُسْنِ ٱلنَّسَقِ وَتَأْلِيفِ ٱلْأَوْصَالِ بِمُشَاكَلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَبِشَرْحِ ٱلْمَعْنَى حَتَّى تَنْصَبَّ صُوَرُهَا. وَبِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْفَصْلِ مِنَ ٱلْوَصْلِ وَإِذَا كَانَ ذَٰلِكَ كَذَٰلِكَ فَهُوَ كَاتِبٌ مُجِيدٌ. وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ: مَا ٱتَّحَفَّظُ مِنْ رَجُلٍ شَيْئًا كَتَحَفُّظِي عَنِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ فِي كِتَابِهِ وَٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْمَحْلُولِ إِلَى ٱلْمَعْقُودِ وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جَمَالًا وَحِلْيَةً ٱلْكِتَابِ وَجَمَالُهُ إِيقَاعُ ٱلْفَصْلِ وَقْعَهُ وَشَحْذُ ٱلْفِكْرِ وَإِجَالَتُهَا فِي لُطْفِ ٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلْمَعْقُودِ إِلَى ٱلْمَحْلُولِ. (قُلْنَا): وَمَعْنَى ٱلْمَعْقُودِ وَٱلْمَحْلُولِ هَاهُنَا هُوَ أَنَّكَ إِذَا ٱبْتَدَأْتَ مُخَاطَبَةً ثُمَّ لَمْ تَنْتَهِ إِلَى مَوْضِعِ ٱلتَّخَلُّصِ فَمَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مَعْقُودًا. وَإِذَا شَرَحْتَ ٱلْمَسْتُورَ وَأَبَنْتَ عَنِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَنْزُوعِ إِلَيْهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مُحَاوِلًا مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أُنْظُرْ سَدَّدَ ٱللهُ رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوَكَ مَقْدِرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءٌ مَا أَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدْتَ تَضْمِينَهُ فِي كِتَابِكَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ إِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدْتَ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَٱرْتَهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ يَقُولُ لَمْ أَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشْبِعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْجَدَاوِلِ وَٱلْحِكَايَاتِ وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعُ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصَدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ عَمَلٌ مِنَ ٱلْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي أَوَّلِ ٱبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصِدِهِ كَمَا أَنَّ أَخْيَرَ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاول

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخْرُمَةَ ٱلسَّكُونِيِّ ٱلْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ ٱلْخَطَابَةَ فَوَقَفَ بِشْرٌ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ ٱلنَّظَّارَةِ فَقَالَ بِشْرٌ: اِضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَٱطْوُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ صَحِيفَةً مِنْ تَنْمِيقِهِ وَتَحْبِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلِٱسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَاوَلَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ بِٱلتَّكْلِيفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَأَكَ

لم يخطئك ان يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه . واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين الفاظك ومن اراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقها ان تصونها عما يفسدها ويهجنها وعما تعود من اجله الى ان تكون اسوأ حالا منك قبل ان تلتمس اظهارها وترهن نفسك بملابستها وقضاء حقها . فكن في ثلاثة منازل فاول ذلك ان يكون لفظك رشيقا عذبا او فخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت واما عند العامة ان كنت للعامة اردت . والمعنى ليس يتضع ان يكون من معاني العامة . وانما مدار الامر على الشرف مع الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي والخاصي فان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة لفظك ولطف مداخلك واقتدارك في نفسك على ان تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الالفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الاكفاء فانت البليغ التام . فقال له ابراهيم بن جبلة جعلت فداك انا احوج الى تعلمي هذا الكلام من هؤلاء الغلمة

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنْتُ ذَكَرْتُ لَكَ أَسْعَدَكَ ٱللهُ إِكْثَارَ ٱلنَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصْفِ ٱلْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِمِ ٱلْقَوْلَ فِي أَقْسَامِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَأَنَّهَا أَلْفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّثْرِ وَيَكُونُ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَٱلرَّسَائِلِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْأَوْصَافِ وَفِي ٱلسُّؤَالِ وَٱلْجَوَابِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. فَأَمَّا بَلَاغَةُ ٱلشِّعْرِ فَعُذُوبَةُ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي وَٱتِّسَاقُ ٱلنَّظْمِ وَرَشَاقَةُ ٱلْمَعْرِضِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَٱلتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ). وَقَوْلِ ٱلْأَعْشَى : (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَقَرْعِ ٱلْحُجَّةِ وَٱلْأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا أَنَّهَا أَلْفَاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَأَحْسَنُهَا مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ ٱلْمَعْنَى مَعَ ٱخْتِصَارِهِ بِأَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْعِبَارَةِ بِأَعْذَبِ ٱلْأَلْفَاظِ وَأَحَقِّهَا عَلَى ٱلْأَسْمَاعِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى ٱلْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسَانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلْأَلْسِنَةِ فَهُم فِيهَا مُشْتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ ٱلْيُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَكَلَامِ ٱلْهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي ٱلْعَرَبِ أَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي ٱلنَّثْرِ وَٱلنَّظْمِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلْكُتُبِ وَٱلسَّجْعِ وَٱلْمُزْدَوَجِ وَٱلرَّجَزِ. وَهُمْ أَيْضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ ٱلْعَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ ٱلْأَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَٱلْبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي أَعْرَابِ ٱلْبَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا ٱلصَّبِيُّ وَٱلْمَرْأَةُ... قَالَ ٱلشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ أَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ أُمِّيٌّ جَافٌّ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ ٱلْمَعْنَى ٱلْبَدِيعَ وَٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُصِيبَ وَٱلسُّؤَالَ ٱللَّطِيفَ وَٱلْمَدْحَ ٱلشَّرِيفَ وَٱلْغَزَلَ ٱلرَّقِيقَ وَٱلْهِجَاءَ ٱلْمُوجِعَ وَٱلذَّمَّ ٱلْمُقْلِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَأَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَأَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَأَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا أَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي أَنْ يُحَاضِرَ أَهْلَ ٱلْمُرُوءَاتِ بِهَا مُتَمَثِّلًا أَوْ شَاكِرًا أَوْ عَاتِبًا أَوْ مُهَنِّئًا أَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى ٱلدَّهْرِ إِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونَ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ ٱلْأَدَبِ وَٱلْمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ: فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ ٱلْعُرْفُ بَيْنَ ٱللهِ وَٱلنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ ٱلْعَارِفُ ٱلْمُصِيبُ وَٱلْعَالِمُ ٱلْأَدِيبُ وَٱلرَّيِّضُ ٱلْحَاذِقُ أَنْ يُدْرِكَ شَأْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ ٱلْبَلَاغَةِ فَقَالَ:

اَلتَّقَرُّبُ مِنْ مَعْنَى اَلْبُغْيَـةِ وَاَلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ اَلْكَلَامِ وَاَلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ. قَالَ اَلشَّيْخُ: وَاكْثَرُ مَا عَلَيْهِ اَلنَّاسُ فِي اَلْبَلَاغَةِ انَّهَا اَلِاخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ اَلْمَعَانِي بِالْأَلْفَاظِ اَلْقِصَارِ وَاَلِاقْتِصَارُ عَلَى اَلْاشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَاَلدَّلَالَةِ بِالْقَلِيلِ عَلَى اَلْكَثِيرِ. وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ: لَمْحَةٌ دَالَّةٌ. وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ اكْثَرُهُمْ فِي اَلْحَذْفِ وَاَلِاخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ امْرُؤُ اَلْقَيْسِ اِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لِحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَانَّ اَلْاوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي التَّخَلُّصِ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ: (قَيْدُ اَلْاوَابِدِ). وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ: (اِنَّ اَلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ). فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ كَذٰلِكَ قَوْلُ اَلْاعْشَى: فَهُمْ سَاكِنُونَ وَاَلْمَنِيَّةُ تَنْطَلِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا اوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ . . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ اَلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ اَلْحَذْفِ وَاَلِاخْتِصَارِ. وَمِنْ هٰذَا انَّ اَلْمَأْمُونَ امَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ اَلْكَاتِبَ انْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ اَلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَانْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا امْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو: كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كُتِبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٌّ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ اَلثِّقَةِ وَاَلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ. وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ اَلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ اَلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى اَلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ: امَّا بَعْدُ فَانِّي ارَاكَ تُقَـدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ اُخْرَى فَإِذَا اتَاكَ كِتَابِي فَاعْتَمِدْ عَلَى ايِّهِمَا شِئْتَ وَاَلسَّلَامُ. وَسَاذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ أَذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ . فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ : إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا . وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا . وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرَكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ الانْسَانَ بِاخْتِلَافِ الْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ الْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ إِلَى الْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْحَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَّلِبُ الْعِرَاقِيُّ لِلإِسْكَنْدَرِ: اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاحْكَامُكَ تَجْعَلُ الصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ الشَّيْخُ) فَانْظُرِ الآنَ كَمْ مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ الالْفَاظِ الْقَلِيلَةِ يَعْنِي انَّ حُسْنَ خُلُقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ إِلَى صَدَاقَتِهِ وَانَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَانَّ عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي الدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِانَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُصُورِ. وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ افْصَحَ وَاحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ ابُو مُسْلِمٍ بَعْضَ الْفُرْسِ فِي امْرِهِ قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمُلُ. فَجَمَعَ لَهُ بِهٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ اكْثَرَ مَعَانِي السِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى انَّ بَعْضَهُمْ رَاَى شَابًّا لَا ادَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ: حِمَارٌ عَلَيْهِ لِجَامُ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ إِلَى شَابٍّ احْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ فَقَالَ: هٰذَا حَجَرٌ قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ ارِسْطَاطَالِيسُ: الْحَاجَةُ إِلَى الْعَقْلِ اقْبَحُ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَالِ. وَقَالَ: غَيْرُ مُحِبِّ الشَّرَفِ هُوَ الَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ بِالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: اللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَاَى سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ: هٰذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ إِلَى الْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ: قَدْ مَاتَ اسْتَاذُكَ. فَقَالَ: الْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنُّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَلَاسِيَّمَا فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمْ ٱلَّذِينَ أَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى أَنَّ أَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ: ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ أَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ أَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَأَخَّرَهُ: أَنْتَ مَاشٍ وَٱلْأَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثَّرَتْ أَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى أَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ أَيْضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ أَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ أَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ أَفْلَاطُونُ يَعِيبُ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: إِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقُ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَأَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ أَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ أَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ أَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْأَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى أَفْوَاهِ أَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى أَبُو حَاتِمٍ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ أَوْصَلَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقِرْطَاسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْأُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْأَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ أَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ أَهْلُ زَمَانِهِ قَحَطُوا فَرَفَعُوا إِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

الى صاحب بيت المال : إذا قحط المطر جادت سحائب الملك . ففرّق فيهم ما قاتهم ومانهم . وشُكي مثل ذلك الى قباذ بن كسرى فوقّع ليكن بما البرّ الرعيّة والاحسان اليهم فاني واياهم في نفع ذلك مستوون . ومدح رجل من الخاصة كسرى بن قباذ بمدح اطنب فيه واسهب وذهب كل مذهب وكان المدح في رقعة . فوقّع فيها كسرى اني للمدح مستصغر لعلمي باشياء قد مدحت وكانت بان تذم محقوقة . ووقّع انوشروان في رقعة متنصح : ثمرات النصائح شكر الجوارح وخرج التوقيع الى وزير له امر له بجائزة واثنى عليه وقال : قد جمعنا الى شكر اللسان شكر اليد وهو البذل . ووقّع كسرى في رقعة رجل سأله فيها النقلة عن صناعته الى صناعة غيرها وكانت صناعته خسيسة فاختار صناعة رفيعة فوقّع في رقعته : انا حامل للرعيّة على لزوم منازلهم وصنائعهم ولنفسي على ما يحمل على اللزوم لها

ومن حدّ البلاغة جمع المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة فقد سُئل خلف الاحمر فقيل له: ما لنا نرى في الكلام القليل عدّة معانٍ . فقال : إنّ كلام العرب اوعية والمعاني امتعة فربّما جُعلت ضروب من الامتعة في وعاء واحد ... وحُكي عن جعفر ابن يحيى وكان قريع دهره بلاغة في المكاتبة وجودة لسان في المخاطبة انه قال: اذا كان الايجاز كافياً كان التطويل عيّاً وان كان التطويل واجباً كان التقصير عجزاً . وحكى المفضّل قال : قلت

لِأَعْرَابِي: مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: ٱلْإِيجَازُ مِنْ غَيْرِ عَجْزٍ وَٱلْإِطْنَابُ فِي غَيْرِ خَطَلٍ. وَوَصَفَ ٱلْجَاحِظُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ فَقَالَ: كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَسْتَدْعِي مَعْنًى مِنْ بُعْدٍ. قَالُوا: وَٱلْبَلِيغُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلَّذِي تَكُونُ ٱلْأَلْفَاظُ عِنْدَهُ عَزِيزَةً وَٱلْمَعَانِي فِي نَفْسِهِ جَمَّةً كَثِيرَةً. وَقَالُوا: وَمَحْصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ أَنَّ لَهَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ: حَالًا يُحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْمَعَانِي مِنْ أَجْلِهَا. وَحَالًا يُحْتَاجُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ. وَحَالًا مُرَكَّبَةً مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي وَهِيَ ذَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱسْمِهَا. وَلِلْبَلَاغَةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبَ تُقْصَدُ فِي ٱسْتِعْمَالِهَا. أَحَدُهَا ٱلْمُسَاوَاةُ وَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ كَٱلْقَالَبِ لِلْمَعْنَى لَا يَفْضُلُ عَنْهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ. وَٱلثَّانِي ٱلْإِشَارَةُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ مُشَارًا بِهِ إِلَى ٱلْمَعْنَى بِٱللَّمْحَةِ ٱلدَّالَّةِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلتَّذْيِيلُ وَهُوَ إِعَادَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِعَيْنِهِ حَتَّى يَظْهَرَ لِمَنْ لَمْ يَفْهَمْهُ وَيَتَوَكَّدَ عِنْدَ مَنْ فَهِمَهُ. وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبِ مَوْطِنٌ يَلِيقُ بِهِ وَوَقْتٌ لَا يَصْلُحُ فِيهِ غَيْرُهُ وَسَأَذْكُرُ هٰهُنَا صَدَدًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْقِصَارِ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَضَمَّنُ ٱلْفِقَرَ ٱلْمُخْتَارَةَ وَٱلْمَعَانِيَ ٱلْمَجْمُوعَةَ بِٱللَّفْظِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. وَكَقَوْلِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سِتَّ كَلِمَاتٍ مَا سَبَقَهُ إِلَيْهَا أَحَدٌ تُوزَنُ كُلُّ كَلِمَةٍ مِنْهَا بِأَلْفِ كَلِمَةٍ وَرَوَاهَا عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَمِنَ ٱلْأُدَبَاءِ وَهِيَ: ٱلْأُولَى قَوْلُهُ: قِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ مَا يُحْسِنُهُ. ٱلثَّانِيَةُ: ٱلنَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا. ٱلثَّالِثَةُ: لِسَانُكَ يَقْتَضِيكَ مَا عَوَّدْتَهُ.

ٱلرَّابِعَةُ: رَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ. ٱلْخَامِسَةُ: لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ. ٱلسَّادِسَةُ: ٱلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ ٱلشِّعْرُ مِيزَانُ ٱلْقَوْمِ وَٱلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ. وَقَوْلُ عُمَرَ: هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا وَٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمْ: ٱلسَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ. وَقَوْلُهُمْ: إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُمْ: رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ. رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ. رُبَّمَا قَتَلَ ٱلْبَلِيغَ لِسَانُهُ. ٱلْعُيُونُ عُنْوَانُ ٱلْقُلُوبِ. ٱلْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ ٱلْعُيُونِ. مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ ٱتَّسَعَ لِسَانُهُ. وَقَوْلُ ٱلْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ: يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا. وَقَالَ آخَرُ: يَسْبِقُ ٱلطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْوَصْفَ. عُوجُ ٱللِّسَانِ طَوْعُ ٱلْعِنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ. وَقَوْلُهُمْ: ٱلْفِكْرَةُ مُخُّ ٱلْعَمَلِ. وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ ٱلْكِدْنَةَ. فَقَالَ: ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ ٱللهِ عِنْدِي. وَقَوْلُهُمْ: حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ ٱسْتِمَاعُهُ. دَلَّ ٱلشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ. ٱلْبَادِئُ أَظْلَمُ. حِفْظُ ٱلْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ ٱلْمَفْقُودِ. مَنْ عَزَّ بَزَّ. سَرَّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ. سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ ٱلْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ: سَلَامَتِي. ٱلْمَلَقُ شُكْرُ ٱلضَّعِيفِ. ٱلصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَٱلْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ. إِقْضِ دُيُونَ ٱلْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِٱللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ ٱلْإِمْكَانِ. مَنْ وَاكَلَكَ فِي ٱلرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي ٱلْبَلَاءِ. عَجَبًا لِلْخَيْرِ ٱلْمَمْدُوحِ ٱلْمَتْرُوكِ وَٱلشَّرِّ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمَفْعُولِ. مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ أَسَاءَ ٱسْتَوْحَشَ. سَاعَاتُ ٱللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ ٱلْغَفْلَةِ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ ٱللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. عِنْدَ صَفْوِ

ٱلْعَيْشِ يَكْدُرُ. ٱلْمُرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي يُحِيُّ ذِكْرَكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلْإِسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: أَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ أَلَكَ أَخْلَفَ وِنْسَكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلْإِنْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: أَشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتَى مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ أَمَلٍ أَوْ عُدُولًا عَنِ ٱغْتِفَارِ زَلَلٍ أَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَإِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسْأَلُ ٱلَّذِي رَحِمَ ٱلْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ ٱفْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدُهُمْ إِلَى ٱلْمَكَارِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدَرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ طَاهِرٍ : ٱلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ ٱلْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ إِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ ٱلدِّيوَانِ فَإِنَّهُ عَلِيلُ ٱلْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ ٱلصُّولِيُّ : ٱلْخَطُّ لِسَانُ ٱلْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ ٱلْغَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ ٱلْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ ٱلنُّبْلِ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اَجْنَاسُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا ٱلْخَطَابَةُ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اَصْنَافِ ٱلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ ٱلْخُطَبِيِّ ثَلَاثَةً. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ ٱلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَمِنَ ٱلَّذِينَ يُوَجَّهُ إِلَيْهِمِ ٱلْقَوْلُ وَهُمُ ٱلسَّامِعُونَ. وَٱلْغَايَةُ بِٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّامِعِينَ. وَٱلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ إِمَّا مُنَاظِرٌ وَإِمَّا حَاكِمٌ وَإِمَّا ٱلْمَقْصُودُ إِقْنَاعُهُ. وَٱلْحَاكِمُ إِمَّا اَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ وَٱلضَّارَّةُ. وَإِمَّا فِي ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَٱلْاُمُورُ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْاِنْسَانِ بِٱخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَٱلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْاِنْسَانِ بِغَيْرِ ٱخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ إِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ ٱلْجَوْرُ وَٱلْعَدْلُ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

الرَّئِيسُ وَالْحَاكِمُ فِي الْأُمُورِ الْكَائِنَةِ هُوَ الَّذِي يَنصِبُهُ الرَّئِيسُ (مِثْلُ الْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هذِهِ وَهِيَ مُدُنُ الْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا الْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ الْمَلَكَةِ الْخُطْبِيَّةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ الْقَوْلِ الْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا الضَّمِيرُ الْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ . وَأَمَّا الْقَوْلُ الْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ الشِّكَايَةِ . وَأَمَّا الْقَوْلُ التَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَالزَّمَانُ الْخَاصُّ بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ الزَّمَانُ الْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ . وَالزَّمَانُ الْخَاصُّ بِالْأَشْيَاءِ الْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ الزَّمَانُ الْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ الْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِشَارَةِ بِالنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ . وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ الْمَشُورَةُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ كَانَتْ لَكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ الشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي الشَّيْءِ الَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ التَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى الْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ الزَّمَانُ الْحَاضِرُ أَعْنِي الْقَرِيبَ مِنَ الْآنِ فَإِنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَمْدَحُونَ وَيَذُمُّونَ بِالْأَشْيَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ الْمَدْحِ وَحِينِ الذَّمِّ فِي الْمَمْدُوحِ وَالْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَامِهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ اَوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسه)

وَامَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ اَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ اَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ اَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ اَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ اَضَرُّ. وَامَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجِرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَامَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ اَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ اَنَّ هٰذَا عَدْلٌ اَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَمَّا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ اَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ اَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

الثلاثة إنما تكون الفصول المعطاة فيها من قبل هذه الغايات . وقد يدلّ على أن هذه الغايات هي خاصة بواحد واحد من هذه الأجناس الثلاثة من الأقاويل أنه إذا أقنع كل واحد منها في غاية الجنس الآخر ربما لم يكن للمناظر في ذلك معاسرة ومشاكسة بل كثيرا ما يسلم له ذلك ولكن لا يسلم له غاية ذلك القول التي تخصه . مثال ذلك أن المدعي إذا ادعى أن فلانا أخذ المال من فلان وذلك لا شك ضرر به فربما يسلم له الخصم أن ذلك كان ولكن لا يسلم له أن أخذه المال منه كان على جهة الجور . وكذلك المشير قد يسلم أن الفعل الممكن جور ولا يسلم أنه ضار ولمكان تداخل هذه الغايات يعرض للمشيرين كثيرا أن يشيروا بأشياء ضارة على جهة المغالطة من قبل أنها عدل أو أنها ليست بجور ولكن لا يقرون بأنها ضارة بل ربما احتالوا في دعوى وجود النفع فيها . مثال ذلك أنهم قد يشيرون بالصبر على الموت في الحرب وألا يفرون لكون الفرار جورا في الشريعة . وكذلك متى قهر قوم قوما واستولوا عليهم ربما أشار المشير عليهم ألا يمتعضوا لذلك القهر لأنه لم يكن جورا وربما أوهم فيه أنه غير ضار لهم . وكذلك المادح قد يسلم أن الشيء ضار ولكن يدعي أنه فضيلة مثل من يخلص إنسانا من الموت ويعلم أنه يموت بتخليصه ذلك الإنسان . فالموت يسلم الخصم أنه ضار ولكن يرى أنه فضيلة . وكذلك ربما مدح بالرذيلة على جهة

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَارِكُ فِيهَا وَتُشَارِكُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدِّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ تَمَيَّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجَرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلِٱعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذَلِكَ اِمَّا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَاِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِالضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدِّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ اِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من ٱلكتاب نفسه)

وَاِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِئَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلُ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَاِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلْاِضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ . فَاِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي اِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

ٱلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِن قِبَلِ ٱلْأَخْتِيَارِ وَٱلْإِرَادَةِ . وَمِنْ هٰذِهِ فِيمَا كَانَ وُجُودُهُ اوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَافْعَالِنَا عَلَى ٱلْأَكْثَرِ وَامَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلِٱتِّفَاقِ وَاقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْأَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا إِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ انْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى انَّ ٱلْإِشَارَةَ إِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ انَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ اوَّلًا هَلِ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ انْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ إِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِأَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَإِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَإِنْ تَبَيَّنَ لَهُ انَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نَرْوِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي ايِّ ٱلْأَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْأُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْأُمُورُ ٱلْإِضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ إِلَيْنَا وُجُودُهَا وَإِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ انْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى اقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا انْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ انْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا اصْدَقُ وَاصَحُّ مِنْ هٰذِهِ . وَذٰلِكَ انَّ هُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْأَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْأُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ ايْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ انَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي اجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ أَعْنِي انَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمٍ

ٱلْمَنطِقِ وَمِنْ عِلمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَأَنَّ فِيهَا أَشْيَاءَ جَدَلِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْجَدَلِيَّةِ وَأَيْضًا سُوفِسْطَائِيَّةً أَوْ شَبِيهَةً بِٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ • وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ أَجْزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى أُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْأَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مُعِينَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ • وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْخُلُقِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ أَحَدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مَعْرِفَتُهَا وَعِلْمُهَا • وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْجَدَلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ إِنَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ ٱلَّذِي تَسْتَعْمِلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْأُولَى لِلْإِنْسَانِ لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ أَنَّهَا إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلَ مَوَاضِعِ ٱلْإِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطِبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ إِنَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ أَيْضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا أَعْنِي أَنَّهَا إِنَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعِلمِ ٱلسِّيَاسِيِّ مِنهَا. وَٱلأُمورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى أَهلِ مَدِينَةٍ بِأَسرِهِمْ وَمِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهلِ تِلكَ ٱلمَدِينَةِ أَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) : فَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلمَشُورَةُ فِي ٱلأُمورِ ٱلعِظَامِ مِنْ أُمورِ ٱلمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ خَمسَةً. أَحَدُهَا ٱلإِشَارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلأَموَالِ لِلمَدِينَةِ. وَٱلثَّانِي ٱلإِشَارَةُ بِٱلحَربِ أَوِ ٱلسِّلمِ. وَٱلثَّالِثُ ٱلإِشَارَةُ بِحِفظِ ٱلبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيهِ مِنْ خَارِجٍ. وَٱلرَّابِعُ ٱلإِشَارَةُ بِمَا يَدخُلُ فِي ٱلبَلَدِ وَيَخرُجُ مِنهُ. وَٱلخَامِسُ ٱلإِشَارَةُ بِٱلتِزَامِ ٱلسُّنَنِ. فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحتَاجُ أَنْ يَعرِفَ ثَلَاثَةَ أُمورٍ أَحَدُهَا أَنْ يَعرِفَ غَلَّاتِ ٱلمَدِينَةِ مَا هِيَ أَعنِي هَل هِيَ نَبَاتٌ أَوْ حَيَوَانٌ أَوْ مَعدِنٌ أَوْ جَمِيعُ هٰذِهِ أَوِ ٱثنَانِ مِنهَا كَيمَا إِنْ نَقَصَ مِنَ ٱلفَاضِلِ مِنهَا لِلعُدَّةِ شَيْءٌ أَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا. وَٱلثَّانِي أَنْ يَعرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ أَهلِ ٱلمَدِينَةِ كُلِّهَا. وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَعرِفَ أَصنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلمَدِينَةِ فَإِنْ كَانَ فِيهَا إِنسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ أَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ أَشَارَ بِتَنْحِيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَإِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ أَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ أَشَارَ بِأَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ: قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ أَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ إِلَى هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ أَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ أَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ أَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَأَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ أَوِ ٱلسِّلْمِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ أَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ أَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ أَوْ فِي عِظَمِهَا أَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ أَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ أَمْ لَيْسَ هُمْ. وَأَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ أَمْرَ ٱلْحَرْبِ. أَوْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ إِنْ أَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ اَهْلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثَغْرِهِ اَعْنِي كَيْفَ حَالُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي ٱلظَّفَرِ بِهِ اَوِ ٱلْعَجْزِ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَاهُنَا مُقَدَّمَاتٍ نَافِعَةً فِي ٱلْاِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَعْلَمَ ٱلْحُرُوبَ ٱلْجَمِيلَةَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْجَائِرَةِ وَاَنْ يَعْلَمَ حَالَ ٱلْاَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلرَّأْيِ وَاِجَادَةِ مَا فُوِّضَ اِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَرْبِ. اَعْنِي اَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهِينَ فَاِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ اَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ ٱلْحَرْبِ ٱلَّذِي فُوِّضَ اِلَيْهِ ٱلْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لَيْسَ فِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ٱلْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَاِنَّ ٱلشَّبِيهَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى ٱلشَّبِيهِ. اَعْنِي اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَفْضَتِ ٱلْحُرُوبُ ٱلشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ اِلَى مَكْرُوهٍ اَنْ يُشِيرَ بِٱلسِّلْمِ وَاِنْ كَانَتْ اَفْضَتْ اِلَى ٱلظَّفَرِ اَنْ يُشِيرَ بِٱلْحَرْبِ. وَاَمَّا حِفْظُ ٱلْبِلَادِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحِفْظِ اَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تُحْفَظُ ٱلْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ ٱلْحِفْظِ ٱلْمُحْتَاجِ اِلَيْهِ فِي طَارِئٍ طَارِئٍ وَكَمْ اَنْوَاعُ ٱلْحِفْظِ. وَيَعْرِفُ مَعَ هٰذَا ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِٱلرِّجَالِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَسَالِحَ. فَاِنْ كَانَ ٱلْحِفْظُ لِتِلْكَ ٱلْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَاِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَّاهُ مِمَّنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ ٱلْمُحَامَاةِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَحْفَظَ اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَفِيَّةَ

اعني ٱلّتي ٱلمنفعة بحفظها اكثر . فمن عرف هذا فقد يمكنه ان يشير بالحفظ وان يكون خبيرًا بالبلاد ٱلّتي يشير بحفظها . واما ٱلاشارة بالقوت وسائر ٱلاشياء ٱلضّروريّة ٱلّتي تحتاجها ٱلمدينة فانّه يحتاج ٱلمشير فيه ان يعرف مقدارها وكم يكفي ٱلمدينة منها وكم ٱلحاضر ٱلموجود في ٱلمدينة من ذلك وهل اُدخل ٱلكافي من ذلك في ٱلمدينة واُحرز ام لم يدخل . وما ٱلاشياء ٱلّتي ينبغي ان تخرج من ٱلمدينة وهو ٱلفاضل عن اهل ٱلمدينة . وما ٱلاشياء ٱلّتي ينبغي ان تدخل وهو ما قصر عن ٱلضّروريّ لتكون مشورته وما يعهد به على حسب ذلك فانّه قد يحتاج ٱلمرء ان يحفظ اهل مدينته لامرين : احدهما لمكان ذوي ٱلفضائل وٱلثّاني لمكان ذوي ٱلمال ٱلّذين من اجل ذوي ٱلفضائل . وٱلحافظ للمدن يحتاج بالجملة الى ان يكون عارفًا بجميع هذه ٱلانواع ٱلخمسة عند حفظه لها

(قال) واما ٱلنّظر في وضع ٱلسّنن وٱلاشارة بها فليس بيسير في امر ٱلمدن فانّ ٱلمدن انّما تسلم ويتمّ وجودها بالسّنن ولذلك قد ينبغي لواضع ٱلسّنن ان يعرف كم اصناف ٱلسّياسات واي سنّة تنفع في سياسة سياسة واي سنّة لا تنفع واي ناس تصلح بهم سنّة سنّة وسياسة سياسة واي ناس لا تصلح بهم وان يكون يعرف ٱلاشياء ٱلّتي يخاف ان يدخل منها ٱلفساد على ٱلمدينة . وذلك امّا من ٱلاضداد من خارج وامّا من اهل ٱلمدينة فانّ سائر ٱلمدن ما عدا ٱلمدينة ٱلفاضلة قد تفسد من قبل ٱلسّنن

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذَٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ أَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلُقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخِسَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْأَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ . وَمِثَالُ ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَطَسَ إِذَا أَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرَ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلْاعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذَٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْأُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ . وَلِذَٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَاهُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ . وَأَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ يَأْخُذُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَاِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْآنَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْاِخْبَارِ عَنِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اِذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طبيعته بل انما عند كل واحد منهم وجوده فقط. واذا سئل واحد واحد منهم عما يدل عليه اسمه اجاب فيه بجواب غير الجواب الذي يجيب فيه الآخر. وانما يؤثره الجميع لمكان هذا الانفعال الموجود له بالطبع عند الجميع وهذا الخير في الجملة هو صلاح الحال واجزاء صلاح الحال. ولذلك فقد ينبغي ان نفصل اولا ما هو صلاح الحال بقول عام ثم نفصل اجزاءه ونخبر عن اضدادها وعن الاشياء التي يكون فيها الاذن والمنع وهي النافعة في صلاح الحال او الانفع فيه او الضارة فيه او الاضر فيه فان بهذا يتم لنا القول في الاشياء التي منها تلتئم الاقاويل المشورية المستعملة مع جميع الناس

(قال) والذين تكلموا في هذه الصناعة فلم يتكلموا من هذه الاشياء الا فيما يجري مجرى الامور الكلية مثل انهم قالوا: ينبغي للخطيب ان يعظم الشيء الصغير اذا اراد تفخيمه ويصغر الشيء الكبير اذا اراد تهوينه. وينبغي له ان لا يأذن في الاشياء التي تفسد صلاح الحال وفي الاشياء التي تعوق عن صلاح الحال او تجاوز صلاح الحال الى ضده. ولم يقولوا ما هي الاشياء التي بها يعظم الشيء او يصغر ولا ما هي الاشياء التي توجب اختلال صلاح الحال او تعوقه او تجاوزه الى ضده

(قال) فاما صلاح الحال فهو حسن الفعل مع فضيلة وطول من العمر وحياة لذيذة مع السلامة والسعة في المال وحسن الحال

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهَا . وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ أَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَإِذَا كَانَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَأَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلْإِخْوَانِ وَٱلْأَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْجَزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ وَٱلْبِرِّ فَإِنَّهُ هٰكَذَا أَحْرَى أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مُكْتَفِيًا أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ وَٱلْإِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلِاتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَأَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ أَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ وَكَثْرَةِ عَدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا أَحْرَارًا لَمْ يَجْرِ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ أَوْ يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْأُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ لَمْ

يكونوا حكاماً ولا رؤساء . فاما النظر في الحسب هل هو من الرجال فقط او من النساء فالظاهر من ذلك والمتفق عليه عند الجميع انه يكون اتم اذا كان من كليهما . وينبغي ان يستعمل الخطيب من ذلك المشهور في امة امة . ومن شروط الحسب ان يكون الرؤساء والاحرار من اولئك القوم الذين شهروا بالفضيلة واليسار وغير ذلك من المكرمات لم ينقطع وجودهم في القوم الذين هو منهم الى وجوده هو بل يوجد في ذلك الجنس ابدا اشياخ بهذه الصفة يخلفهم غلمان في تلك الخصال . فانه ان انقطع الشرف في ذلك الجنس الذي هو منهم لم يكن حسيبا وان لم ينقطع منهم فهو حسيب وان انقطع فيمن ولد منهم . واما حسن الحال بالاولاد وكثرتهم فهو مما لا خفاء به وحسن الحال بالاولاد المشترك للجميع هو كثرة الفتيان وصلاحهم في فضائل الجسد وفضائل النفس . اما في فضائل الجسد فاربع احداها الجزالة وهي ان تكون خلقهم خلقا طبيعية يفوقون فيها كثيرا من الناس . والثانية الجمال . والثالثة الشدة . والرابعة البطش فهذه الاربع يكون الغلمان صالحين في فضائل اجسامهم . واما في فضائل النفوس فيكونون باثنتين بالعفاف والشجاعة . واما ما قد يكون به صلاح حال بعض الناس فكثرة الاولاد من الذكور والاناث . وصلاح الحال بالاناث ايضا يكون بفضيلتين في الجسد والنفس . اما في الجسد فاثنتان العبالة وهو عظم الاعضاء العظم الطبيعي

وَكَثْرَةُ اللَّحْمِ الطَّبِيعِيِّ لَا اللَّوْنُ وَالْجَمَالُ . وَامَّا فِي النَّفْسِ فَثَلَاثٌ الْعَفَافُ وَحُبُّ الْأُلْفَةِ وَحُبُّ الْكَدِّ فَانَّ بِهٰذِهِ الْفَضَائِلِ يَكْمُلُ الْمَنْزِلُ وَهٰذِهِ الْفَضَائِلُ الَّتِي قُلْنَا سَبِيلُهَا انْ تُوجَدَ فِي النِّسَاءِ كُلِّهِنَّ اللَّاتِي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ الرَّجُلِ عَلَى الْعُمُومِ وَفِي الرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى الْعُمُومِ وَفِي اوْلَادِهِ الذُّكُورِ خَاصَّةً اذْ كَانَ الْوَلَدُ بِهِ الصَقَ . وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ انْ يَنْظُرَ هَلِ الْفَضَائِلُ الَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هٰذِهِ الْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ اعْنِي فِي اوْلَادِهِمْ امْ لَيْسَ هِيَ هٰذِهِ فَانَّ كَثِيرًا مِنَ الْامَمِ يُرَبُّونَ اوْلَادَهُمُ الذُّكُورَ وَالْاِنَاثَ بِالزِّينَةِ وَالسِّمَنِ وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ ارِسْطُو انَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ النِّصْفُ مِنْ صَلَاحِ الْحَالِ بِالْاَبْنَاءِ . فَامَّا اجْزَاءُ الْيَسَارِ فَبِكَثْرَةِ الدَّنَانِيرِ وَالْاَرَضِينَ وَالْعَقَارِ وَالْاَثَاثِ وَالْاَمْتِعَةِ وَالْمَوَاشِي وَجَمِيعِ الْاَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي النَّوْعِ وَالْجِنْسِ . وَكُلُّ ذٰلِكَ اذَا كَانَتْ هٰذِهِ الْاَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ وَانْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا اَيْ مُلْتَذًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ اوْ مُنْمِيًا

(قَالَ) وَمِنَ الْاُمُورِ النَّافِعَةِ فِي الْيَسَارِ وَالنَّافِعَةِ لَهُ الْاَشْجَارُ الْمُثْمِرَةُ وَالْغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَاللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ الْحِفْظِ وَالْاِحْرَازِ الْمَالَ هُوَ انْ يَكُونَ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَانْ يَكُونَ بِالْحَالِ الَّتِي يُمْكِنُ انْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ انْ اذَا كَانَتْ ارْضًا اَلَّا تَكُونَ سَبِخَةً وَانْ كَانَ فَرَسًا اَلَّا يَكُونَ جَمُوحًا . وَحَدُّ الْحُرِّيَّةِ فِي الْمَالِ انْ يَكُونَ الَيْهِ التَّصَرُّفُ فِي الْمَالِ بِالْاِعْطَاءِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَامَّا التَّنَعُّمُ بِالْمَالِ

فَهُوَ ٱسْتِعْمَالُهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا ٱشْتَرَطَ فِي ٱلْغِنَى هٰذَا ٱلشَّرْطَ لِأَنَّهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْغِنَى فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ أَحْرَى مِنْهُ أَنْ يَكُونَ فِي ٱقْتِنَائِهِ لِأَنَّ ٱلِٱقْتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ ٱلْغِنَى وَأَمَّا ٱلِٱسْتِعْمَالُ فَهُوَ ٱلْغِنَى بِعَيْنِهِ وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْفِعْلِ عَلَى ٱلرَّأْيِ ٱلصَّوَابِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَظُنُّهُ ٱلْكُلُّ فَاضِلًا وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْتَنِي ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْأَكْثَرُ لَا مَحَالَةَ أَوِ ٱلْأَخْيَارُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَذَوُو ٱلْكَيْسِ وَٱلْفِطْنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْكَرَامَةُ فَإِنَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلْمُقْتَنِي بِحُسْنِ ٱلْفِعْلِ وَإِكْرَامِ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ بِهِمْ هِيَ مُكَافَاةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْحَقِّ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ لَيْسَ تُكَافِئُهَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ. وَلَيْسَ يُكْرَمُ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ بِٱلنَّاسِ فَقَطْ بَلْ وَٱلَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ ٱلْعِنَايَةُ ٱلْحَسَنَةُ أَعْنِي ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُوَّةٌ عَلَى ذٰلِكَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلْإِكْرَامِ وَٱلْعِنَايَةِ بِٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَسْتَوْجِبُ ٱلْكَرَامَةَ هِيَ ٱلْعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُمْ مِنَ ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي لَيْسَ ٱلتَّخَلُّصُ مِنْهَا بِهَيِّنٍ أَوْ إِفَادَتُهُمُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي لَيْسَ إِفَادَتُهَا بِٱلسَّهْلِ. وَهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلْجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ ٱلْغِنَى أَوِ ٱلسُّلْطَانِ أَوْ مَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ بِهِ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ وَقَدْ يُكْرَمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَى خَيْرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَإِلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ . فَكَانَ ٱلْكَرَامَةُ عَلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْيَسِيرَةِ هِيَ بِٱلْعَرَضِ أَيْ مِنْ جِهَةِ مَا عَرَضَ لِتِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ أَنْ تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلْإِضَافَةِ

إِلَى ذٰلِكَ ٱلْوَقْتِ أَوِ ٱلْحَالِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ فَمِنْهَا مُشْتَرَكَةٌ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ وَمِنْهَا خَاصَّةٌ. فَٱلْخَاصَّةُ مِثْلُ ٱلذَّبَائِحِ وَٱلْقَرَابِينِ ٱلَّتِي كَانَتْ قَدْ جَرَتْ عَادَةُ ٱلْيُونَانِيِّينَ أَنْ يُكْرِمُوا بِهَا ٱلْأَمْوَاتَ. وَمِنْهَا عَامَّةٌ وَهِيَ ٱلْمَرَاتِبُ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَٱلْمُسَارَعَةُ إِلَى أَقْوَالِهِ وَتَرْكُ مُخَالَفَتِهِ وَٱلْهَدَايَا ٱلَّتِي تُوجِبُ ٱلْمَحَبَّةَ وَٱلْقُرْبَ. فَإِنَّ ٱلْهَدِيَّةَ جَمَعَتْ أَمْرَيْنِ بَذْلَ ٱلْمَالِ وَٱلْكَرَامَةَ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَكُلُّ إِنْسَانٍ يَجِدُ فِيهَا مَا يَتَشَوَّقُهُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ إِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْكَرَامَةَ وَإِمَّا صِنْفٌ يُحِبُّ ٱلْمَالَ وَإِمَّا صِنْفٌ يَجْمَعُ ٱلْأَمْرَيْنِ. وَٱلْهَدِيَّةُ قَدْ جَمَعَتْ مُتَشَوَّقَ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلثَّلَاثَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْجَسَدِ فَٱلصِّحَّةُ وَذٰلِكَ أَنْ يَكُونُوا عَزِيزِينَ مِنَ ٱلْأَسْقَامِ ٱلْبَتَّةَ وَأَنْ يَسْتَعْمِلُوا أَبْدَانَهُمْ لِأَنَّ مَنْ لَا يَسْتَعْمِلُ صِحَّتَهُ فَلَيْسَ تُغْبَطُ نَفْسُهُ بِٱلصِّحَّةِ أَيْ لَيْسَ هُوَ حَسَنُ ٱلْحَالِ بِهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ أَوْ مِنْ أَكْثَرِهَا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْحُسْنُ فَإِنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِٱخْتِلَافِ أَصْنَافِ ٱلْأَسْنَانِ فَحُسْنُ ٱلْغِلْمَانِ وَجَمَالُهُمْ هُوَ أَنْ تَكُونَ أَبْدَانُهُمْ وَخَلْقُهُمْ بِهَيْئَةٍ يَعْسُرُ بِهَا قَبُولُهُمُ ٱلْآلَامَ وَٱلْٱنْفِعَالَ أَيْ لَا يَكُونُونَ غَيْرَ مُحْتَمِلِينَ لِلْأَذَى وَأَنْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يُسْتَلَذُّ أَنْ يُنْظَرَ إِلَيْهِمْ عِنْدَ ٱلْجَرْيِ وَٱلْغَلَبَةِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ مَا يَرَى ٱلنَّاسُ ٱلْغِلْمَانَ ٱلَّذِينَ هُمْ مُهَيَّأُونَ نَحْوَ ٱلْخَمْسِ

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللِّعَبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللِّعَبَات ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَزَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ . وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللِّعَبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ . فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ ضَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِزَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلَّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا أَمْرًا مُكْتَسَبًا

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْجِهَادِيَّةَ فَإِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا ٱقْتَرَنَتِ ٱلْخِفَّةُ مَعَ ٱلْقُوَّةِ أَمْكَنَ أَنْ يَبْلُغَ بِٱلسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبْلُغْ بِٱلسُّرْعَةِ أَمَدًا بَعِيدًا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلصِّرَاعَ وَٱلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِنْدَهُمْ بِٱسْمٍ مُشْتَقٍّ مِنَ ٱلْحِذْقِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْخِفَّةِ وَأَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَهُمْ ذَا ٱلْخَمْسِ ٱللُّعَبِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ فَإِنَّهَا دَوَامُ ٱلْكِبَرِ مَعَ ٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْحُزْنِ لِأَنَّهُ إِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ ٱلْإِنْسَانِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَلَا أَنْ أُمْهِلَ إِلَى مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَإِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْأَحْزَانِ إِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ ٱلْجَدِّ وَفَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعْتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مِمْرَاضًا أَوْ كَانَ ٱلْجَدُّ غَيْرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِأَنْ يَكُونَ قَدِ ٱعْتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِصَالِحِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَإِنْ كَانَ مُعَمَّرًا . وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيْفَ يَكُونُ طُولُ ٱلْعُمْرِ مَعَ ٱلْأَمْرَاضِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ ٱلْعُمْرِ غَيْرَ قُوَّةِ ٱلصِّحَّةِ فَإِنَّا نَرَى قَوْمًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

أعمارُهم مع أنهم مِسقامونَ . وتصحيحُ هذا هوَ للعلمِ الطبيعيِّ وليسَ في تصحيحِهِ في هذا العلمِ منفعةٌ والخطيبُ إنما يكتفي من ذلكَ بالشيءِ الظاهرِ

(قالَ) وأمّا كثرةُ الخلّةِ وصلاحُ حالِ الإنسانِ بالإخوانِ وذلكَ أيضاً غيرُ خفيٍّ إذا حُدَّ ما هوَ الخليلُ والصاحبُ . وهوَ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ منهما يفعلُ الخيرَ الذي يظنُّ أنهُ ينفعُ بهِ الآخرَ لا الخيرَ الذي ينتفعُ بهِ في نفسهِ فقط . وإذا كانتِ الخلّةُ والصُّحبةُ هي هذهِ فبيِّنٌ أنَّ المرءَ يكونُ صالحَ الحالِ بالإخوانِ الكثيرةِ

(قالَ) وأمّا صلاحُ الجدِّ فهوَ أنْ يكونَ الاتفاقُ لإنسانٍ ما علّةً لوجودِ الخيرِ لهُ . وذلكَ إمّا من الخيراتِ الموجودةِ في ذاتهِ وإمّا منَ الخيراتِ الموجودةِ لهُ من خارجٍ . وعلّةُ الاتفاقِ قد تكونُ الصناعةَ وقد تكونُ الطبيعةَ وهوَ الأكثرُ . فمثالُ ما يكونُ عنِ الاتفاقِ الطبيعيِّ أنْ يولدَ الإنسانُ ذا قوّةٍ وهيئةٍ يعسُرُ بها قبولهُ الأمورَ الواردةَ عليهِ من خارجٍ . فأمّا أنْ يكونَ الإنسانُ صحيحاً فقد يكونُ سببهُ الاتفاقَ الطبيعيَّ مثلَ أنْ يولدَ صحيحاً . وقد يكونُ الاتفاقَ الصناعيَّ مثلَ أنْ يُسقى سمّاً فيبرأَ من مرضٍ كانَ بهِ . وأمّا الجمالُ والضخامةُ فعلّتهما الاتفاقُ الصناعيُّ والطبيعيُّ وجملةُ الأمرِ أنَّ الخيراتِ التي سببها الجدُّ الذي هوَ حُسنُ الاتفاقِ هيَ الخيراتُ التي يكونُ المرءُ مغبوطاً بها محسوداً عليها . وقد يكونُ

ٱلْجِدُّ عِلَّةَ لِخَيْرَاتٍ لَيْسَتْ هِيَ خَيْرَاتٍ بِٱلْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا تُرَى خَيْرَاتٍ بِٱلْإِضَافَةِ وَٱلْمُقَايَسَةِ إِلَى ٱلْغَيْرِ . كَمَا قَدْ يَكُونُ ٱلْقُبْحُ فِي حَقِّ إِنْسَانٍ خَيْرًا مَا إِذَا رُئِيَ غَيْرُهُ أَقْبَحَ مِنْهُ وَمِثْلَ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانَانِ وَقَفَا مِنَ ٱلْحَرْبِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ أَحَدَهُمَا ٱلسَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ ٱلثَّانِيَ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ . وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذَلِكَ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَشْهَدَ ٱلْحُرُوبَ كَثِيرًا وَٱلْآخَرُ لَمْ يَشْهَدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ ٱلْحَرْبَ وَكَذَلِكَ إِذَا وَجَدَ ٱلْكَنْزَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَهُ . قَدْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرٌ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ ٱلْكَنْزُ يَسِيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنْظُرُ ٱلْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ ٱلْجَدِّ . وَأَمَّا تَعْرِيفُ ٱلْفَضِيلَةِ فَأَوْلَى ٱلْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا . لِأَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِٱلْمَادِحِ وَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَادِحُ هُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُ بِٱسْتِقْصَاءٍ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْفَضَائِلَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبِلٌ وَحَاضِرٌ فَٱلْمَادِحُ إِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَٱلْمُشِيرُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا مُسْتَقْبِلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ



البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبدَأُ بِعَونَةِ ٱللهِ تَعَالَى فِي هٰذِهِ ٱلْمَقَالَةِ بِذِكْرِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْخَيْرِ وَٱلسَّعَادَةِ بَعْدَ اَنْ نَذْكُرَ اَلفَاظَ اَرِسْطَاطَالِيسَ اَقْتِدَاءً بِهِ وَتَوْفِيَةً لِحَقِّهِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْخَيْرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱسْتَحْسَنَهُ مِنْ آرَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ هُوَ ٱلْمَقْصُودُ مِنَ ٱلْكُلِّ وَهِيَ ٱلْغَايَةُ ٱلْاَخِيرَةُ وَقَدْ يُسَمَّى ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذِهِ ٱلْغَايَةِ خَيْرًا فَاَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ ٱلْخَيْرُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعَادَةُ اِذًا خَيْرٌ مَا. وَقَدْ تَكُونُ سَعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِ غَيْرَ سَعَادَةِ ٱلْفَرَسِ وَسَعَادَةُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تَمَامِهِ وَكَمَالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ. فَاَمَّا ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يَقْصِدُهُ ٱلْكُلُّ بِٱلشَّوْقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقْصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلْعَامُّ لِلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ فَهُمْ بِاَجْمَعِهِمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهَا. فَاَمَّا ٱلسَّعَادَةُ فَهِيَ خَيْرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ اِذًا بِٱلْإِضَافَةِ لَيْسَ لَهَا ذَاتٌ مُعَيَّنَةٌ وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى قَاصِدِيهَا. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ غَيْرَ مُخْتَلِفٍ فِيهِ وَقَدْ يُظَنُّ بِٱلسَّعَادَةِ اَنَّهَا تَكُونُ لِغَيْرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ فَاِنَّمَا هِيَ ٱسْتِعْدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمَامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا اِرَادَةٍ وَتِلْكَ ٱلْاِسْتِعْدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوْقُ اَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلشَّوْقِ

مِنَ ٱلنَّاطِقِينَ بِٱلْإِرَادَةِ . فَأَمَّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا أَوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِاسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلْإِنْسَانِ أَيْضًا . وَإِنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطَاقُ ٱلسَّعْيُ وَٱلْحَرَكَةُ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا أَوَّلٌ فِي ٱلْعَقْلِ . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلْاِخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِٱلْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ . وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلْأَخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضًا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا نَغْلَطَ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللّٰهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من الكتاب نفسه)

ٱلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ : ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

ممدوحةٌ ومنها ما هي بالقوّة كذلك وما هي نافعةٌ فيها . فالشريفة منها هي التي شرفها من ذاتها وتجعل من اقتناها شريفًا وهي الحكمة والعقل . والممدوحة منها مثل الفضائل والافعال الجميلة الارادية . والتي هي بالقوّة مثل التهيّؤ والاستعداد لنيل الاشياء التي تقدمت . والنافعة هي جميع الاشياء التي تطلب لا لذاتها بل ليتوصل بها الى الخيرات . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هي غاياتٌ ومنها ما هي ليست بغايات . والغايات منها ما هي تامّةٌ ومنها ما هي غير تامة . فالتي هي تامّةٌ كالسعادة وذلك انّا اذا وصلنا اليها لم نحتج ان نستزيد اليها شيئًا آخر . والتي هي غير تامة فكالصحة واليسار من قبل انّا اذا وصلنا اليها احتجنا ان نستزيد فنقتني اشياء أخر . وامّا التي ليست بغاية البتة فكالعلاج والتعلم والرياضة . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو مؤثرٌ لاجل ذاته ومنها ما هو مؤثرٌ لاجل غيره ومنها ما هو مؤثرٌ للامرين جميعًا ومنها ما هو خارجٌ عنهما . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو خيرٌ على الاطلاق ومنها ما هو خيرٌ عند الضرورة والاتفاقات التي تتفق لبعض الناس وفي وقتٍ دون وقتٍ وايضًا منها ما هو خيرٌ لجميع الناس ومن جميع الوجوه وفي جميع الاوقات ومنها ما ليس بخيرٍ لجميع الناس ولا من جميع الوجوه . (وعلى جهة اخرى) الخيرات منها ما هو في الجوهر ومنها ما هو في الكميّة ومنها ما هو في الكيفيّة وفي سائر المقولات فمنها كالقوى والملكات ومنها

كَالْأَحْوَالِ وَمِنْهَا كَالْأَفْعَالِ وَمِنْهَا كَالْغَايَاتِ وَمِنْهَا كَالْمَوَادِ وَمِنْهَا كَالْآلَاتِ. وَوُجُودُ ٱلْخَيْرَاتِ فِي ٱلْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ أَمَّا فِي ٱلْجَوْهَرِ أَعْنِي مَا لَيْسَ بِعَرَضٍ فَأَللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلْأَوَّلُ وَإِنَّ جَمِيعَ ٱلْأَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَهُ بِالشَّوْقِ إِلَيْهِ وَلِأَنَّ مَآلَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْإِلٰهِيَّةِ مِنَ ٱلْبَقَاءِ وَٱلسَّرْمَدِيَّةِ وَٱلتَّمَامِ مِنْهُ. وَأَمَّا فِي ٱلْكَمِّيَّةِ فَٱلْعَدَدُ ٱلْمُعْتَدِلُ وَٱلْمِقْدَارُ ٱلْمُعْتَدِلُ وَأَمَّا فِي ٱلْكَيْفِيَّةِ فَكَٱللَّذَّاتِ. وَأَمَّا فِي ٱلْإِضَافَةِ فَكَٱلصَّدَقَاتِ وَٱلرِّئَاسَاتِ. وَأَمَّا فِي ٱلْأَيْنِ وَٱلْمَتَى فَكَٱلْمَكَانِ ٱلْمُعْتَدِلِ وَٱلزَّمَانِ ٱلْأَنِيقِ ٱلْبَهِجِ. وَأَمَّا فِي ٱلْوَضْعِ فَكَٱلْقُعُودِ وَٱلِاضْطِجَاعِ وَٱلِاتِّكَاءِ ٱلْمُوَافِقِ. وَأَمَّا فِي ٱلْمِلْكِ فَكَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْمَنَافِعِ. وَأَمَّا فِي ٱلِانْفِعَالِ فَكَٱلسَّمَاعِ ٱلطَّيِّبِ وَسَائِرِ ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلْمُؤْثَرَةِ. وَأَمَّا فِي ٱلْفِعْلِ فَمِثْلُ نَفَاذِ ٱلْأَمْرِ وَرَوَاجِ ٱلْفِعْلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَعْقُولَاتٌ وَمِنْهَا مَحْسُوسَاتٌ

(وَأَمَّا ٱلسَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلْنَا إِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ ٱلْخَيْرَاتِ وَغَايَاتُهَا وَٱلتَّمَامُ هُوَ ٱلَّذِي إِذَا بَلَغْنَا إِلَيْهِ لَمْ نَحْتَجْ مَعَهُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَلِذٰلِكَ نَقُولُ إِنَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ أَفْضَلُ ٱلْخَيْرَاتِ وَلٰكِنَّا نَحْتَاجُ فِي هٰذَا ٱلتَّمَامِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ ٱلْقُصْوَى إِلَى سَعَادَاتٍ أُخَرَ وَهِيَ ٱلَّتِي فِي ٱلْبَدَنِ وَٱلَّتِي خَارِجَ ٱلْبَدَنِ. (وَأَرِسْطَاطَالِيسُ) يَقُولُ إِنَّهُ يَعْسُرُ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ ٱلْأَفْعَالَ ٱلشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثْلِ ٱتِّسَاعِ ٱلْيَدِ وَكَثْرَةِ ٱلْأَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ

(وَأَمَّا أَقْسَامُ) ٱلسَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا ٱلْحَكِيمِ فَهِيَ خَمْسَةُ

اقسام : (احدها) في صحة البدن ولطف الحواس ويكون ذلك من اعتدال المزاج اعني ان يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس . (والثاني) في الثروة والاعوان واشباههما حتى يتسع لان يضع المال في موضعه ويعمل به سائر الخيرات ويواسي منه اهل الخيرات خاصة والمستحقين عامة ويعمل به كل ما يزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه . (والثالث) ان تحسن احدوثته في الناس وينشر ذكره بين اهل الفضل فيكون ممدوحا بينهم يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الاحسان والمعروف . (والرابع) ان يكون منجحا في الامور وذلك اذا استتم كل ما روى فيه وعزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه . (والخامس) ان يكون جيد الرأي صحيح الفكر سليم الاعتقادات في دينه بريئا من الخطإ والزلل جيد المشورة في الآراء . فمن اجتمعت له هذه الاقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك . (واما الحكماء) قبل هذا الرجل مثل فيثاغورس وبقراط وافلاطون واشباههم فانهم اجمعوا على ان الفضائل والسعادة كلها في النفس وحدها ولذلك لما قسموا السعادة جعلوها كلها في قوى النفس التي ذكرناها في اول الكتاب (وهي الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة) . واجمعوا على ان هذه الفضائل هي كافية في السعادة ولا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَّلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا . وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ . وَأَمَّا ٱلرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذَلِكَ ٱضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجُ ٱلْبَدَنِ أَيْضًا أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ . وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يُحَقِّرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَحْصُلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهَذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ وَٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا . وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوْا ٱلْإِنْسَانَ ذَلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذَلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدَرِهَا

وَنَجَاسَاتِ ٱلْبَدَنِ وَضَرُورَاتِهِ وَحَاجَاتِ ٱلْإِنْسَانِ بِهِ وَٱفْتِقَارَاتِـهِ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ فَلَيْسَتْ سَعِيدَةً عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ. وَأَيْضًا لَمَّا رَأَوْهَا لَا تَكْمُلُ لِوُجُودِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّهَا لَا تَـنْتَزِعُ عَنْهَا بِظُلْمَةِ ٱلْهَيُولَى أَعْنِي قُصُورَهَا وَنُقْصَانَهَا ظَنُّوا أَنَّهَا إِذَا فَارَقَتْ هٰذِهِ ٱلْكُدُورَةَ فَارَقَتِ ٱلْجَهَالَاتِ وَصَفَتْ وَخَلَصَتْ وَقَبِلَتِ ٱلْإِضَاءَةَ وَٱلنُّورَ ٱلْإِلٰهِيَّ أَعْنِي ٱلْعَقْلَ ٱلتَّامَّ. وَيَجِبُ عَلَى رَأْيِ هٰؤُلَاءِ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَسْعَدُ ٱلسَّعَادَةَ ٱلتَّامَّةَ إِلَّا فِي ٱلْآخِرَةِ بَعْدَ مَوْتِهِ. وَأَمَّا ٱلْفِرْقَةُ ٱلْأُخْرَى فَإِنَّهَا قَالَتْ إِنَّـهُ مِنَ ٱلْقَبِيحِ ٱلشَّنِيعِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مَا دَامَ حَيًّا يَعْمَلُ ٱلْأَعْمَالَ ٱلصَّالِحَةَ وَيَعْتَقِدُ ٱلْآرَاءَ ٱلصَّحِيحَةَ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِ ٱلْفَضَائِلِ كُلِّهَا بِنَفْسِهِ أَوَّلًا ثُمَّ لِأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ثَانِيًا وَيَخْلُفُ رَبَّ ٱلْعِزَّةِ تَقَـدَّسَ ذِكْرُهُ فِي خَلْقِهِ بِهٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْمَرْضِيَّـةِ فَهُوَ شَقِيٌّ نَاقِصٌ حَتَّى إِذَا مَاتَ وَعَدِمَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَارَ سَعِيدًا تَامَّ ٱلسَّعَادَةِ وَأَرِسْطَاطَالِيسُ يَتَحَقَّقُ بِهٰذَا ٱلرَّأْيِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَٱلْإِنْسَانُ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ عِنْـدَهُ مِنْ بَدَنٍ وَنَفْسٍ وَلِذٰلِكَ حَدَّ ٱلْإِنْسَانَ بِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَائِتِ وَبِٱلنَّاطِقِ ٱلْمَاشِي بِرِجْلَيْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلْفِرْقَةُ وَهِيَ ٱلَّتِي رَئِيسُهَا أَرِسْطَاطَالِيسُ رَأَتْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْإِنْسَانِيَّةَ تَحْصُـلُ لِلْإِنْسَانِ إِذَا سَعَى لَهَا وَتَعِبَ بِهَا حَتَّى يَصِيرَ إِلَى أَقْصَاهَا. وَلَمَّا رَأَى ٱلْحَكِيمُ ذٰلِكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ مُخْتَلِفُونَ فِي هٰذِهِ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ وَأَنَّهَا قَدْ أَشْكَلَتْ عَلَيْهِمْ إِشْكَالًا شَدِيدًا ٱحْتَاجَ أَنْ يَتْعَبَ فِي ٱلْإِبَانَةِ عَنْهَا وَإِطَالَةِ ٱلْكَلَامِ فِيهَا. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَقِيرَ يَرَى أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلتَّمَكُّنِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ أَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ أَنْ نُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْمُرَهُ وَيَنْظِمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَأَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

أعلى وإن كانَ معقولا في المكانِ الاسفل. وينبغي ان يُعلم انّه ليس يُحتاج في صحة الارواح الطيبة المستغنية عن الابدان الى شيء من السعادات البدنيّة التي ذكرناها سوى سعادة النفس فقط اعني المعقولات الابديّة التي هي الحكمة فقط. فإذا ما دام الانسان انسانا فليس تتمّ له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وليس يحصلان على التمام الا بالاشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الابديّة. فالسعيد اذا من الناس يكون في احدى مرتبتين اما في مرتبة الاشياء الجسمانيّة متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور الشريفة باحثا عنها مشتاقا اليها متحركا نحوها مغتبطا بها. واما ان يكون في رتبة الاشياء الروحانيّة متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها وهو مع ذلك يطالع الامور البدنيّة معتبرا بها ناظرا في علامات القدرة الالهيّة ودلائل الحكمة البالغة مقتديا بها ناظما لها مفيضا للخيرات عليها سائقا لها نحو الافضل فالافضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها. واي امرىء لم يحصل في احدى هاتين المنزلتين فهو في رتبة الانعام بل هو اضلّ وانّما صار اضلّ لانّ تلك غير معرّضة لهذه الخيرات ولا أُعطيت استطاعة تتحرك بها نحو هذه المراتب العالية وانما تتحرك بقواها نحو كمالاتها الخاصة بها والانسان معرّض لها مندوب اليها مزاح العلّة فيها وهو مع ذلك غير محصل لها ولا ساعٍ نحوها وهو مع ذلك مؤثر لضدها يستعمل قواه الشريفة في

ٱلْأُمُورِ ٱلدَّنِيئَةِ وَتِلْكَ مُحَصِّلَةٌ لِكَمَالَاتِهَا ٱلَّتِي تَخُصُّهَا. فَإِذَا ٱلْأَنْعَامُ إِذَا مُنِعَتِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْإِنْسِيَّةَ حُرِمَتْ جِوَارَ ٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَدُخُولَ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ بِهَا ٱلْمُتَّقُونَ فَهِيَ مَعْـذُورَةٌ وَٱلْإِنْسَانُ غَيْرُ مَعْذُورٍ. وَمَثَلُ ٱلْأَوَّلِ مَثَلُ ٱلْأَعْمَى إِذَا جَارَ عَنِ ٱلطَّرِيقِ فَتَرَدَّى فِي بِئْرٍ فَهُوَ مَرْحُومٌ غَيْرُ مَلُومٍ وَمَثَلُ ٱلثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي ٱلْبِئْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلسَّعِيدِ لَا مَحَالَةَ فِي إِحْدَى ٱلْمَرْتَبَتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلْآخَرِ وَأَنَّ ٱلْأَنْقَصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْـلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ لِأَجْلِ خَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱلزَّخَارِفِ ٱلْحِسِّيَّـةِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعُوقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقِّي فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي وَتَشْغَلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْجُسْمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ غَيْرُ كَامِلٍ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٍّ. وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُخْرَى هُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلتَّامُّ وَهُوَ ٱلَّذِي تَوَفَّرَ حَظُّـهُ مِنَ ٱلْحِـكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ ٱلْحِـكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ بِٱلنُّورِ ٱلْإِلٰهِيِّ وَيَسْتَزِيدُ مِنْ فَضَائِلِهِ بِحَسَبِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَقِلَّةِ عَوَائِقِهِ عَنْهَا وَلِذٰلِكَ يَـكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ ٱلْآلَامِ وَٱلْحَسَرَاتِ ٱلَّتِي لَا يَخْلُو صَاحِبُ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْأُولَى مِنْهَا. وَيَـكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِـهِ مُغْتَبِطًا بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ فَيْضِ نُورِ ٱلْأَوَّلِ فَلَيْسَ يُسَرُّ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا يَغْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلْمَحَاسِنِ وَلَا يَهَشُّ إِلَّا لِإِظْهَـارِ تِلْكَ ٱلْحِـكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَـهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَاحَبَّ ٱلْاقْتِبَاسَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ إِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ إِلَى آخِرِ ٱلسَّعَادَاتِ وَاقْصَاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ ٱلْاحْبَابِ مِنْ اهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلنِّعَمِ فِيهَا وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعَادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلًّا عَلَيْهِ إِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلْانْحِلَالَ عَنْهُ إِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَى صُحْبَةِ اشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلْارْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا ارَادَهُ ٱللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ إِلَّا مَا قَرَّبَ إِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَنْخَدِعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ . إِلَّا انَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اعْنِي انَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْكَلَامَ إِلَيْهِمَا وَٱخْتَارَ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاخِيرَةَ مِنْهُمَا . .

(وَإِذْ قَدْ لَخَّصْنَا امْرَ هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا انَّ إِحْدَاهُمَا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَيْنَا اوْلَى وَٱلْاخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلْمُحَالِ انْ نَسْلُكَ إِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ انْ نَمُرَّ بِٱلْاولَى . . ثُمَّ اعْلَمْ انَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ اوْ تَعَمَّدَ لِإِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ . . .

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اَوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْمَرَاتِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يَعْتَقِدُ فِيهِ ٱلْإِنْسَانُ هٰذَا ٱلْإِعْتِقَادَ مَوْجُودٌ لَهُ فَقَدِ ٱكْتَفَى بِهِ وَنَالَ حَاجَتَهُ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ تَشَوُّقٌ إِلَى شَيْءٍ أَصْلًا. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ أَرْبَعَةُ أَجْنَاسِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لَهُ وَمَا يَلْزَمُ ٱلْفَاعِلَةَ وَذٰلِكَ أَنَّ لَازِمَ ٱلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلشَّيْءِ وَكَذٰلِكَ أَيْضًا لَازِمُ ٱلْمُفْسِدِ لِلشَّيْءِ يُعَدُّ مَعَ ٱلْمُفْسِدِ. وَلَازِمُ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ مَعَ ضِدِّ ٱلْفَاعِلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَنْهِي عَنْهَا وَلُزُومُ ٱلْغَايَةِ لِلْفَاعِلِ رُبَّمَا كَانَ مَعًا مِثْلَ مَا يَلْزَمُ ٱلْمَدْحَ ٱقْتِنَاءُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَمْدُوحَةِ وَرُبَّمَا كَانَ مُتَأَخِّرًا مِثْلَ ٱلْعِلْمِ ٱلَّذِي يَتْبَعُ ٱلتَّعَلُّمَ بِآخِرَةٍ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْفَاعِلَةُ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ إِمَّا بِٱلذَّاتِ وَإِمَّا بِٱلْعَرَضِ. وَٱلَّذِي بِٱلذَّاتِ ٱثْنَانِ إِمَّا قَرِيبٌ مِثْلُ فِعْلِ ٱلْغِذَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَإِمَّا بَعِيدٌ مِثْلُ ٱلطَّبِيبِ. وَٱلَّذِي بِٱلْعَرَضِ مِثْلُ فِعْلِ ٱلتَّعَبِ فِي ٱلرِّيَاضَةِ لِلصِّحَّةِ. وَإِذَا كَانَ وَاجِبًا أَنْ تَكُونَ أَصْنَافُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لِلْخَيْرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافَ ٱلثَّلَاثَةَ فَبِٱضْطِرَارٍ أَنْ تَكُونَ ٱلْأُمُورُ ٱلنَّافِعَةُ فِي ٱلْخَيْرِ بَعْضُهَا خَيْرٌ فِي ذَاتِهَا مِثْلُ نَفْعِ ٱلْغِذَاءِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَبَعْضُهَا شَرٌّ فِي ذَاتِهَا وَخَيْرٌ مَا بِحَسَبِ نَفْعِهَا فِي ٱلْخَيْرِ مِثْلُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ لِلصِّحَّةِ. وَٱلشُّرُورُ ٱلَّتِي تَنْفَعُ فِي ٱلْخَيْرِ هِيَ نَافِعَةٌ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدُهُمَا أَنْ يُسْتَفَادَ بِهَا خَيْرٌ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱللَّاحِقِ مِنِ ٱسْتِعْمَالِهَا مِثْلَ ٱسْتِفَادَةِ ٱلصِّحَّةِ عَنْ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِثْلُ ٱلْمَشَقَّةِ ٱلْيَسِيرَةِ فِي ٱسْتِفَادَةِ ٱلْمَالِ ٱلْكَثِيرِ. وَمِنْهَا مَا تُنَالُ بِهِ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يُنَالُ مِنْهَا مِثْلُ مَا يَنَالُ رُكَّابُ ٱلْبَحْرِ مِنَ ٱلسَّلَامَةِ إِذَا طَرَحُوا أَمْتِعَتَهُمْ فَإِنَّ

طارح أمتعتهم شرٌّ لكن تُستفادُ منه السلامةُ من شرٍّ هو أعظمُ وهو العطبُ. والخيراتُ التي تستفادُ من الخيراتِ يسمّيها ارسطو فوائدَ باطلاقٍ وأمّا تلك فيسمّيها انتقالا ويعني بذلك انها انتقالٌ من شرٍّ إلى ما هو أخفُّ شرًّا منهُ او انتقالٌ من شرٍّ إلى ما هو خيرٌ

(قال) والفضائلُ وإن كانت غاياتٍ فهي أيضًا خيراتٌ في أنفسها ونافعةٌ في الخيرِ فانَّ المقتنين لها هم بها حسنو الأحوالِ وهي مع هذا فاعلةٌ للخيرِ ومستعملةٌ فيه

(قال) وقد ينبغي أن نخبرَ عن كلِّ واحدٍ من هذه وكيفَ هي خيرٌ في نفسها وكيف هي فاعلةٌ للخيرِ ونفصلَ الأمرَ في ذلك. واللذاتُ أيضًا هي خيرٌ بنفسها لأنَّ جميعَ الحيوان يشتاقُ إليها. والأمورُ اللذيذةُ انما تكونُ خيرًا إذا كانَ بها المتلذُّ حسنَ الحالِ وقد يستبينُ من التصفحِ انها خيرٌ وانها قد تكونُ نافعةً في الخيرِ وأجزاء صلاحِ الحالِ. وبالجملةِ منها ما هي غاياتٌ فقط. ومنها ما قد تعدُّ غاياتٍ وهي نافعةٌ أيضًا في الغاياتِ. وذلك أنَّ لبعضها ترتيبًا عند بعضٍ أعني أنَّ بعضها علةٌ لوجودِ بعضٍ ومتقدمٌ عليه. ومثالُ ذلك أنَّ الشجاعةَ والحكمةَ والعفافَ وكبرَ النفسِ والنبلَ وما أشبهها من فضائلِ النفسِ قد تختارُ أشياءَ كثيرةً من أجزاءِ صلاحِ الحالِ من أجلها. وكذلك الصحةُ والجمالُ من فضائلِ الجسدِ قد تختارُ أشياءَ من أجلها هي من صلاحِ الحالِ وهي فاعلاتها وكذلك تختارُ

فاعلات أشياء أخر من صلاح الحال مثل فاعلات اللذة وفاعلات السيرة الحسنة . ولذلك ما يظن باليسار أنه خير إذ كان سببا لهذين الأمرين الشريفين أحدهما اللذة والآخر حسن السيرة وصلاح الحال بكثرة الإخوان قد يوجد فاعلا لأشياء كثيرة من الخيرات وذلك إذا كانت الصداقة التي بينهما من أجل المحبة نفسها لا أن تكون المحبة بينهما من أجل شيء آخر فإن الإخوان الذين بهذه الصفة هم يفعلون الكرامة والتمجيد وغير ذلك مما يجري مجراهما من الخيرات وذلك يكون منهم بالقول والفعل فإن الأقوال والأفعال التي تفعل بها الكرامة والتمجيد وغير ذلك مما يجري مجراهما هي خير ونافع

(قال) ومن النافعات بذاتها الملكات الطبيعية التي يكون الإنسان بها مستعدا لأشياء حسنة مثل الذكاء والحفظ والتعلم وخفة الحركات . وكذلك الكمالات مثل العلوم والصنائع وكذلك السير المحمودة وهذه كلها مع أنها نافعة في غيرها هي خير في نفسها وإن لم يتصل بها خير آخر فهي خيرات منفردة بأنفسها مختارة لذاتها والبرء أيضا خير نافع

(قال) فهذه هي الخيرات التي يعترف بها ويجتمع أنها خيرات ونافعات ومتى بين في شيء منها أنها خير فذلك بيان لا على طريق المراء والمغالطة المستعملة في هذه الصناعة . وأما إذا بين في شيء من أضداد هذه أنها خير وفيها أنها شر فذلك يكون في هذه

الصناعة على طريق المراء اعني ببيان سوفسطائي. وذلك ان الشر انما ينفع بالعرض مثل ان يبين خطيب لاهل مدينة ما ان الجبن لهم خير لانهم ان شجعوا خرجوا عن المدينة فنال منهم العدو ولكن الجبن ليس هو خيرا على الاطلاق وانما كان خيرا بالاضافة الى اهل المدينة الذين عرض لهم هذا. واما النافع في الاكثر وبالذات للانسان فهو الخير كما ان الشر المضاد للخير هو نافع للاعداء وذلك ان الجبن لما كان شرا لاهل المدينة بالعرض كان نافعا للاعداء. والشجاعة لما كانت بالذات خيرا لهم كانت ضارة بالاعداء الا انه قد يلحق ما هو شر ما للانسان ان يكون ضارا لعدوه وما هو خير ما له ان يكون نافعا لعدوه مثل الجبن لاهل المدينة الذين اذا خرجوا عن المدينة لم تكن لهم قوة يقاومون بها عدوهم. فينبغي للخطيب ان يتحرى في كل وقت النافع من هذه الاشياء وهذه القضية ايضا ليست كلية اعني القائلة ان كل ما يضر العدو ويكرهه نافع وكل ما ينفع العدو ويسره ضار فان كثيرا ما يكون الامر الواحد ضارا للانسان وعدوه ونافعا للانسان وعدوه. فمثال ما هو نافع لكليهما ويسر به كل واحد منهما مفارقة العدو عدوه اذا كانت بعد مقاتلة شديدة بينهما ومقاومة اشفى كل واحد منهما على العطب منها من غير ان يظفر احدهما بصاحبه فانهما اذا افترقا في اثر هذه الحال سر كل واحد منهما بالافتراق ولذلك قد يكون النافع

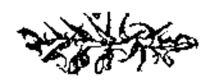
نافعًا للأعداء أيضًا . وأما ما هو ضارٌّ لكليهما فكثيرًا ما يوجب صداقة العدوّ . وذلك إذا كانا متساويين في نزول الشر الوارد بهما من غير أن يفضل أحدهما في ذلك صاحبه . وكثيرٌ من الأمم المختلفة كان اتفاقهم بهذا السبب ولذلك قيل إن الشر قد يجمع الناس فهذا أيضًا أحد ما يكون به الشرّ نافعًا أعني أن يكون الضرّ النازل بالإنسان نازلًا بعدوه . فإن ذلك يوجب صداقة العدوّ وحينئذ يهوى العدوّ الوارد ضد ما يهواه كلّ واحد من المتعاديين اللذين ورد عليهما العدوّ من خارج . وذلك أن كلّ واحد من المتعاديين يهوى صداقة صاحبه لمكان تعاونهما على العدوّ الوارد عليهما من خارج . والعدوّ الوارد يهوى بقاء عداوتهما على حالها أو تأكدها . وارسطو يقول : ولذلك كثيرًا ما تنفق النفقات العظيمة وتفعل الأفعال الكثيرة في مثل هذا الخير الذي يدفع به الشرّ العظيم وإنما تطيب النفس بالنفقات في مثل هذه الأشياء لظهور ما يلزم عنها من الغاية المطلوبة وقربها حتى كأنها إذا وجدت هذه الأشياء وجدت الغاية . وقد يكون الشر المفرط النازل بالعدوّ أيضًا سببًا للاعتراف بالخير اليسير الذي ناله من عدوه ولولاه لم يعترف به العدوّ . مثل ما حكى ارسطو أنه عرض لبعض الملوك الذين كانوا أعداء اليونانيين أنه اشتدت محاربتهم له وحصرهم إياه سنين كثيرة وقتلوا في ذلك الحصار ابنه فسألهم أن يعطوه جثته ليحرقها على عادتهم في موتاهم ففعلوا

ذلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلى ذلِكَ وَأَظْهَرَ شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ. فَلَوْلَا مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ الْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هذَا الشَّيْءِ الْيَسِيرِ الَّذِي سَمَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذلِكَ أُومِيرُوشُ الشَّاعِرُ

(قَالَ) وَمِنَ الْاِصْطِنَاعَاتِ النَّافِعَةِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ الْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ فَيَصِيرُ بِهِ الْمُصْطَنِعُ إِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ الْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ أَنْ يَخْتَارَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا عَظِيمَ الْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا مِنَ النَّاسِ لَهُ أَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ الْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ النَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذلِكَ الْإِنْسَانِ الشَّرَّ وَبِأَصْدِقَائِهِ الْخَيْرَ. مِثْلَ مَا عَرَضَ لِأُومِيرُوشَ مَعَ الْيُونَانِيِّينَ وَأَعْدَائِهِمْ فَإِنَّهُ قَصَدَ إِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ الْيُونَانِيِّينَ فِي الْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِالْمَدْحِ وَأَصْدِقَاءَهُ مِنَ الْيُونَانِيِّينَ. وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِالْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمَهُ الْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ بِذلِكَ عِنْدَ الْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ حَتَّى اعْتَقَدُوا فِيهِ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا إِلٰهِيًّا وَأَنَّهُ كَانَ الْمُعَلِّمَ الْأَوَّلَ لِجَمِيعِ الْيُونَانِيِّينَ. وَبِالْجُمْلَةِ فَفِعْلُ الشَّرِّ بِالْأَعْدَاءِ وَالْخَيْرِ بِالْأَصْدِقَاءِ مِنَ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ. وَمِنْ شَرْطِ هذَا الْفِعْلِ الَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ أَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ مِنْهُ يُرَى أَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ الْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ الْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ أَوْ يَسِيرًا وَأَنْ يُظَنَّ أَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِأَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ إِلَى ذلِكَ فَإِنَّ بِهذَا يَكُونُ الْفِعْلُ مُدَاوَمًا عَلَيْهِ مِنَ الْفَاعِلِ وَهُوَ السَّهْلُ عَلَيْهِ لِأَنَّ

الأفعال التي تكون من اجل خوف انما تكون غير شاقة زمانا يسيرا واذا طال بها الزمان كانت شاقة فانقطعت واذا انقطعت كان من ذلك عداوة من المصطنع اليه المصطنع. فلذلك يشترط في هذا الفعل ان يكون سهلا على الفاعل فهذه هي شروط الابتداء بالصنائع التي يعظم موقعها ويوجد نفعها. واما المكافاة التي لا يعظم موقعها فهي المكافاة التي لا تكون بحسب ما يهوى المكافئ بالطبع من اكثر الناس وهو ان تكون ناقصة عن الصنيعة التي اسديت اليه اما في الكمية واما في المنفعة واما لانها قد فضلت عند المكافئ وليس يحتاج اليها وهي المكافاة التي يغالط فيها وانما كان المكافئ بالطبع الذي يشتهي ان تكون مكافاته باحد هذه الثلاثة الاحوال لان المكافئ كانه مقصور على الاعطاء فهو انما يشتهي اما الا يلحقه نقص من الخير الذي وصل اليه واما ان يكون النقص اقل من الخير الذي وصل اليه. فاذا لم تكن المكافاة بهذه الصفة بل كانت مقارنة للصنيعة اما في الجنس مثل ان تكون المكافاة على الدنانير بدراهم واما في القوة مثل ان تكون المكافاة على المال بكرامة يقتنى بها مثل ذلك المال فهي المكافاة العادلة لكنها سوقية. فاذا لم تكن المكافاة لا سوقية ولا فيها غبن بل كان المكافئ يعتقد فيه انه ليس اختياره في المكافاة لما هو انقص اكثر من اختياره لما هو

أَزْيَدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَاتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ. أَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَاتَهُ بِالْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِٱخْتِيَارٍ لِذٰلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذٰلِكَ فَإِذَا ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ ٱلْأَصْدِقَاءَ أَعْنِي أَصْدِقَاءَ ٱلْمُكَافِئِ بِٱلْفِعْلِ وَيَسُوءُ أَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَعَجَّبًا مِنْهُ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَذٰلِكَ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظُمَ مَوْقِعُهُ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِئَ أَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ ٱلْكَرَامَةِ بِٱلْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ ٱلْمَالِ بِٱلْمَالِ وَمُحِبَّ ٱلْغَلَبَةِ بِٱلْغَلَبَةِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ ٱلَّذِي تُصْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ أَفْعَالُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِي، وَٱلْمُكَافِئِ، أَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِٱسْتِعْدَادِهِمِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَمِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تُنْقِصُ ٱلْمُصْطَنِعَ شَيْئًا ٱلِاصْطِنَاعُ بِٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْمَوْعِظَةِ



البحث التاسع

في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ يَأْخُذُ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُقْنِعُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ نَافِعٌ أَوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ أَجْلِ أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ أَحْيَانًا بِأَنَّ ٱلْأَمْرَ نَافِعٌ وَلٰكِنْ يَدَّعِي أَنَّ هَاهُنَا شَيْئًا هُوَ أَنْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ أَنْ يُبَيِّنَ بِهَا أَنَّ ٱلْأَمْرَ أَنْفَعُ وَأَفْضَلُ. فَمِنْهَا أَنَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ ٱلْأَشْيَاءِ فَهُوَ أَنْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ ٱلْأَشْيَاءِ. وَٱلَّذِي هُوَ أَدْوَمُ نَفْعًا هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَقْصَرُ نَفْعًا. وَٱلَّذِي هُوَ أَكْبَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلْأَصْغَرِ. وَٱلَّذِي هُوَ أَكْثَرُ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلْأَقَلِّ. وَٱلَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ أَكْثَرَ أَوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَصِفَاتُ ٱلْخَيْرِ ٱلتَّامِّ هُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ وَأَنْ يَكُونَ مُتَشَوَّقًا عِنْدَ ٱلْكُلِّ وَأَنْ يَكُونَ ذَوُو ٱلْفَضْلِ وَٱللُّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ كُلَّهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَهُوَ ٱلْخَيْرُ وَٱلنَّافِعُ ٱلَّذِي فِي ٱلْغَايَةِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ لِسَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوصَفُ بِٱلْخَيْرِ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُتَّصِفَةُ بِٱلْخَيْرِ ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِهٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي

جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُوجَدُ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ فَهُوَ أَنفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّفَةُ ٱلْوَاحِدَةُ أَنفَعَ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ ثَلَاثٍ. وَأَيْضًا فَمَا كَانَ ٱلْعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْعَظِيمُ ٱلْأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَمَا كَانَ ٱلْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ فَٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَظِيمِ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْأَوَّلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْإِنَاثِ فَٱلرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ فَٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْإِنَاثِ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْآخَرِ إِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ ٱلْعَظِيمِ إِلَى ٱلْعَظِيمِ. ثُمَّ إِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ لَازِمًا لِشَيْءٍ مَا وَٱلْآخَرُ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ فَإِنَّ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ آثَرُ مِنَ ٱلَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلثَّرْوَةُ فَإِنَّ ٱلثَّرْوَةَ تَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّرْوَةَ. فَلِذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْمَضَارِّ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلْبُخْلُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ ٱلْفَقْرُ. فَٱلْفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ ٱلْبُخْلِ وَٱللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا أَنْ يُوجَدَا مَعًا أَعْنِي ٱللَّازِمَ وَٱلْمَلْزُومَ مِثْلُ وُجُودِ ٱلْأَبْيَضِ وَٱلْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ ٱلإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ ٱللَّازِمُ تَابِعًا بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي ٱلْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَعْنِي أَلَّا يَفْعَلَ ٱلآخَرُ فِعْلَ ٱلأَوَّلِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ٱلإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ فِعْلُ ٱلفَقْرِ فَإِنَّ ٱلفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبُخْلُ وَأَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلأَنْفَعَ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلنَّافِعِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجَلَدُ وَٱلْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَٱلْجَلَدُ يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِأَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجَمَالِ فَٱلصِّحَّةُ أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجَمَالِ. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالٌ وَٱلآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا وَٱلْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ إِذَا ٱقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً إِلَى اَصْدِقَائِهِ اَوْ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ فَهُوَ اَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ اَكْثَرَ حَاجَةً . فَانَّ مَنْ هُوَ اَكْثَرُ كِفَايَةً وَاسْتِغْنَاءً عَنِ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى اَشْيَاءَ قَلِيلَةِ ٱلْعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا . وَاَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ اَحَدُهُمَا يُحْوِجُ اقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلثَّانِي وَٱلثَّانِي لَا يُحْوِجُ اقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَا يُحْوِجُ اقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ هُوَ آثَرُ . مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْيَسَارُ وَٱلْبُنُونَ فَإِنَّ ٱلْبَنِينَ يُحْوِجُونَ إِلَى اقْتِنَاءِ ٱلْمَالِ وَٱلْيَسَارُ لَيْسَ يُحْوِجُ إِلَى اقْتِنَاءِ ٱلْبَنِينَ فَٱلْيَسَارُ اَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ اَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ اَنْ يَكُونَ اَعْظَمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْإِرَادَةَ مَبْدَأُ ٱلْخَيْرِ وَفِعْلُ ٱلْخَيْرِ اَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ . وَكَذٰلِكَ ٱلتَّعَلُّمُ وَٱلْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ . وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ ٱلْمَبْدَأَيْنِ اَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي يَكُونُ عَنِ ٱلْمَبْدَإِ ٱلْأَعْظَمِ اَعْظَمُ . وَعَكْسُ هٰذَا اَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى اَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَاَحَدُهُمَا اَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ اَعْظَمُ . وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى اَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ ٱلْمَبْدَأُ ٱلْفَاعِلُ إِلَى ٱلْغَايَةِ اَمْكَنَ اَنْ يُتَوَهَّمَ اَنَّ ٱلْفَاعِلَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلْغَايَةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْفَاعِلَ هُوَ ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ ٱلْغَايَةُ وَاَمْكَنَ اَنْ يُتَوَهَّمَ اَيْضًا اَنَّ ٱلْغَايَةَ اَعْظَمُ مِنَ ٱلْمَبْدَإِ . وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَوْلَا ٱلْغَايَةُ لَكَانَ ٱلْفَاعِلُ فَضْلًا . فَمِثَالُ مَا تَجْعَلُ ٱلْغَايَةَ فِيهِ اَعْظَمَ مِنَ ٱلْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي ٱلذَّمِّ : إِنَّ

فُلَانًا أَوْلَى بِأَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْجَوْرِ فِي فِعْلِهِ كَذَا مِنْ فُلَانٍ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ إِذْ لَوْ لَمْ يَفْعَلْ هُوَ ذَلِكَ الْفِعْلَ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ الضَّرَرُ. وَمِثَالُ مَا يَجْعَلُ الْفَاعِلُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنَ الْغَايَةِ قَوْلُ الْقَائِلِ: فُلَانٌ أَحَقُّ بِالشُّكْرِ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ مِنْ فُلَانٍ لِأَنَّ فُلَانًا هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ الْفِعْلِ وَلَوْلَا إِشَارَتُهُ لَمْ يَكُنْ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ الْفِعْلَ الْمَحْمُودَ وَفِي كِلَا الْمَوْضُوعَيْنِ مَا قَبْلَ الْغَايَةِ إِنَّمَا يُفْعَلُ لِمَكَانِ الْغَايَةِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الَّذِي وُجُودُهُ أَقَلُّ فَهُوَ أَفْضَلُ مِثْلُ الذَّهَبِ وَالْحَدِيدِ غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ الذَّهَبُ أَقَلَّ وُجُودًا مِنَ الْحَدِيدِ فَلَيْسَ هُوَ أَنْفَعَ. وَأَيْضًا مُقَابِلُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ مَا كَثُرَ وُجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ مِمَّا قَلَّ وُجُودُهُ لِكَثْرَةِ مَنَافِعِهِ وَمِنْ هُنَا يُقَالُ إِنَّ الْمَاءَ خَيْرٌ لِكَثْرَةِ وُجُودِهِ وَعُمُومِ مَنَافِعِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ مَا هُوَ أَعْسَرُ وُجُودًا فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّ مَا عَسُرَ وُجُودُهُ قَلَّ وُجُودُهُ وَمَا قَلَّ وُجُودُهُ فَهُوَ غَرِيبٌ وَيُتَنَافَسُ فِيهِ. وَمُقَابِلُ هَذَا وَهُوَ أَنَّ مَا سَهُلَ وُجُودُهُ فَهُوَ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ يُوجَدُ فِي كُلِّ حِينٍ يُتَشَوَّقُ إِلَيْهِ. وَأَيْضًا الشَّيْءُ الَّذِي ضِدُّهُ أَعْظَمُ فَهُوَ أَفْضَلُ. وَأَيْضًا الَّذِي عَدَمُهُ أَشَدُّ ضَرَرًا فَهُوَ أَنْفَعُ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ هَا هُنَا مِنَ الْأَعْظَمِ وَالْأَقَلِّ عِظَمُ الْمُقَايَسَةِ فِي الْخَيْرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي الشَّرِّ وَفِيمَا هُوَ لَا خَيْرٌ وَلَا شَرٌّ. وَأَيْضًا فَإِنَّ الْغَايَاتِ وَالْأَشْيَاءَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا تُفْعَلُ الْأَفْعَالُ إِذَا كَانَتِ الْغَايَاتُ بَعْضُهَا أَزْيَدَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ أَوْ أَزْيَدَ شَرًّا مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُتَقَدِّمَةَ لِتِلْكَ الْغَايَاتِ الْأَزْيَدِ هِيَ

ازيد. وايضاً فانّ ما كان من الملكات والفضائل وبالجملة الاشياء الفاعلة اعظم فانّ افعالها الصادرة عنها تكون اعظم لانّ نسبة الافعال الى مبادئها هي نسبة المبادئ بعضها الى بعض. فانّه ان كان البصر آثر من الشمّ فانّ الابصار آثر من الشمّ وهكذا يوجد الامر في جميع الافعال مع اسبابها الفاعلة ليس في الذاتيّة فقط بل وفيما يعرض عن الشيء بالاتفاق فانّ العظيم يكون الاتفاق الذي يعرض له عظيماً وفي الاعراض الموجودة في الشيء اعني انّ الشيء الاعظم العرض الموجود فيه اعظم. وايضاً ان يحبّ الانسان صاحب المال افضل من ان يحبّ المال لانّ حبّ الانسان افضل من حبّ المال. وايضاً فانّ الفضائل افضل من ذوي الفضائل والاشياء التي شهوتها فاضلة افضل من التي شهوتها غير فاضلة. مثال ذلك انّ شهوة العلوم فاضلة وشهوة الاكل والشرب غير فاضلة فالعلوم افضل من الاكل والشرب. وايضاً عكس هذا وهو انّ ما هو افضل فشهوته افضل مثل انّ الحكمة افضل من الصحّة فشهوتها افضل من شهوة الصحّة. وايضاً فانّ العلوم التي هي احسن وافضل فافعالها خير وافضل. مثال ذلك انّه لما كانت العلوم العلمية افضل من العملية كان فعلها الذي هو الصدق افضل من التي فعلها العمل. وعكس هذا وهو انّ التي فعلها افضل من العلوم فهي افضل وذلك انّ الوقوف على الحقّ لما كان افضل من العمل كانت

ٱلصَّنائِعُ ٱلعِلمِيَّةُ افضَلَ مِنَ ٱلعَمَلِيَّةِ وإنَّمَا كَانَا هٰذَانِ ٱلمَوضِعَانِ مُتَلازِمَيْنِ لِأَنَّ نِسبَةَ ٱلصِّناعَةِ إِلَى ٱلصِّناعَةِ هِيَ نِسبَةُ فِعلِهَا إِلَى فِعلِهَا

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحْكُمُ بِهِ ٱلكُلُّ مِنَ ٱلجُمْهُورِ اوِ ٱلأَكْثَرُ اَوْ ذَوُو ٱلأَلبَابِ وَٱلأَخيَارُ ٱلصَّالِحُونَ انَّهُ خَيْرٌ وَافضَلُ فَهُوَ افضَلُ بِإِطْلَاقٍ وَفِي نَفسِهِ إِذَا كَانَ حُكْمُهُمْ فِي ٱلأَشيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا استَفَادُوهُ مِنَ ٱلآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَإِنَّ ذَوِي ٱلأَلبَابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلفَضَائِلِ وَٱلخَيرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِندَ ايِّ شَيْءٍ هِيَ وَإِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلعُلُومِ. وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلخَيرِ مِنْ انَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ إِنَّمَا يُرَادُ بِذٰلِكَ ٱلخَيرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ اعنِي ٱللَّبِيبَةَ فَإِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلفِطَرُ ٱللَّبِيبَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَبِيبَةٌ هُوَ خَيرٌ مُطلَقٌ اوْ خَيرٌ افضَلُ مِنْ خَيرٍ مِثْلُ عِلمِهِمْ انَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلأَدَبَ وَٱلجَلَدَ خَيرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ إِيَّاهَا. وَامَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيرٌ بِٱلإِضَافَةِ إِلَى إِنسَانٍ مَا مِثْلُ مَنْ يَرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلفَاضِلِينَ انَّهُ انْ يُجَارَ عَلَيهِ افضَلُ مِنْ انْ يَجُورَ هُوَ فَإِنَّ هٰذَا ٱلخَيرَ لَا يُدرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَإِنَّمَا يَرَى هٰذَا ٱلرَّأْيَ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلعَدلِ وَٱلفَضلِ. وَايضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلخَيرَاتِ مَعَهُ اكثَرَ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلكُلَّ مِنَ ٱلجُمْهُورِ يَبتَدِرُونَ إِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ اجلِ ٱللَّذَّةِ نَفسِهَا لَا مِنْ اجلِ شَيْءٍ آخرَ غَيرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَعْنِي مُتَشَوَّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْاَزْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ اَبْرَأُ مِنَ ٱلْاَذَى وَٱلْحُزْنِ وَاَدْوَمُ بَقَاءً. وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ اَلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِاَنَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ اَنْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ اِمَّا لِنَفْسِهِ وَاِمَّا لِصَدِيقِهِ. وَبِالْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمَلَذَّةِ اَفْضَلَ فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا اَطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ اَلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا اَقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ اَثْبَتَ فِينَا فَهُوَ اَلَذُّ مِمَّا هُوَ اَقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ اَرْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا اَلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ . وَٱلْاَشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ اَوِ ٱلْاَكْثَرُ لَذَّةً اِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَحَدُ اَمْرَيْنِ اِمَّا طُولُ اعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ . وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ اَنَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْاَشْيَاءُ اِذَنْ اِنَّمَا تَصِيرُ اَكْثَرَ لَذَّةً اِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ . وَجَمِيعُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةً اَكْثَرَ فَاِنَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا اِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدِّمَاتُ ٱلْاَنْفَعِ وَٱلْاَفْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ . وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ آثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا اخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ آثَرُ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

ٱلْجُمْهُورِ وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱيضا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ آثَرُ مِمَّا يَخْتَارُهُ ٱلْقَلِيلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ٱلْخَيْرَ كَمَا قِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ إِلَيْهِ ٱلْكُلُّ . وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱيضًا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأُوَلُ أَعْنِي ٱلَّذِينَ لَا يَأْخُذُونَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَهُمُ ٱلشُّرَّاعُ ٱفْضَلُ مِمَّا لَمْ يَخْتَارُوهُ . وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱيضًا ٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنْ هٰؤُلَاءِ ٱفْضَلُ مِمَّا لَيْسَ يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ . وَٱلَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ ٱلْأَحْكَامَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ وَهُمُ ٱلَّذِينَ تُؤْخَذُ عَنْهُمْ ٱصُولُ ٱلْأَحْكَامِ صِنْفَانِ إِمَّا سَامِعٌ فَقَطْ مُبَلِّغٌ وَإِمَّا سَامِعٌ عَالِمٌ اي قَادِرٌ عَلَى ان يَسْتَنْبِطَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأُصُولِ ٱحْكَامًا مَا لَمْ يُصَرِّحْ بِهَا ٱلْحُكَّامُ ٱلْأُوَلُ . وَهٰؤُلَاءِ صِنْفَانِ إِمَّا مُسَلَّطُونَ مِنْ قِبَلِ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ وَهُمُ ٱلْقُضَاةُ وَمَا ٱشْبَهَهُمْ وَإِمَّا غَيْرُ مُسَلَّطِينَ وَهُمُ ٱلْفُقَهَاءُ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ مَا لِجَمِيعِ ٱصْنَافِ ٱلْمُتَلَقِّينَ مِنَ ٱلْحُكَّامِ ٱلْأُوَلِ ان يَقُولُوا فِيهَا . وَهُوَ مَا سَمِعُوهُ اوْ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ ٱلْحَاكِمِ ٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا مَا يَخْتَصُّ بِذَوِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُسْتَنْبَطُ عَنِ ٱلْأَحْكَامِ ٱلْأُوَلِ ٱلَّتِي صَرَّحَ بِهَا ٱلْحَاكِمُ ٱلْأَوَّلُ وَلَيْسَ لِلسَّامِعِينَ دُونَ عِلْمٍ ان يَقُولُوا فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ . وَامَّا ٱلَّذِي يَخُصُّ ٱلْحُكَّامَ ٱلْأُوَلَ ٱلْقَوْلُ فِيهِ فَهِيَ ٱلْأُصُولُ ٱلَّتِي تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبَادِئِ لِسَائِرِ مَا يَحْكُمُ بِهِ ٱلسَّامِعُونَ ذَوُو ٱلْعِلْمِ أَعْنِي ٱلْمُسَلَّطِينَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَهِيَ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا ارِسْطُو ٱلْأُمُورَ ٱلْعُظْمَى . وَٱلْفُضَلَاءُ ٱلْأَبْرَارُ ٱلَّذِينَ جَرَتِ ٱلْعَادَةُ ان يَأْخُذَ عَنْهُمُ ٱلْجَمِيعُ اوِ ٱلْأَكْثَرُ فَحُكْمُهُمْ ٱفْضَلُ فَإِنَّ عَدَمَ ٱلْأَخْذِ قَدْ يُخَيِّلُ هَوَانًا وَنَقْصًا فِي ٱلْمَرْءِ ٱلْفَاضِلِ ٱلْبَرِّ

وقلّة قبول لقوله وقد يُخيَّل الأمر بعكس هذا . وذلك انّه ربّما كان هؤلاء الأبرار الفاضلون مقبولي القول مع انّه لم يأخذ احدٌ من الجمهور عنهم اصلاً شيئًا او انّما اخذ عنهم قليلٌ . وذلك انّ اقاويل هؤلاء قد يُظنّ بها انّها مقبولةٌ بجهةٍ اخرى وذلك انّه قد يكون المرضيُّ عند الجمهور من ليس مرضيًّا في نفسه والاقلّ من الجمهور وهم ذوو التمييز . وايضًا فانّ الفاضلين الّذين كتموا فضائلهم عن الجمهور هم ممدوحون اكثر وهم اقلّ وجودًا واعزّ لانّهم انّما كتموا فضائلهم عن الجمهور لمّا خافوا ان يلحقهم من الكرامات والرئاسات الّتي يُخاف اذا لحقت المرء ان تكون سببًا لان تكون هذه الاشياء اللاحقة للفضائل هي المقصودة عنده بالفضائل . فمن ها هنا صارت اقوال هذا الصنف مقبولةً كما صارت اقوال الصنف الاوّل المضادّ لهذا مقبولةً وهم الّذين اخذ عنهم الجمهور

(قال) ومن الصنف المقبول القول من النّاس جدًّا جدًّا الصنف الّذين كراماتهم اعظم لانّ الكرامة لمّا كانت مكافاةً الفضيلة كان المرء كلّما عظمت كرامته ظُنّ به انّه قد عظمت فضيلته . والصنف من النّاس الّذين نالتهم المضرّة العظيمة والشقاء الكبير لمكان الفضائل هم ايضًا مقبولو الاقوال جدًّا جدًّا بمنزلة سقراط وغيره والصنف من النّاس الّذين يُرى فيه هذان الصنفان من النّاس اعني الّذين كرامتهم اعظم والّذين نالهم الضرر

ٱلكَبِيرُ مِنْ قِبَلِ ٱلفَضَائِلِ أَنَّهُمْ فَاضِلُونَ وَيَعْتَرِفُونَ لَهُمْ بِٱلفَضْلِ هُمْ أَيْضًا أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ . فَهٰؤُلَاءِ هُمْ أَصْنَافُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱخْتَارُوا شَيْئًا وَٱخْتَارَ غَيْرُهُمْ سِوَاهُ كَانَ مَا يَخْتَارُهُ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلَ وَآثَرَ

(قَالَ) وَقِسْمَةُ ٱلشَّيْءِ إِلَى جُزْئِيَّاتِهِ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَلِذٰلِكَ لَمَّا أَرَادَ أُومِيرُوسُ ٱلشَّاعِرُ أَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّرَّ ٱلَّذِي لَحِقَ ٱلْمَدِينَةَ أَخَذَ بَدَلَهُ جُزْئِيَّاتِهِ فَذَكَرَ قَتْلَ ٱلأَوْلَادِ وَٱلنَّوْحَ عَلَيْهِمْ وَحَرْقَ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلنَّارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِ ٱلشُّرُورِ ٱللَّاحِقَةِ لَهَا

(قَالَ) وَكَذٰلِكَ ٱلتَّرْكِيبُ قَدْ يُخَيِّلُ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَهُوَ عَكْسُ . هٰذَا أَعْنِي أَنْ يُؤْخَذَ بَدَلَ ٱلْجُزْئِيَّاتِ ٱلْكُلِّيُّ ٱلَّذِي يَعُمُّهَا وَٱلسَّبَبُ فِي ٱلإِقْنَاعِ فِي هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ هُوَ ٱلتَّغْيِيرُ وَٱلإِبْدَالُ

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَتِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلأَعْسَرُ وُجُودًا فِي نَفْسِهَا وَٱلأَقَلُّ وُجُودًا يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا أَفْضَلُ كَانَتِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ ٱلْوُجُودِ فِي نَفْسِهَا وَٱلسَّهْلَةُ ٱلْوُجُودِ قَدْ تُرَى عَظِيمَةً إِذَا وُجِدَتْ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا وُجُودُهَا أَوْ فِي ٱلأَزْمِنَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا أَيْضًا أَوْ فِي ٱلأَسْنَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّتِي يَقِلُّ وُجُودُهَا فِيهَا مِثْلُ وُجُودِ ٱلإِنْسَانِ خَطِيبًا فِي سِنِّ ٱلصِّبَا أَوْ فِي ٱلْمُدَدِ ٱلَّتِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوجَدَ فِيهِ . مِثْلُ مَنْ يَفْعَلُ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ طَوِيلٍ فِي زَمَانٍ قَصِيرٍ أَوْ تَكُونَ صَادِرَةً عَنِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي يَقِلُّ صُدُورُهَا عَنْهَا مِثْلَ أَنْ يَفْعَلَ ٱلضَّعِيفُ فِعْلَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمَرِيضُ فِعْلَ

ٱلصَّحِيحِ . وَكُلُّ هٰذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ أَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا أَضَرُّ . وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَأَيْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ . وَأَيْضًا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قُبِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةً تَامَّةً . وَأَرِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَنَّهَا ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ أَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ .

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ آثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْاِنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدِ ٱسْتَفَادَ ٱلْخَيْرَ مِنْهُ ٱلْقَابِلُ لَهُ • وَأَيْضًا مَا أُوثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ آثَرُ مِمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُعْلَمُ كَٱلْحَالِ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ • فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ مُؤْثَرَةٌ بِذَاتِهَا وَٱلْجَمَالَ مُؤْثَرٌ لِلْغَيْرِ • وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَٱلنَّافِعَةِ فِي طُولِ ٱلْعُمْرِ وَفِي حُسْنِ ٱلْعَيْشِ أَعْنِي ٱلْعَيْشَ ٱلرَّغَدَ وَفِي ٱللَّذَّاتِ وَفِي ٱصْطِنَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ • وَلِذَلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ أَنَّهُمَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهُمَا يَجْمَعَانِ ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْحُزْنِ وَٱلْفِعْلَ بِلَذَّةٍ أَعْنِي أَنَّ ٱلصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ ٱلْفِعْلِ بِلَذَّةٍ وَٱلْيَسَارَ سَبَبُ ٱلْخُلُوِّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ • وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ عَلَى ٱلِٱنْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ وَٱلْأَفْعَالَ ٱللَّذِيذَةَ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا لِأَمْرِئٍ جَعَلَاهُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَوَاءٌ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ جَهِلَهُ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هٰذِهِ خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِٱلْحَقِيقَةِ لَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ • وَلِكَوْنِ ٱلْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلْأَحْزَانِ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ ٱلسَّعَادَةُ قَوْمٌ وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذَلِكَ وَاجِبٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ أَحْرَى أَنْ تَكُونَ ٱلسَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةَ ٱلزَّوَالِ • فَإِنَّهُ لَيْسَ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَفَقَدَ إِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَفَقَدَهَا لِأَنَّ ٱلَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ أَحَبَّ مِمَّا سُلِبَ مَنْ لَهُ عَيْنَانِ • وَكَذَلِكَ إِنْ كَانَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ لَمْ يَكُنِ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ ٱلْمَالِ كَٱلضَّرَرِ ٱللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ إِنْ كَانَ هُوَ ٱلسَّعَادَةَ وَحْدَهُ

(قَالَ) وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَا هُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّصْحِيحِ وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ فِيهَا بِٱلْقَدْرِ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا مَتَى أَتَى بِٱلنَّتَائِجِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِٱلْمِثَالَاتِ ٱلْمَأْخُوذَةِ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فَعَلُوا تِلْكَ ٱلْأَفَاعِيلَ فَلَحِقَهُمُ ٱلنَّفْعُ أَوِ ٱلضَّرَرُ فَلِذٰلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقَصَصِ وَٱلْأَخْبَارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يُثْبَتُ بِهَا أَنَّ ٱلشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا ٱلْإِذْنُ وَٱلْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هٰذَا بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لٰكِنْ أَهَمُّ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى جُودَةِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلسُّنَنِ وَٱلْإِشَارَةِ بِٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي لَا يُوجَدُ أَنْفَعَ مِنْهَا. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ ٱلْقَوْلَ فِيهَا هَا هُنَا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْإِشَارَةَ بِٱلسُّنَنِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْإِقْنَاعَ ٱلتَّامَّ فِيهَا يَتَأَتَّى بِمَعْرِفَةِ أَصْنَافِ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تَخُصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ سُنَنًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلَّتِي بِهَا

يَكُونُ خَلَاصُ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ وَقِوَامُهَا. وَٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ ٱلْخَطِيرَةُ هِيَ ٱلسُّنَنُ ٱلْعَادِلَةُ أَعْنِي ٱلْمَوْضُوعَةَ فِي ٱلْعَدْلِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا ٱلرَّئِيسُ ٱلْأَوَّلُ فِي تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ أَوِ ٱلْمُسَلَّطُ عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ ٱلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ. وَهٰذِهِ ٱلسُّنَنُ ٱلنَّفِيسَةُ أَعْنِي ٱلسُّنَنَ ٱلْعَادِلَةَ تَخْتَلِفُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ غَايَتِهَا. وَعَدَدُهَا عَلَى عَدَدِ ٱلسِّيَاسَاتِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَدْلَ فِي سِيَاسَةِ ٱلتَّغَلُّبِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ إِذَا لَطَمَ ٱلْمَرْؤُوسَ. وَفِي سِيَاسَةِ ٱلْحُرِّيَّةِ ٱلْعَدْلُ فِي ذٰلِكَ أَنْ يُلْطَمَ ٱلرَّئِيسُ مِثْلَ ٱللَّطْمَةِ ٱلَّتِي لَطَمَهَا. وَٱلسِّيَاسَاتُ بِٱلْجُمْلَةِ أَرْبَعٌ ٱلسِّيَاسَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ وَسِيَاسَةُ ٱلْخِسَّةِ وَسِيَاسَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ وَسِيَاسَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ وَهِيَ ٱلْكَرَامِيَّةُ. وَهٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتُ كُلُّهَا ٱلْمَقْصُودُ بِٱلسُّنَنِ ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْمَدِينَةُ وَٱلْكُلُّ لَا ٱلشَّخْصُ. فَأَمَّا ٱلْمَدِينَةُ ٱلْجَمَاعِيَّةُ فَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ ٱلرِّئَاسَةُ فِيهَا بِٱلِٱتِّفَاقِ وَٱلْبَخْتِ لَا عَنِ ٱسْتِئْهَالٍ إِذْ كَانَ لَيْسَ فِي هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ فَضْلٌ. وَأَمَّا خِسَّةُ ٱلرِّئَاسَةِ فَهِيَ ٱلَّتِي يَتَسَلَّطُ فِيهَا ٱلْمُتَسَلِّطُونَ عَلَى ٱلْمَدَنِيِّينَ بِأَدَاءِ ٱلْإِتَاوَةِ وَٱلتَّغْرِيمِ لَا عَلَى جِهَةِ أَنْ تَكُونَ نَفَقَةٌ لِلْحُمَاةِ وَٱلْحَفَظَةِ وَلَا عُدَّةٌ لِلْمَدِينَةِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْأُخَرِ بَلْ عَلَى جِهَةِ أَنْ تَحْصُلَ ٱلثَّرْوَةُ لِلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ. فَإِنْ جَعَلَ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلثَّرْوَةِ. وَإِنْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ حَظًّا مِنَ ٱلثَّرْوَةِ كَانَتْ رِئَاسَةَ ٱلتَّغَلُّبِ وَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ ٱلْعَبِيدِ لِلرَّئِيسِ ٱلْأَوَّلِ. وَكَانَتْ مُحَامَاتُهُ عَنْهُمْ بِمَنْزِلَةِ مُحَامَاةِ ٱلْإِنْسَانِ عَنْ عَبِيدِهِ. وَأَمَّا جُودَةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ . وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ . وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ أَهْلَ فَضَائِلَ وَٱقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ . وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلِٱسْمِ . وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمَلِكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ . وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخْيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ . وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يُحِبُّ ٱلْمَلِكُ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَأَلَّا يَنْقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخْيَارِ . وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ . وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

اَلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا الْغَايَةَ عَلِمْنَا الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ الْغَايَةِ فَغَايَةُ السِّيَاسَةِ الْجَمَاعِيَّةِ الْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ الرِّئَاسَةِ الثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ التَّسَلُّطِ الْفَضِيلَةُ وَالتَّمَسُّكُ بِالسُّنَّةِ . وَغَايَةُ الْوَحْدَانِيَّةِ الْكَرَامَةُ وَالسِّيَاسَاتُ الَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ التَّحَفُّظُ وَالِاحْتِرَاسُ مِنَ الْخَلَلِ الْوَاقِعِ فِي السُّنَنِ بِتَبَدُّلِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ السِّيَاسَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَالْحَالِ فِي السِّيَاسَةِ الْمَوْجُودَةِ الْآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ السِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ الْأَخْلَاقَ وَالسُّنَنَ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ السِّيَاسَاتِ أَعْنِي النَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَقِدَ فِي أَنْفُسِنَا التَّخَلُّقَ بِتِلْكَ الْأَخْلَاقِ وَالتَّمَسُّكَ بِالصِّنْفِ مِنَ السُّنَنِ الَّتِي نَرُومُ الْإِقْنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ الْأَقَاوِيلُ الَّتِي نَحُثُّ بِهَا عَلَى السُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ الْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ الْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا . الْخُلُقُ الَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي الْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَى السُّنَنِ

اَلنَّافِعَةِ فِي اَلْغَايَةِ لِأَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَنْبَطُ عَلَى جِهَةِ اَلتَّحْلِيلِ مِنَ اَلنَّظَرِ إِلَى اَلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا اَلْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوجَدُ اَلْمُقْنِعَاتُ فِي اَلنَّافِعِ مِنَ اَلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنْحَاءُ اَلسِّيَاسَاتِ وَالسُّنَنِ اَلَّتِي تُحْتَذَى فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ اَلْكَافِي فِي هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا اَلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ اَلْأَشْيَاءِ عَلَى اَلتَّحْقِيقِ فَفِي اَلْأَقَاوِيلِ اَلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي . وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي اَلْفَضِيلَةِ وَالنَّقِيصَةِ وَالْجَمِيلِ وَالْقَبِيحِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ اَلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ . وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ اَلْأَشْيَاءَ أَنْ نَعْرِفَ اَلْأُمُورَ اَلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ اَلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ اَلطَّرِيقَ اَلثَّانِيَ مِنَ اَلطُّرُقِ اَلثَّلَاثَةِ اَلَّتِي يَقَعُ بِهَا اَلْإِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ اَلْمَدْحِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ بِالْأَشْيَاءِ اَلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسِهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ اَلْأَشْيَاءِ اَلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا اَلْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِالْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلرَّاجِعَةُ إِلَى ٱلِٱخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَعْرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمْدَحَ ٱلنَّاسُ وَٱلرُّوحَانِيُّونَ بِٱلْفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيْرِ ٱلْفَضِيلَةِ وَلَيْسَ يَعْرِضُ هٰذَا فِي مَدْحِ هٰؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدْحِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ. أَعْنِي أَنَّهَا تُمْدَحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةٍ عَنِ ٱلْفَضِيلَةِ. فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ هَا هُنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهَا ٱلْمُقَدِّمَاتُ فِي ٱلْمَدْحِ بِٱلْفَضَائِلِ وَبِغَيْرِ ٱلْفَضَائِلِ لِيَكُونَ ٱلْقَوْلُ فِي ذٰلِكَ عَامًّا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْجَمِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَهُوَ مَمْدُوحٌ وَخَيْرٌ وَلَذِيذٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ خَيْرٌ. وَإِذَا كَانَ ٱلْجَمِيلُ هُوَ هٰذَا فَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لَا مَحَالَةَ لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ مَمْدُوحَةٌ. وَٱلْفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَةٌ مُقَدِّرَةٌ لِكُلِّ فِعْلٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةِ ذٰلِكَ ٱلتَّقْدِيرِ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَعْنِي ٱلْحَافِظَةَ لِهٰذَا ٱلتَّقْدِيرِ وَٱلْفَاعِلَةَ لَهُ. وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعْلٍ يُقْصَدُ بِهِ نَحْوَ غَايَةٍ مَا جَلِيلِ ٱلْقَدْرِ عَظِيمِ ٱلشَّأْنِ فِي حُصُولِ تِلْكَ ٱلْغَايَةِ عَنْهُ. فَأَمَّا أَجْزَاءُ ٱلْفَضِيلَةِ فَٱلْبِرُّ أَيِ ٱلْعَدْلُ ٱلْعَامُّ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْمُرُوءَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَكِبَرُ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْحِلْمُ وَٱلسَّخَاءُ وَٱللُّبُّ وَٱلْحِكْمَةُ. وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ مِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ ٱلْفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُفْعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ وَهٰذِهِ ٱلَّتِي تُفْعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعْظَمَ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْهَا عِنْدَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ دُونَ حَالٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ ٱلشَّجَاعَةِ آثَرُ فِي وَقْتِ ٱلْحَرْبِ مِنْهَا فِي وَقْتِ ٱلسِّلْمِ. وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْعَدْلِ فَمُؤْثَرَةٌ فِي ٱلسِّلْمِ وَٱلْحَرْبِ

جَمِيعًا. وَفَضِيلَةُ ٱلسَّخَاءِ وَٱلْمُرُوءَةِ عِنْدَ ٱلْمَحَاوِيجِ آثَرُ مِنْهَا عِنْدَ غَيْرِ ٱلْمَحَاوِيجِ. وَإِنَّمَا تَنْفَصِلُ فَضِيلَةُ ٱلْمُرُوءَةِ مِنَ ٱلسَّخَاءِ بِٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ فِعْلَ كِلْتَيْهِمَا هُوَ فِي ٱلْمَالِ لٰكِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ ٱلسَّخَاءِ. فَأَمَّا ٱلْبِرُّ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي ٱلْفَاضِلُ بِهَا لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذٰلِكَ بِقَدْرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ. وَٱلْجَوْرُ هُوَ ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي يَأْخُذُ بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي ٱلسُّنَّةِ. وَأَمَّا ٱلشَّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ ٱلْمَرْءُ بِهَا فَعَّالًا لِلْأَفْعَالِ ٱلصَّالِحَةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِفِعْلِهِ ذٰلِكَ خَادِمًا لِلسُّنَّةِ. وَأَمَّا ٱلْجُبْنُ فَضِدُّ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلْعِفَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا ٱلْمَرْءُ فِي شَهَوَاتِ ٱلْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ. وَٱلْفُجُورُ ضِدُّ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلسَّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ ٱلْجَمِيلَ ٱلْمَشْهُورَ فِي ٱلْمَالِ. وَٱلدَّنَاءَةُ ضِدُّ هٰذَا. وَأَمَّا كِبَرُ ٱلْهِمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْعَظِيمَةِ وَصِغَرُ ٱلنَّفْسِ. وَٱلنَّذَالَةُ ضِدُّهَا. وَأَمَّا ٱللُّبُّ فَفَضِيلَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ حُسْنُ ٱلْمَشُورَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ مَعَ وُجُودِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْخُلُقِيَّةِ لَهُ ٱلَّتِي هِيَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ. فَهٰذَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدْرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا مِمَّا عَدَا ٱلْفَضِيلَةَ فَلَيْسَ يَعْسُرُ ٱلْوُقُوفُ عَلَيْهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَاعِلَاتِ ٱلْفَضَائِلِ مِثْلَ ٱلتَّأَدُّبِ وَٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا تَحْصُلُ ٱلْفَضَائِلُ هِيَ أُمُورٌ حِسَانٌ وَمَمْدُوحٌ بِهَا. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنْفُسِهَا أَعْنِي ٱلْأَعْرَاضَ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِيهَا. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةً

لِلفَضَائِلِ فَهِيَ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا ٱلآنَ وَهِيَ عَلَامَاتُ ٱلفَضَائِلِ وَأَعرَاضُهَا ٱللَّاحِقَةُ لَهَا. وَأَفعَالُهَا إِنَّمَا يُمدَحُ بِهَا إِذَا كَانَت حَسَنَةً مَحمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِن أَفعَالِ ٱلفَضَائِلِ قَد لَا يُمدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلأَعرَاضِ. فَمِثَالُ ٱلأَفعَالِ وَٱلأَعرَاضِ ٱلَّتِي هِيَ مَحمُودَةٌ أَفعَالُ ٱلشُّجعَانِ فِي ٱلحَربِ أَو مَن فَعَلَ فِي ٱلحَربِ فِعلَهُم وَإِن لَم تَكُن لَهُم مَلَكَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَكَذٰلِكَ ٱلأَعرَاضُ ٱلَّتِي تَلحَقُ ٱلشُّجعَانَ مِمَّا يُمدَحُ بِهَا. وَمِثَالُ ٱلأَفعَالِ ٱلَّتِي لَا يُمدَحُ بِهَا فِي وَقتٍ مَا بَذلُ ٱلمَالِ فَإِنَّهُ فِعلٌ مِن أَفعَالِ ٱلسَّخَاءِ لٰكِن رُبَّمَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلفِعلُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبذِيرِ. وَمِثَالُ ٱلأَعرَاضِ ٱلَّتِي لَا يُمدَحُ بِهَا ٱنفِعَالُ ٱلمَرءِ عَنِ ٱلعَدلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذٰلِكَ أَنَّ فِعلَ ٱلعَدلِ مَمدُوحٌ وَأَمَّا ٱلِانفِعَالُ عَنهُ فَلَيسَ بِمَمدُوحٍ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَيمٌ. وَبِٱلجُملَةِ فَأَفعَالُ ٱلفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَمدُوحَةً إِذَا كَانَت مُقَدَّرَةً تَقدِيرَ ٱلعَدلِ وَمِمَّا يُمدَحُ بِهَا ٱلأَفعَالُ ٱلعَظِيمَةُ ٱلشَّاقَّةُ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلكَرَامَةُ فَقَط. فَإِنَّ ٱلأَفعَالَ ٱلَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا ٱلكَرَامَةَ خَيرٌ مِنَ ٱلأَفعَالِ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلمَالُ. وَلِذٰلِكَ إِذَا كَانَ فِعلٌ يُجَازَى عَلَيهِ بِٱلأَمرَينِ جَمِيعًا فَفَعَلَهُ فَاعِلٌ مِن أَجلِ ٱلكَرَامَةِ فَقَط مُدِحَ بِهِ وَكُلُّ مَا يَفعَلُهُ ٱلمَرءُ مِنَ ٱلفَضَائِلِ لَا مِن أَجلِ نَفسِهِ مُدِحَ بِهِ. وَفِعلُ ٱلأَشيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ خَيرَاتٌ بِإِطلَاقٍ كَذٰلِكَ مِمَّا يُمدَحُ بِهِ. وَٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي فِي طَبِيعَتِهَا خَيرَاتٌ وَإِن كَانَت ضَارَّةً لِلفَاعِلِ يُمدَحُ بِهَا أَيضًا. مِثلُ فِعلِ ٱلعَدلِ فَإِنَّ ٱلعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَستَضِرُّ بِهِ.

وَالأفعالُ التي تَختصُّ بإكرامِ الأمواتِ ممدوحةٌ لأنَّ الأفعالَ التي تكونُ للأحياءِ إنَّما يَقصِدُ منها المرءُ أكثرَ ذلكَ منفعةَ نفسِهِ . وبالجملةِ فكلُّ فعلٍ كانَ المقصودُ بِهِ الغيرَ ولَم يكنْ ينتفعُ بِهِ الفاعلُ لَهُ أو كانَ يلحقُهُ مِنهُ ضررٌ فهوَ ممدوحٌ بِهِ . والفعلُ الذي يكونُ إلى المحسنينَ إلى الناسِ ممدوحٌ بِهِ أيضًا لأنَّ هذا هوَ عدلٌ إذ كانَ ليسَ ينتفعُ بِهِ الفاعلُ لَهُ . وممَّا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ ذو فضيلةٍ أنْ لا يفعلَ الأفعالَ التي يفتضحُ بها أهلُ الفواحشِ وأنْ يؤذيَهم بالقولِ والفعلِ . وكذلكَ نُصرةُ ذوي الفضائلِ ومحمدتُهم ممَّا يُمدحُ بِهِ . والخجلُ عندَ ذكرِ القبائحِ ممَّا قد يدلُّ على الفضيلةِ لأنَّهُ يُظنُّ بِهِ أنَّ الحياءَ يمنعُهُ عن إتيانِ تلكَ الرذيلةِ . وقد يكونُ أيضًا عدمُ الحياءِ عندَ ذكرِ الفواحشِ علامةً يُمدحُ بها . وذلكَ أنَّهُ قد يُظنُّ أنَّ الإنسانَ إنَّما يَستحيي عندَ ذكرِ القبائحِ إذا كانَ قد فعلَها أو نالَها أو هوَ مُزمِعٌ أنْ يفعلَها . مثلُ ما حكى أرسطو أنَّهُ عرضَ لامرأةٍ مشهورةٍ بالحكمةِ عندَهم وذلكَ أنَّ إنسانًا مشهورًا عرَّضَ لها بالقبيحِ بأنْ قالَ لها : إنِّي أُريدُ أنْ أقولَ قولًا يَمنعُني عنهُ الحياءُ فحلُمَتْ عنهُ ولم تُجِبْهُ بقولٍ قبيحٍ ولم يُدرِكْها مِن ذلكَ تألُّمٌ ولا انفعالٌ لأنَّها كانتْ ترى لمكانِ فضيلتِها أنَّ أحدًا لا يُعرِّضُ لها لا بمثالٍ ولا بقولٍ كلِّيٍّ (وهما صِنفا التعريضِ) . لكنَّها في تلكَ الحالِ جعلتْ تمدحُ الفضائلَ وتمدحُ أهلَها وتتعصَّبُ لهم وتحامي عنهم . وكانَ أيضًا مَن معَها لم يأنفوا

أيضاً لقول ذلك ولا لتعريضه لعلمهم أن مثلها لا يتهم بمثل هذا

(قال) ولذلك كان التعصب للأشياء التي تكتسب المجد والمحاماة عنها قد تجمل المتعصب لها والمحامي عنها من أهل الفضائل التي لا تحصل للإنسان إلا بمجاهدة كبيرة للطبيعة مثل العفاف والشجاعة وغيرهما. وذلك إذا صارت له ملكة بترداد فعلها والتعصب لها والمحاماة عنها كما عرض لهذه المرأة التي اقتصصنا ذكرها مع ذلك الرجل. وذلك أن أمثال هذه الأفعال قد يصير بها الإنسان من أهل الفضائل التي لا تحصل للإنسان إلا بمجاهدة كبيرة

(قال) والإنعام على الغير إذا لم يستفد المنعم منه شيئاً هو مما يمدح به ولذلك ما كان العدل والبر يمدح بهما الإنسان من جهة أنهما نافعان كما يمدح بهما من جهة ما هما جميلان. والانتقام أيضاً من الأعداء وألا يرضى عنهم في حال مما يمدح به. فإن الانتقام منهم هو جزاء والجزاء عدل والعدل جميل. ومحبة الغلبة أيضاً ومحبة الكرامة مما يمدح بهما لأنهما علامتان تدلان على إيثار الفضائل لا لمكان اكتساب مال بهما. أما محبة الغلبة فتدل على إيثار الشجاعة. وأما محبة الكرامة فعلى إيثار جميع الفضائل ولذلك كانت الفضائل الأثيرة المختارة هي التي ليس يقصد بها مقتنيها إلى اكتساب مال. لأن ذلك يدل على شرف

الفضيلة ومن الافعال التي يُمدح بها التي شأنها ان يبقى ذكرها محفوظا ابدا عند الناس. ومن الاشياء التي يُمدح بها الهيئات المحمودة عند قوم التي يجعلونها علامة لذوي الشرف مثل توفير الشعور عند اليونانيين فانه يدل على الشرف اذ كان ليس كل احد يسهل عليه توفير شعره لان الموفوري الشعور لا يعملون عمل من ليس بموفور الشعر ولا يمتهنون باي مهنة اتفقت. والازياء التي كانت تتخذ عندنا هي من هذا النوع الذي ذكره ارسطو

(قال) ومن الشرف الا يحتاج الانسان الى آخرين بل يكون مكتفيا بنفسه

(قال) وقد ينبغي ان تأخذ في المدح والذم والامور القريبة من الفضائل والنقائص وهي النقائص التي قد توجد عنها افعال الفضيلة او الفضائل التي قد توجد عنها افعال النقائص. فيمدح بالنقائص التي توجد عنها افعال الفضيلة بان يوهم انها فضائل من اجل ان تلك الافعال هي من افعال الفضائل. وكذلك يوهم في الفضائل انها نقائص من اجل انه عرض ان وجد عنها افعال النقائص. فمثال النقائص التي توجد عنها افعال الفضائل فتوهم انها فضائل العي الذي قد يكون عنه افعال الحليم فيوهم به انه حليم. والبله الذي قد توجد عنه افعال ذوي السمت فيوهم بذلك انه ذو سمت. وكذلك العديم الحس قد يوهم فيه انه عفيف اذ كان قد يوجد له فعل العفيف بالعرض. وكذلك

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنَ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيَنْخَدِعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُنْخَدِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يُظَنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمُ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمِّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثَرٍ ٱبْتَدَأَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثَرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حَصَلَ لَهُ مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ فَإِنَّمَا يُمدَحُ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مِنْ خَارِجٍ بِآبَائِهِ فَقَطْ . وَكَأَنَّهُ يَرَى هَا هُنَا أَنَّ ٱلْمَدْحَ بِمَنَاقِبِ ٱلْآبَاءِ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ دُونَ أَنْ يُمدَحَ بِفَضِيلَةِ ذَاتِهِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

لَسْنَا وَإِنْ كَرُمَتْ أَوَائِلُنَا   يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا   تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وَإِنَّهُ قَدْ يُقْتَصَرُ بِٱلْمَدْحِ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ دُونَ ذِكْرِ ٱلْآبَاءِ كَمَا قَالَ :

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا

(قَالَ) وَإِنَّمَا يَكُونُ ٱلْمَدْحُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ فَإِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ وَٱلِٱخْتِيَارِ هُوَ ٱلْفِعْلُ ٱلْفَاضِلُ . وَٱلَّذِي يُمدَحُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِٱتِّفَاقِ أَوْ بِٱلْعَرَضِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ لَهَا إِذَا ٱقْتَرَنَتْ بِٱلْفَضَائِلِ تَزْيِينًا لَهَا وَتَفْخِيمًا بِمَنْزِلَةِ ٱلْحَسَبِ ٱلْمُقْتَرِنِ إِلَى ٱلْفَضِيلَةِ وَجُودَةِ ٱلْبَخْتِ ٱلْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ . وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱتِّفَاقٍ وَٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَقْتَرِنُ بِٱلْعَرَضِ مَعَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْمَشِيئَةِ مَتَى تَكَرَّرَتْ مِرَارًا كَثِيرَةً عَلَى صِفَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَوْهَمَتْ أَنَّهَا بِٱلذَّاتِ . وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ لَهَا ذٰلِكَ ظُنَّ بِهَا أَنَّهَا عَلَامَةٌ لِلْفَضِيلَةِ مِثْلَ أَنْ يَخْجَلَ ٱلْإِنْسَانُ مِرَارًا كَثِيرَةً بِٱلِٱتِّفَاقِ فِي مَوَاضِعَ يُمدَحُ ٱلْخَجَلُ فِيهَا . وَإِنَّمَا دَخَلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ ٱلْمَدِيحَ هُوَ قَوْلٌ يَصِفُ عِظَمَ ٱلْفَضِيلَةِ وَهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ مِمَّا تَعْظُمُ بِهَا ٱلْفَضِيلَةُ . وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي ٱلْمَدِيحِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ

على انها حدثت عن الروية . والاشياء التي بالاتفاق منها اشياء ليس الانسان سببها لا بالذات ولا بالعرض مثل الحسب والمنشإ الفاضل ومنها اشياء تعرض عن الافعال التي تكون عن الروية . فاما الاتفاقات الجيدة التي تعرض عن الافعال فتؤخذ علامة على الفضائل . واما الاتفاقات المتقدمة على الانسان فتؤخذ في تقرير الفضيلة وتثبيتها مثل ما يقال في المدح : ان الخيار يولد في الخيار . وفي الذم : ان الحية تلد الحية . والافعال بالجملة هي التي عليها يحمد الفاعل . واما آثار الافعال فهي دلائل على الفعل وانما نمدح بها اذا اثبتنا منها الفعل

(قال) وجودة البخت التي قيل فيما تقدم انها السعادة على ما يراه الجمهور هي وسائر الاشياء الاتفاقية التي نمدح بها واحدة في الجنس وليست هي والفضائل واحدة بالجنس بل كما ان صلاح الحال جنس للفضيلة اعني محيطا بها كذلك ما يحدث بالاتفاق جنس يحيط بالسعادة . وهذان الجنسان اعني الفضائل وما بالاتفاق يدخلان جميعا في باب المدح وفي باب المشورة لكن من جهتين مختلفتين . وانما كان الامر كذلك لانا اذا عرفنا الاشياء التي يجب ان تفعل فقد عرفنا الاشياء التي اذا فعلت مدح بها الانسان . ولذلك اذا ذكرت هذه الاشياء ذكرا مطلقا امكن ان تدخل في المشورة وفي المدح وذلك بزيادة الجهة التي بها تدخل في المشورة او الجهة التي بها تدخل في المدح . وذلك مثل ما يقول القائل

إِنَّــهُ لَيسَ يَنْبَغِي أَنْ يُوجِبَ ٱلعِظَمُ وَٱلفَضْلُ لِلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلإِنْسَانِ بِٱلعَرَضِ بَلْ لِلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوِيَّتِــهِ وَٱخْتِيَارِهِ . فَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا . فَلِذٰلِكَ لَيسَ يَنْبَغِي أَنْ يُمْــدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ بِٱلبَخْتِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوِيَّةٍ وَٱخْتِيَارٍ كَفُلَانٍ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ ٱلمَدْحِ . وَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُطْلَبَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلِاتِّفَاقِ بَلِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ دَخَلَ فِي ٱلمَشُورَةِ . وَٱلأَشْيَاءُ ٱلِاتِّفَاقِيَّةُ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلمَدِيحِ تَارَةً وَفِي ٱلذَّمِّ أُخْرَى . فَإِنَّ ظُنُونَ ٱلنَّاسِ فِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَإِنَّ قَوْمًا يَرَوْنَ أَنَّ ٱلخَــيْرَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِاتِّفَاقِ لَيسَ يَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ بِهَا إِذْ كَانَتْ شَيْئًا غَيرَ مُحَصَّلٍ وَلَا مُكْتَسَبٍ لِلإِنْسَانِ . وَقَوْمٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُمْدَحَ بِهَــا وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةِ إِلٰهِيَّةٍ بِٱلَّذِي تَعْرِضُ لَــهُ وَأَمَّا ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي عَنِ ٱلِاخْتِيَارِ فَٱلمَمْدُوحُ مِنْهَا يُمْدَحُ بِهِ أَبَدًا وَٱلمَذْمُومُ مِنْهَا يُذَمُّ بِهِ أَبَدًا

(قَالَ) وَيَنْبَغِي أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي ٱلمَدْحِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا تَعْظِيمُ ٱلشَّيْءِ وَتَنْمِيَتُهُ وَهُوَ أَنْ يُخَيَّلَ فِي ٱلشَّيْءِ أَنَّهُ بِٱلقُوَّةِ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ . وَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هٰذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ . أَوْ إِنَّهُ وَحْدَهُ فَعَلَ هٰذَا . أَوْ إِنَّهُ فَعَــلَ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفْعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعْــلًا كَثِيرًا . فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ ٱلفِعْلِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ أَنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَعْسُرُ فِعْــلُهُ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنْسَانًا

إِنسانًا. ثُمَّ إِنَّهُ إِنْ كانَ ٱلفاعِلُ مِمَّنْ يُقتَدَى بِهِ فِي أَفعالِهِ وَأَقوالِهِ مِرارًا كَثِيرَةً فَإِنَّ فِعلَهُ عَظِيمٌ كَما قِيلَ: إِنَّكُمْ أَيُّها ٱلرَّهطُ أَئِمَّةٌ يُقتَدَى بِكُمْ. وَٱلأَفعالُ ٱلَّتِي يُقتَدَى بِها لَيسَتْ هِيَ ٱلأَفعالَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِاتِّفاقِ بَلِ ٱلأَفعالُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلمَشِيئَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ. وَهٰذِهِ ٱلأَشياءُ قَدْ يُمكِنُ أَنْ تَدخُلَ فِي ٱلمَشُورَةِ أَعنِي ٱلأَشياءَ ٱلَّتِي تُعظِمُ ٱلشَّيءَ مِثلُ أَنْ يُشارَ عَلَى ٱلمَرءِ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِٱلمَمدُوحِ ٱلأَوَّلِ فِي ذٰلِكَ ٱلجِنسِ أَوْ يَتَشَبَّهَ بِهِ فِي ٱلمَدحِ أَوْ يُشارَ عَلَيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُملَةِ ٱلمَمدُوحِينَ ٱلَّذِينَ لا يُنازِعُ أَحَدٌ فِي حَمدِهِمْ. مِثلُ ٱلَّذِينَ يُمدَحُونَ فِي ٱلأَسواقِ أَوْ يُتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي ٱلمَدحِ. وَمِمَّا يُعظِمُ ٱلمَمدُوحِينَ أَنْ يُقاسُوا بِٱلَّذِينَ يَفعَلُونَ أَضدادَ أَفعالِهِمْ وَذٰلِكَ عِندَ ذِكرِ أَفعالِهِمِ ٱلفاضِلَةِ

(قالَ) وَٱلَّذِينَ شَأنُهُمْ أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلمَمدُوحِينَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلغايَةِ وَيُقايِسُوا أَنفُسَهُمْ مَعَهُمْ دائِمًا فَقَدْ يَنبَغِي أَنْ يُشَبَّهُوا بِأُولائِكَ وَأَنْ يُجرَوا مَجراهُمْ فِي ٱلمَدحِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا وَصَلُوا مَراتِبَهُمْ. فَإِنَّ فَضائِلَهُمْ فِي نُمُوٍّ دائِمٍ. وَمُقايَسَةُ ٱلإِنسانِ نَفسَهُ مَعَ غَيرِهِ لا تَصِحُّ إِلَّا مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلفاضِلِ لِمَوضِعِ حُبِّ ٱلإِنسانِ لِنَفسِهِ فَهُوَ يَرَى نَقائِصَهُ أَقَلَّ مِنْ نَقائِصِ غَيرِهِ وَإِنْ كانَتْ أَعظَمَ. وَيَرَى فَضائِلَهُ أَكثَرَ وَإِنْ كانَتْ أَصغَرَ وَلِذٰلِكَ لَيسَ كُلُّ أَحَدٍ يَستَطِيعُ ٱلمُقايَسَةَ وَإِنَّما يَستَطِيعُها ٱلفُضَلاءُ مِنَ ٱلنّاسِ مِثلُ ما حَكَى أَرِسطُو عَنْ سُقراطَ أَنَّهُ كانَ يُقايِسُ بَينَهُ وَبَينَ غَيرِهِ وَيُجرِي ٱلأَحكامَ

عَلَى أَخْلَاقِ نَفْسِهِ. بِمَعْنَى أَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ فَضِيلَةً أَثَابَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا وَإِنْ وَجَدَ فِيهِ رَذِيلَةً عَاقَبَ نَفْسَهُ عَلَيْهَا. وَٱلْمُقَايَسَةُ ٱلنَّافِعَةُ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَزَيَّدَ فِي ٱلْفَضَائِلِ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْمَمْدُوحِينَ جِدًّا. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَمْثَالَ هٰؤُلَاءِ مَمْدُوحُونَ أَعْنِي ٱلَّذِينَ فَضَائِلُهُمْ فِي نُمُوٍّ دَائِمٍ أَنَّ ٱلَّذِينَ أَجْهَدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي أَنْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ ٱلْفَاضِلِينَ فَعَجَزُوا عَنْ ذٰلِكَ فَهُمْ مَمْدُوحُونَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ تَعْظِيمَ ٱلشَّيْءِ دَاخِلٌ فِي ٱلْمَدْحِ. فَإِنَّ ٱلتَّعْظِيمَ لِلشَّيْءِ تَشْرِيفٌ لَهُ وَٱلتَّشْرِيفُ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا. وَيَنْبَغِي إِذَا أُرِيدَ ٱلتَّعْظِيمُ بِٱلتَّشْبِيهِ أَنْ يُشَبَّهَ بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ فَإِنَّ فِي هٰذَا ٱلْفِعْلِ تَشْرِيفًا لِلْمَمْدُوحِ وَدَلَالَةً لِلْجُمْهُورِ عَلَى فَضِيلَتِهِ. وَجُمْلَةُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَجْنَاسِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلثَّلَاثَةِ أَنَّ ٱلتَّعْظِيمَ وَإِنْ كَانَ مُشْتَرَكًا لِأَجْنَاسِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ ٱلثَّلَاثَةِ فَهُوَ أَخَصُّ بِٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ. لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُمْدَحُ ٱلْإِنْسَانُ أَوْ يُذَمُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلْمُعْتَرَفِ بِوُجُودِهَا. وَتَعْظِيمُ ٱلشَّيْءِ أَخَصُّ بِٱلْمَوْجُودِ مِنْهُ بِٱلْمَعْدُومِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ أَنْ يَصِفَ جَلَالَةَ ٱلشَّيْءِ وَبَهَاءَهُ وَزِينَتَهُ. وَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْعَلَامَاتِ وَٱلْمِثَالَاتِ فَهُوَ أَخَصُّ بِٱلْمَشُورَةِ لِأَنَّ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْمُتَصَرِّمَةِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ يُحْدَسُ عَلَى ٱلَّتِي سَتَكُونُ وَإِعْطَاءُ ٱلسَّبَبِ وَٱلْعِلَّةِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ سَلَفَتْ نَحْنُ لَهُ أَكْثَرُ قَبُولًا وَتَعْظِيمًا لِٱنْقِضَائِهِ وَتَصَرُّمِهِ. وَأَمَّا مَعْرِفَةُ ٱلْعَدْلِ وَٱلْجَوْرِ فَهُوَ خَاصٌّ بِٱلْمُشَاجَرِيَّةِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَجَمِيعُ ٱلْمَدْحِ

وَٱلذَّمِّ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ وَٱلْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَٱلذَّامِّ أَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ ٱلْمَدْحُ أَوِ ٱلذَّمُّ أَعْنِي أَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ ٱلْأَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ ٱلْأَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا ٱلْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ وَهِيَ ٱلَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَأَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنْ حُدُودِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ أَضْدَادِهَا إِذْ كَانَ ٱلضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

إِنَّ ٱلتَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ ٱللهِ وَٱلتَّبَرُّؤُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا أُعْطِيَ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَمُنِحَ مِنَ ٱلثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ ٱلْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَإِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ ٱلْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَعَمَّهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ ٱلتَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

الكلام فيه فانه مترتب على ما قدمنا من نسبة النصر الى واهبه والجلد الى معطيه والثبات الى الموفق له ثم كلما اتسع مجال الكلام في ذكر الموافقة ووصفها كان احسن وادل على البلاغة وادعى لسرور الممدوح واحسن لموقع النعمة عنده واشهى الى سمعه واشفى لغليل شوقه الى معرفة الحال على جليتها ولا بأس بتهويل امر العدو ووصف جمعه واقدامه فان في تصغير امره تحقير الظفر به

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

الاحسن منها بسط الكلام وتعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب ويجب ان يراعى فيها امور منها براعة الاستهلال بذكر الرتبة او الحال وقدر النعمة او لقب صاحب التقليد او اسمه لا يكون المطلع اجنبيا من هذه الاحوال ولا بعيدا منها ولا مباينا لها ثم يستصحب ما يناسب الغرض ويوافق القصد من اول الخطبة الى آخرها ويحسن ان يكون الكلام منقسما في التقليد على اربعة اقسام متقاربة المقادير فالربع الاول الخطبة والثاني ذكر موقع الانعام في حق المقلد وذكر الرتبة وتفخيم امرها

وَٱلثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ ٱلْعَدْلِ وَٱلرَّأْيِ وَحُسْنِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلْأَمْوَالِ وَعِمَارَةِ ٱلْبِلَادِ وَصَلَاحِ ٱلْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى ٱلْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي أَيْضًا مِقْدَارَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ ٱلْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ ٱلْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِٱلْمَعْزُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ ٱلصُّدُورَ وَيُورِثُ ٱلضَّغَائِنَ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَدِلُّ عَلَى ضَعْفِ ٱلْآرَاءِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ يَصِفَ ٱلثَّانِيَ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا أَنْ يَتَخَيَّرَ ٱلْكَلَامَ وَٱلْمَعَانِي فَإِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ ٱلْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَٱلْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ وَٱلْأَمْرُ ٱلْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ ٱلْكَاتِبُ إِلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ



البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البداهة والعقد الفريد)

قِيلَ إِنَّ ٱلِارْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلِانْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرٌ رَجِلٌ إِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَبِضٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا أُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ أَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا: لَهِنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَكَمَا أَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ أَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلِارْتِجَالِ وَٱلْبَدِيهَةِ وَإِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ:

ٱلِارْتِجَالُ هُوَ أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي أَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَأَسْرَعَ مِنِ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ. وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا أَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجُوزُ عَنْهُمُ ٱلْعُدُولُ بِٱلشَّهَادَةِ عَلَى ٱسْتِطَاعَتِهِ وَأَنَّ ذٰلِكَ ٱلْمَنْظُومَ ٱبْنُ سَاعَتِهِ. وَٱلْبَدِيهَةُ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّبَقَةِ قَلِيلًا وَيُفَكِّرَ مُقْتَصِرًا لَا مُطِيلًا فَإِنْ أَطَالَ ذُو ٱلْبَدِيهَةِ ٱلْفِكْرَةَ ٱنْعَكَسَتِ ٱلْقَضِيَّةُ وَخَرَجَتْ مِنْ حَدِّ ٱلْبَدِيهَةِ إِلَى حَدِّ ٱلرَّوِيَّةِ وَعِنْدَ ذٰلِكَ تَقْصُرُ نَهْضَةُ ٱلِٱقْتِدَارِ عَنْ بُلُوغِ ذٰلِكَ ٱلْمِضْمَارِ إِذِ ٱلْمُرْتَجِلُ وَٱلْبَادِهُ يُقْنَعُ مِنْهُمَا بِٱلرَّدِيِّ ٱلْيَسِيرِ وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱلْمُرَوِّي إِلَّا بِٱلْجَيِّدِ ٱلْكَثِيرِ وَكَفَاكَ فِي ذِكْرِهِمَا قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ:

وَٱلْفِكْرُ قَبْلَ ٱلْقَوْلِ يُؤْمِنُ زَيْغَهُ ... شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وَقَوْلُ ٱبْنِ جُرَيْجٍ:

نَارُ ٱلرَّوِيَّةِ نَارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا ... لٰكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ ٱلرِّيحِ

وَحَسْبُكَ بِحَرْبِ إِمَامِ ٱلشُّعَرَاءِ وَفَاتِكِهِمْ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِٱرْتِجَالِ وَإِذَا كَانَ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ وَهْبٍ ٱلرَّاسِبِيُّ رَئِيسُ ٱلْخَوَارِجِ فِي يَوْمِ ٱلنَّهْرَوَانِ يَقُولُ وَهُوَ ٱلْبَدَوِيُّ ٱلْفَصِيحُ وَٱلْعَرَبِيُّ ٱلصَّرِيحُ إِيَّاكُمْ وَٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ وَٱلْكَلَامَ ٱلْقَضِيبَ يَقُولُ هٰذَا فِي مُطْلَقِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ غَيْرُ مُقَيَّدٍ بِوَزْنٍ وَلَا قَافِيَةٍ فَكَيْفَ ٱلظَّنُّ بِٱلْمُقَيَّدِ بِهِمَا لَعَمْرِي أَنَّهُ لَمَقَامٌ يَجْبُنُ فِيهِ ٱلشُّجَاعُ وَيَكْذِبُ فِيهِ رَائِدُ ٱلْفِكْرِ فِي طَلَبِ ٱلِٱنْتِجَاعِ

قَالَ مُحَمَّدٌ كَاتِبُ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ شَاعِرًا رَاوِيًا وَطَالِبًا لِلنَّحْوِ عَلَّامَةً قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا دَاوُدَ وَجَرَى شَيْءٌ مِنْ ذِكْرِ ٱلْخُطَبِ وَتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ

فقالَ: تلخيصُ المعاني رفقٌ وٱستعانةٌ بالغريبِ عجزٌ وٱلتشادُقُ في غيرِ اهلِ البادِيةِ نقصٌ وٱلنظرُ في عيوبِ الناسِ عِيٌّ ومسُّ اللحيةِ هُلكٌ وٱلخروجُ مما بُنيَ عليهِ الكلامُ إسهابٌ (فقالَ) وسمعتهُ يقولُ رأسُ الخطابةِ الطبعُ وعمودُها الدربةُ وحليُها الإعرابُ وبهاؤُها تخييرُ اللفظِ وٱلمحبةُ مقرونةٌ بقلةِ الاستكراهِ وانشدني بيتًا في خطبةِ إيادٍ

يرمونَ بِٱللفظِ الخفيِّ وتارةً   وحيَ الملاحظِ خيفةَ الرُّقباءِ

(وقالَ) ابنُ الاعرابي قلتُ للفضلِ ما الإيجازُ عندكَ قالَ حذفُ الفضولِ وتقريبُ البعيدِ (وتكلمَ) ابنُ السماكِ يومًا وجاريةٌ لهُ تسمعُ فلما دخلَ قالَ لها كيفَ سمعتِ كلامي قالتْ إلى انْ تفهمهُ منْ لم يفهمهُ ملهُ منْ فهمهُ

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرُّف)

قالَ ابنُ الجوزيِّ في المنتخبِ. لما كانتِ المواعظُ مندوبًا إليها بقولهِ: فذكِّرْ فإنَّ الذكرى تنفعُ المؤمنينَ وقولهِ لعمالهِ تعاهدوا الناسَ بالتذكرةِ. ولانَّ ادواءَ القلوبِ تفتقرُ إلى ادويةٍ كما تحتاجُ امراضُ البدنِ إلى معالجةٍ ألفتُ في هذا

ٱلفَنِّ كُتُبًا تَشْتَمِلُ عَلَى أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَكَانَ ٱلسَّلَفُ يَقْتَنِعُونَ مِنَ ٱلْمَوَاعِظِ بِٱلْيَسِيرِ مِنْ غَيْرِ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ زَخْرَفَةِ نُطْقٍ وَمَنْ تَأَمَّلَ مَوَاعِظَ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَكَذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْفُقَهَاءُ فِي قَدِيمِ ٱلزَّمَانِ يَتَنَاظَرُونَ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضَةٍ فِي تَسْمِيَةِ قِيَاسِ عِلَّةٍ أَوْ قِيَاسِ شَبَهٍ وَنَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْأَسَامِي لَا يَخْرُجُ عَنْ مَرْضَاةِ ٱلْأَوَائِلِ وَلِذَٰلِكَ مَا أَخَذْتُ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلْمَذْكُورِينَ مِنْ تَحْسِينِ لَفْظٍ أَوْ تَسْجِيعِ وَعْظٍ وَلَا يَخْرُجُ مِنْ قَانُونِ ٱلْجَوَادِ وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِمَثَابَةِ جَمْعِ ٱلْقُرْآنِ ٱلَّذِي ٱبْتَدَأَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَثَنَّى بِهِ عُثْمَانُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ وَأَذِنَ لِتَمِيمٍ ٱلدَّارِيِّ أَنْ يَقُصَّ وَمِثْلُ هٰذِهِ لَا تُذَمُّ لِكَوْنِهَا ٱبْتُدِعَتْ إِذْ لَيْسَتْ خَارِجَةً عَنِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْمَشْرُوعِ. وَقَالَ ٱلْحَسَنُ ٱلْقَصَصُ بِدْعَةٌ كَمْ مِنْ أَخٍ يُسْتَفَادُ وَدَعْوَةٍ تُسْتَجَابُ

قَالَ بَعْضُ ٱلْقُدَمَاءِ إِنَّ ٱلْوَعْظَ حَبْلُ ٱللهِ ٱلْمَمْدُودُ وَعَهْدُهُ ٱلْمَعْهُودُ وَظِلُّهُ ٱلْعَمِيمُ وَصِرَاطُهُ ٱلْمُسْتَقِيمُ وَحُجَّتُهُ ٱلْكُبْرَى وَمَحَجَّتُهُ ٱلْوُسْطَى وَهُوَ ٱلْوَاضِحُ سَبِيلُهُ ٱلرَّاشِدُ دَلِيلُهُ ٱلَّذِي مَنِ ٱسْتَضَاءَ بِمَصَابِيحِهِ أَبْصَرَ وَنَجَا وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ ضَلَّ وَهَوَى حُجَّةُ ٱللهِ وَعَهْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَوَعْدُهُ بِهِ يَعْلَمُ ٱلْجَاهِلُ وَيَعْمَلُ ٱلْعَالِمُ ٱلْعَامِلُ وَيَنْتَبِهُ ٱلسَّاهِي وَيَتَذَكَّرُ ٱللَّاهِي بَشِيرُ ٱلثَّوَابِ وَنَذِيرُ ٱلْعِقَابِ وَشِفَاءُ ٱلصُّدُورِ وَجَلَاءُ ٱلْأُمُورِ مِنْ فَضَائِلِهِ أَنَّهُ يُقْرَأُ دَائِمًا وَيُكْتَبُ وَيُمْلَى وَلَا يُمَلُّ مَا أَهْوَنَ ٱلدُّنْيَا عَلَى مَنْ جَعَلَ ٱلدِّينَ إِمَامَهُ وَتَصَوَّرَ ٱلْمَوْتَ أَمَامَهُ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ ٱلْحِكْمَةُ مُوقِظَةٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَمُنْقِذَةٌ لِلْبَصَائِرِ مِنْ سَكْرَةِ

ٱلْحَيْرَةِ وَمُحْيِيَةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ ٱلْجَهَالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ ٱلضَّلَالَةِ وَٱلْعِلْمُ دَوَاءُ ٱلْقُلُوبِ ٱلْعَلِيلَةِ وَمَشْحَذٌ لِلْأَذْهَانِ ٱلْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي ٱلظُّلْمَةِ وَأُنْسٌ فِي ٱلْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي ٱلْخَلْوَةِ وَوُصْلَةٌ فِي ٱلْمَجَالِسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَنْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيِّ ٱلْمُزْرِي بِأَهْلِ ٱلْأَحْسَابِ ٱلْمُقَصِّرِ بِذَوِي ٱلْأَلْبَابِ أَنْطَقَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَهُ بِٱلْبَيَانِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنْزِيلِهِ وَأَيَّدَهُ رُسُلَهُ إِيضَاحًا لِلْمُشْكِلَاتِ وَفَصْلًا بَيْنَ ٱلشُّبُهَاتِ شَرُفَ بِهِ ٱلْوَضِيعُ وَأُعِزَّ بِهِ ٱلذَّلِيلُ وَسُوِّدَ بِهِ ٱلْمُسَوَّدُ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعَطَّلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ فَهُوَ مُغَفَّلٌ لَا تُبْلِيهِ ٱلْأَيَّامُ وَلَا تَخْتَرِمُهُ ٱلدُّهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى ٱلِٱبْتِذَالِ وَيَذْكُو عَلَى ٱلْإِنْفَاقِ لِلّٰهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ. قِيلَ لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ مَا ٱلْبَلَاغَةُ قَالَ مَا بَلَّغَكَ ٱلْجَنَّةَ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ ٱلنَّارِ وَبَصَّرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ ٱلِٱسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنِ ٱلْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ: قَالَ ٱلنَّبِيُّ إِنَّا مَعْشَرَ ٱلْأَنْبِيَاءِ فِينَا بَكْءٌ أَيْ قِلَّةُ ٱلْكَلَامِ وَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ ٱلرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ: كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلسُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ ٱلصَّمْتِ. قَالَ: لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ عَمْرٌو: يَا هٰذَا فَكَأَنَّكَ تُرِيدُ تَخَيُّرَ ٱللَّفْظِ فِي حُسْنِ ٱلْإِفْهَامِ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ ٱللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمُؤْنَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَبْتُولَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُتَحَرِّجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِٱعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا ... حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلٰكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذٰلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: ٱقْرَعُوا هٰذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ : أَلْسُنٌ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ . وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ : لَوْ أُمِرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ ٱلْمَوْعِظَةِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَجُنُوحَ ٱلنَّفْسِ إِلَى مُخَالَفَتِهَا . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : (أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا) . وَقَوْلُهُمْ : وَٱلشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَٱلْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِلَّا أَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَتْهُ ٱلْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ ٱلْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيَفْتَحُ لَكَ بَابَ ٱلتَّوْبَةِ وَيُوَضِّحُ لَكَ سَبِيلَ ٱلْإِنَابَةِ (قَالَ ٱلنَّبِيُّ) حُفَّتِ ٱلْجَنَّةُ بِٱلْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ ٱلنَّارُ بِٱلشَّهَوَاتِ يُرِيدُ أَنَّ ٱلطَّرِيقَ إِلَى ٱلْجَنَّةِ ٱحْتِمَالُ ٱلْمَكْرُوهِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلطَّرِيقَ إِلَى ٱلنَّارِ رُكُوبُ ٱلشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ ٱلْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) ٱلْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ ٱلْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي ٱلْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ ٱللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ ٱلْآذَانَ . وَقَالُوا مَا أَحْسَنَ ٱلتَّاجَ . وَهُوَ عَلَى رَأْسِ ٱلْمَلِكِ أَحْسَنُ . وَمَا أَحْسَنَ ٱلدُّرَّ . وَهُوَ عَلَى نَحْرِ ٱلْفَتَاةِ أَحْسَنُ وَمَا أَحْسَنَ ٱلْمَوْعِظَةَ . وَهِيَ مِنَ ٱلْفَاضِلِ ٱلتَّقِيِّ أَحْسَنُ . (وَقَالَ زِيَادٌ) أَيُّهَا ٱلنَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي

يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قال لسان الدين بن الخطيب في الروضة في محركات العزيمة وهي اليقظة ما نصه قلت والمحركات المشتركات في باعث اليقظة كثيرة منها الوعظ السائق بعقود الشارد عن الله تعالى الى مربط التوبة ومحرك العزيمة يردد أذانه على نوام أهل الكهف وقد ضرب نوم الغفلة على آذانهم حتى يحول بينهم وبين آذانهم ويركبهم ظهر الرياضة حتى تلحقهم بالمجذوبين من إخوانهم ولما كان حب الدنيا هو المانع عن الشروع في إطلاق العمل والقاطع به لما بعده لم يجد إساءة خيل الهوى وجنون الكسل الجمع من وقع العذل والتأنيب وتقبيح المحبوب سيما إذا أزعجت نبال نبله عن حنيات ضلوع الصدق وقال بعضهم الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب

أوقد النار من رسالة ليلى　　وأحذر السيل بعدها من دموعي

ولا تعدل الوعظ البليغ باللسان الفصيح والقلب القريح فإذا رأيت الأرض قد اهتزت وربت وهضاب القلوب القاسية قد تقلبت فشمر للغراس والزراع عن الذراع واغتنم السراع والإسراع

إذا هبت رياحك فاغتنمها　　فإن لكل خافقة سكونا

وكقول الآخر :

حَقِّرْ لَهَا مَاءً يُرِيهَا بِدَاءَةً ... وَٱضْمَنْ لَهَا حَوْضًا وَإِنْ لَمْ تُحْفَرِ

وَٱرْبَأْ بِنَفْسِكَ عَنْ تَسَامُحِ بَائِعٍ ... وَٱغْنَمْ إِذَا سَامَتْكَ شَهْوَةُ مُشْتَرِي

قَالُوا ٱلْوَعْظُ يَضْرِبُ وَجْهَ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلتَّبَسُّطِ فِي بِسَاطِ ٱللَّذَّاتِ وَيَنْقُلُ خَطَرَاتِهَا عَنِ ٱلْخَطْوِ فِي مَلْعَبِ ٱلْخَطِيئَاتِ وَيُمَثِّلُ لَهَا ٱلصَّبْرَ عِيَانًا وَيُبَيِّنُ ٱلْعَوَاقِبَ ٱلْمُحَجَّبَةَ بَيَانًا وَيُنْشِئُ سَحَابَ ٱلْحُزْنِ فِي أَجْوَافِ أَجْزَائِهَا وَيُذَكِّرُهَا بِمَآلِهَا وَٱنْتِهَائِهَا وَيُعْرِضُ عَنْ مَصَارِعِ فَنَائِهَا وَخَرَابِ بِنَائِهَا وَفِرَاقِ حَبَائِبِهَا وَأَبْنَائِهَا عِنْدَ نُزُولِ هَادِمِ ٱللَّذَّاتِ بِفِنَائِهَا فَتَرْجِعُ إِلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى بِحُكْمِ ٱلِٱضْطِرَارِ أَفْكَارُهَا وَتَخْشَعُ مِنْ خِيفَةِ ٱللّٰهِ تَعَالَى وَجَلَالِهِ أَبْصَارُهَا وَٱلْوَعْظُ يَكُونُ بِلِسَانَيْنِ وَيُوجَدُ فَنَّيْنِ لِسَانَ حَالٍ وَلِسَانَ مَقَالٍ وَرُبَّمَا كَانَ لِسَانُ ٱلْحَالِ أَبْلَغَ وَهُوَ يُسْمَعُ مِنَ ٱلْقُبُورِ ٱلْمُوحِشَةِ وَٱلْقُصُورِ ٱلْخَالِيَةِ وَٱلْعِظَامِ ٱلْبَالِيَةِ وَفِيهِ حِكَايَاتٌ وَأَخْبَارٌ . وَلِسَانُ مَقَالٍ كَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ وَهُوَ سَبِيلُ ٱللّٰهِ تَعَالَى ٱلَّتِي بَعَثَ بِهَا ٱلنَّبِيِّينَ وَضَمَّنَ فُصُولَهَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُبِينَ وَٱلسَّوْطَ ٱلَّذِي يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَوْبَةِ وَيَسُوقُ دَوْدَ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ إِلَى غَدِيرِ ٱلتَّوْبَةِ وَنَحْنُ نَجْعَلُهُ هَيْنَمَةً بَيْنَ يَدَيِ ٱلْفِرَاسَةِ لِتَذْكِيَةِ ٱلنُّفُوسِ إِنْ صَدَقَ حُكْمُ ٱلْفِرَاسَةِ مِنْ ذَاكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا صَدَرَ عَنِّي عَلَى لِسَانِ وَاعِظٍ



البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسْيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْتَنِفُهُ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلِٱنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِٱخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيُصْبِحُ ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ ٱسْمُ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْأَنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ: إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا. تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ. وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ. فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا ٱشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ ٱلْأَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلَكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٌّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا ثَبَتَ ٱلْاحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِاشْتِغَالِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظَ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِيهِ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِقُبْحِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بِغَيْرِهِ مَا لَا يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَهُ بِهِ غَيْرُهُ. فَمَتَى سُرِقَ مَالُهُ أَوِ ٱغْتُصِبَ مِنْهُ وَجَدَ بِذٰلِكَ فِي قَلْبِهِ حَرَارَةً وَفِي نَفْسِهِ ضِيقًا وَتَشَوَّشَ فِكْرُهُ وَٱخْتَلَّتْ حَالُهُ وَبَطَلَ نِظَامُ سَيْرِهِ. وَهُوَ لَا يُرِيدُ ذٰلِكَ. بَلْ يُرِيدُ أَنْ يَدُومَ مُنْشَرِحَ ٱلصَّدْرِ طَيِّبَ ٱلنَّفْسِ مُسْتَقِيمَ ٱلْأَحْوَالِ. فَهُوَ يَحْكُمُ بِقُبْحِ ذٰلِكَ وَحُسْنِ هٰذَا. وَإِنْ كَانَ لَا يُعَبِّرُ عَنْ ذٰلِكَ لِقُصُورِهِ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْأَلْفَاظِ بِٱلْحِلِّ وَٱلْحُرْمَةِ. وَإِلَى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ٱلْحَلَالُ بَيِّنٌ وَٱلْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ. وَعَلَى هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ أَنْ تَعْرِفَ ٱلْمُتَجَدِّدَاتِ ٱلزَّمَانِيَّةَ لِتَكُونَ أَعْمَالُهَا مُطَابِقَةً لِلْأَحْوَالِ ٱلْحَاضِرَةِ. فَرُبَّ أَمْرٍ يَكُونُ خَيْرًا فِي عَصْرٍ فَيُضْحِي شَرًّا فِي غَيْرِهِ. وَهَلْ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ كَائِنَةٌ أَوْ كَانَتْ. لَا أُثْبِتُ ذٰلِكَ وَلَا أَنْفِيهِ حَتَّى أُفَاوِضَكَ ٱلْحَدِيثَ فِيهِ. إِنْ قُلْتَ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةٌ فِي خُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ. قُلْتُ لَكَ: أَتُرِيدُ بِهِمْ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ تَرَاهُمْ وَتَسْمَعُهُمْ وَهُمْ إِنَّمَا تَمَيَّزُوا عَنْ آخَرِ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ ٱلْعَامَّةِ لِتَمَكُّنِهِمْ مِنْ قِرَاءَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلْخَطِّ. فَغَايَةُ أَمْرِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَقْرَأَ دِيوَانَ خُطَبٍ صَنَّفَهُ بَعْضُ أَسْلَافِهِ كَمَا تَخَيَّلَ مُنَاسِبًا لِلشُّهُورِ وَٱلْمَوَاسِمِ فَيَتَحَفَّظُ مَا تُعْطِيهِ تِلْكَ ٱلنُّقُوشُ مِنْ مَوَادِّ ٱلْأَلْفَاظِ. أَوْ يَنْسَخُ صُورَةَ خُطْبَةٍ لِيَخِفَّ حَمْلُهَا عَلَيْهِ إِذَا قَامَ بِهَا خَطِيبًا. يَسْرُدُ ٱلْفَاظًا حَفِظَهَا أَوْ نَظَرَ حُرُوفَهَا لَا يَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَلَا يَفْهَمُ ٱلْمُرَادَ مِنْهَا. كَمَا إِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلدِّيوَانُ مَشْكُولًا وَلَمْ يَقْرَإِ ٱلْخُطْبَةَ عَلَى ذِي دِرَايَةٍ سَمِعْتَ مِنْهُ ٱلْمُعْجِبَ وَٱلْمُطْرِبَ مِنَ ٱللَّحْنِ ٱلْفَاحِشِ وَٱلتَّصْحِيفِ ٱلْقَبِيحِ. فَإِنَّ مِنْهُمْ

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفسِهِ انتِقادَ السَّامِعِينَ فَيَقرأُ الخُطبةَ مِرارًا عَلَى بَعضِ اهلِ المَعرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ النُّطقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقتَصِرُ عَلَى تَصحِيحِ الحَدِيثِ احتِرَامًا لِكَلامِ النَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ النَّحوِ فَيَضِلاَّنِ جَمِيعًا. اِذْ لاَ عَمَلَ لِصِنَاعَةِ النَّحوِ اِلَّا بَعدَ فَهمِ المَعنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُبَالِي بِتَصحِيحِ آيَةٍ وَلاَ حَدِيثٍ. مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَستَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدتُ هٰؤُلاءِ. فَاِنْ قُلتَ اِنَّمَا اَرَدتُ خُطَبَاءَ الاَسلافِ قُلتُ لَكَ: تَجاوَزْ عَصرَ النَّبِيِّ وَعَصرَ اَصحَابِهِ ثُمَّ اقرَأْ خُطَبَ الخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي النَّوَاحِي ثُمَّ امضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعدَ طَبَقَةٍ وَعَصرًا خَلفَ عَصرٍ حَتَّى تَنتَهِيَ اِلَى وَقتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ الخُطَبِ يَدُورُ اَمرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لاَ تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ التَّزهِيدُ فِي الدُّنيَا وَالتَّرغِيبُ فِي الآخِرَةِ وَتَبشِيرُ المُطِيعِ وَاِنذَارُ العَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمعَةٍ وَكُلَّ مَوسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَالتَحَقَ بِالاُمُورِ المُعتَادَةِ. اِنَّمَا يَسمَعُ النَّاسُ اَصوَاتًا ذَاتَ كَيفِيَّاتٍ مُختَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ الرَّسمِ حَسبَمَا يَصِلُ اِلَيهِ فَهمُ العَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلكَ الصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ الدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ العَصرِ الثَّانِي بَعدَ عَصرِ النَّبِيِّ وَاَصحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَذَمُّوا لَنَا الدُّنيَا وَهُمْ يَرضَعُونَهَا   اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدِرُّ لَنَا ثُعلُ

وَالثُّعلُ بِفَتحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي اَطبَاءِ النَّاقَةِ وَغَيرِهَا تُشبِهُ حَلَمَةَ الثَّديِ لاَ يَخرُجُ مِنْهَا فِي العَادَةِ لَبَنٌ. وَلاَ تَظُنَّ اَنِّي انتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ العُصُورِ الاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ . وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ : هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ نَنْظُرُ . أَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللّٰهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْأُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْأُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ . وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا . وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتِ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْفَاذِ أَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ . وَأَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى أُصُولِهِمِ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ . فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَشْتَغِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَّةِ . ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلَفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا . وَخَرَجَ بِهِمْ ذَلِكَ

إلى سباب ومشاتمة واحتقار قوم قوماً ورجع بهم إلى القدح في السلف وصار الاختلاف بين أهل المذاهب منشأ لعداوة إن لم تكن فوق العداوة بين أهل الأديان فليست دونها. فكثيراً ما كانت سبباً لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضاً حتى دخل بينهم الحكام لإصلاحهم وكانوا هم الأولى بذلك. وهو حقهم الذي ما كان ينبغي أن يمكنوا منه غيرهم وصاروا أحزاباً ينحاز كل حزب إلى ملك من ملوك النواحي وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل أهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبدلت سيوف المنابر بقطع خشب في صورتها يتكئ عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم. وآل أمر العلماء إلى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم أرصاد الحكومة وتأخذهم عيونها منعاً لتعدي بعضهم على بعض وحسماً لمادة الشر بينهم. ولعبت بهم أهواء الملوك الجائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم. ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين أمضوا صدور أعمارهم في اللهو واللعب دون فكرة في تحصيل سبب من أسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب إلى العلم وأهله فصنفوا كتباً ملأوها أحاديث كاذبة وحكايات غير معقولة وروجوها على العامة وأكلوا بها الخبز وخلطوا ما ليس من الدين به. فأي مفسدة أكبر من ذلك وليس له سبب إلا افتراق العلماء وإهمالهم أمر الرعاية. ولم يزل الاختلاف الذي هو منشأ تلك

ٱلعداوة مستترًا يخفيه ٱلضعفُ وتظهره ٱلقوة كما ترى. فهل يسوغ لك بعد معرفة هذا ان تقول إنها ٱلعلماء. وإن قلت إنها ٱلوعاظ قلت هذا اقرب فإن ٱلوعاظة كانت حرفة شائعة وصناعة فاشية كان اهلها يتنافسونها وكثير منهم اخذ عليها ٱلرواتب من بيوت ٱلاموال واكثرهم كان يلم بها ٱلقطع من ٱلعامة ٱلذين يحضرون مجالسهم. فكان ٱلواعظ اذا فرغ من كلامه ٱلذي اعده لذلك ٱلمجلس بسط منديله وطرح فيه كل ما سمحت به نفسه

وصنفت لأجل ٱلوعاظة كتب لقبوها بٱلمجالس تشتمل على تفسير آيات من آيات ٱلترغيب وٱلترهيب وبعض احاديث صحيحة وبعض اشعار وحكايات من ذلك ٱلوادي. ونموذج ذلك ما تراه في ٱلمسجد ٱلحسيني بعد ٱلعصر في رمضان. وبٱلجملة فمحصول تلك ٱلكتب هو محصول خطب ٱلمنابر. وإن كان بعض اهل تلك ٱلصناعة وهم قليل كانوا من ٱلفطنة وٱلذكاء وبراعة ٱلمنطق وبلاغة ٱلعبارة بمكان رفيع. فإن اكثرهم ٱلقصاص ٱلجهلة ٱلذين غاية امر ٱلواحد منهم ان ينفق احاديث يضعها او وضعها غيره يفرح بها نفوس ٱلعامة بما يذكر من كثرة ٱلثواب مع قلة ٱلعمل وما يهون من امر ٱلمعصية حتى يكون ذلك بمنزلة ٱلتحريض على ارتكاب ٱلشهوات وٱلاسترسال مع ٱلاهواء وطرح ٱلمبالاة اعتمادًا على ما ركزوه في نفوسهم وشغلوا به عقولهم من كثرة اسباب ٱلمغفرة وسعة ٱلرحمة وعظم ٱلعفو الى غير ذلك. لا

يَتَكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ الطِّبَاعِ وَاسْتِحْكَامِ الغَفْلَةِ وَالِانْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى الِاجْتِمَاعِ الإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ التَّعَاوُنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ التَّعَارُفِ وَالتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ الأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَابْتِهَاجَهُمْ بِالتَّنَاصُفِ وَإِفْضَالَ الأَقْوِيَاءِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قُوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا السَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ السُّوءِ وَالتَّمَاكُرِ بِاسْتِلَابِ الأَمْوَالِ وَقَهْرِ النُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ الأَقْوِيَاءِ الضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ اللَّذَّاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ الصُّخُورِ وَأَبْوَابِ الحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذَلِكَ مُوَلِّدًا فِي النَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ الطِّبَاعِ الَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا نَحْوَ الِاكْتِسَابِ بِجِهَةِ السَّرِقَةِ وَالسُّؤَالِ بِالضَّرَاعَةِ وَالتَّرَامِي عَلَى أَعْتَابِ المُكْثِرِينَ . وَأَنْتَ لِذَلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ الطَّوَائِفَ الكَاسِبَةَ بِهَذِهِ الوُجُوهِ الرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخَسُّهَا عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدَّدًا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمُ الخُلُقِيَّةِ وَأَخْمَدُوا لَهَبَ قُوَاهُمُ الطَّبِيعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ أَشْرِبَةٍ خُرَافَاتٍ تَخْرُجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ الحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ نَوْعِ الإِنْسَانِ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى الِاحْتِيَاجِ وَطَلَبِ المَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانٍ انْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ الفَرَاغِ أَيْ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانِ نِسَائِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ المَكَاسِبِ بِطُرُقِ

ٱلأَعْمَالِ ٱلْمُتعِبَةِ وَٱلْمُحَاوَلَاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلْحِفُونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْسُوَ قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ اَهْلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلْقَدْحُ عَامًّا وَٱلِاحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلِاعْتِبَارِ فِيهِ اَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِوَظِيفَةِ ٱلْهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْخَيْرِ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ اَبْعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَاَحْرَصَهُمْ عَلَى ٱلْكَمَالِ . فَإِنَّ اَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ اعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسْلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلْمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ ٱلْخَلَاعَاتِ وَٱلْمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ ٱلْخُطَبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَٱلْفُرْسِ . فَأَمَّا ٱلْهِنْدُ فَإِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ ٱلدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَلِلْيُونَانِيِّينَ فَلْسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِٱلْبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ اَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ اَنْطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِٱلْخَطَابَةِ وَلَا بِهٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ

ٱلْبَلَاغَةِ وَفِي ٱلْفُرْسِ خُطَبَاءُ إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلْكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلْفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ . وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلْكَلَامِ وَإِلَى رَجَزِ يَوْمِ ٱلْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلْمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلْمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلْعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلْمَعَانِي أَرْسَالًا وَتَنْثَالُ عَلَيْهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱنْثِيَالًا . ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَبَاؤُهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ . وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلْإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَاسِمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثِرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللّٰهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْغَابِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

---

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سِبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تُكِنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتْبَعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغِبُّ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحُقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذَّرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ ٱلْقَلْبَ مِنْ هَوَاهُ ٱدِّكَارُ   وَلَيَالٍ خِلَالَهُنَّ نَهَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ   وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ
وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١)   مِ وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ   عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)
وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ   كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

(١) ويروى: ونجوم تلوح في ظلام الليل   (٢) ويُروى: مُطار

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حَوَتِ ٱلْخَيْـ م وَأُخْرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِيرٌ مِمَّا تُقَصِّرُ عَنْهُ حَدْسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يُحَارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوسًا لَهَا هُدًى وَٱعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ مُوْنِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا. إِنَّهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيْلٌ مَوْضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ. وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ. وَبِرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ. ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ. إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيْلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَلَا يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِٱلْمُقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

---

(١) ويروى: خلت

بِاللهِ قَسَمًا حَقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي أَنتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لِأَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَأَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْأَوَّلِينَ م مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي ٱلْأَصَاغِرُ وَٱلْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ (١)
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةٍ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. أَدْرَكَ ٱلْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: أَنْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوِّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكَبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ مَا تَنَحْنَحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةَ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَيِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّٰهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ الْخُزَاعِيُّ:

يَا طَلْحَ أَكْرَمَ مَنْ بِهَا حَسَبًا وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ الْعَطَاءُ فَأَعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ إِنَّ طَلْحَةَ قَالَ لَهُ: احْتَكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ الْوَرْدَ وَقَصْرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلْحَةُ أُفٍّ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي أَعْطَيْتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصْرٍ وَلَكِنْ أَبَيْتَ إِلَّا بِأَهْلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى فِي مَجْلِسِ ثُمَامَةَ بْنِ أَشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ كَانَ أَبْسَطَ لِسَانًا وَلَا أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا أَقْدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظْمٍ حَسَنٍ وَأَلْفَاظٍ عَذْبَةٍ وَمَنْطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كَانَ لَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَتَحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفْظًا وَلَا مَعْنًى وَلَا يَخْرُجُ مِنْ فَنٍّ إِلَى غَيْرِهِ حَتَّى يَبْلُغَ آخِرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا حَكَاهُ وَلَا يَحْكِي شَيْئًا إِلَّا كَانَ أَكْثَرَ مِنْهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهْنِهِ شَيْءٌ إِلَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ إِذَا شَاءَ أَضْحَكَ الثَّكْلَى وَأَذْهَلَ الزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلْبَ الْعَابِدِ. قُلْتُ فَكَيْفَ كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالْخَبَرِ الْبَاهِرِ وَالشِّعْرِ النَّادِرِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ وَالْفَصَاحَةِ التَّامَّةِ وَاللِّسَانِ الْبَسِيطِ. قَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ وَابْنَهُ جَعْفَرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ الْكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيَلْقِيهِ الْمَنْطِقُ جَوْهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَالْمُنْتَقَى مِنْ أَلْفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرْتُ مَعَهُمَا وَأَدْرَكْتُ طَبَقَةَ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي أَيَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ الْبَلَاغَةَ لَمْ تُسْتَكْمَلْ إِلَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقْصُورَةً إِلَّا عَلَيْهِمَا وَلَا انْقَادَتْ إِلَّا لَهُمَا وَإِنَّهُمَا لَلُبَابُ الْكَرَمِ

عتق منظرٍ وجودة مخبرٍ وسهولة لفظٍ وجزالة منطقٍ ونزاهة نفسٍ وكمال خصالٍ حتى لو فاخرتِ الدنيا بقليلِ ايامهما والمأثور من خصائصهما جميع ايام من سواهما من لدن آدم الى ان ينفخ في الصور ويبعث اهل القبور حاشا انبياء الله الكرام وسلف عباده الصالحين لما باهت الا بهما ولا عولت في الفخر الا عليهما. ولقد كانا مع تهذيب اخلاقهما ومغسول مذاقهما وسنا اشراقهما وكمال خصال الخير فيهما في محاسن المأمون كالنقطة في البحر والخردلة في القفر



القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

إِعْلَمْ انَّ لِسانَ ٱلْعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّيْنِ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَنْظُومِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَوْزُونُ ٱلْمُقَفَّى وَمَعْنَاهُ ٱلَّذِي تَكُونُ اوزَانُهُ كُلُّهَا عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ . وَفَنِّ ٱلنَّثْرِ وَهُوَ ٱلْكَلَامُ غَيْرُ ٱلْمَوْزُونِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذَاهِبَ فِي ٱلْكَلَامِ. فَامَّا ٱلشِّعْرُ فَمِنْهُ ٱلْمَدْحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلرِّثَاءُ . وَامَّا ٱلنَّثْرُ فَمِنْهُ ٱلْكَلَامُ ٱلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلْتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنْهُ قَافِيَةٌ وَاحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا. وَمِنْهُ ٱلْمُرْسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطْلَقُ فِيهِ ٱلْكَلَامُ إِطْلَاقًا

وَلَا يُقَطَّعُ أَجْزَاءً بَلْ يُرْسَلُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا. وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ الْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ. وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَنْثُورِ إِلَّا أَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ الْوَصْفَيْنِ وَلَيْسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي إِلَى مَقَاطِعَ يَشْهَدُ الذَّوْقُ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ عِنْدَهَا. ثُمَّ يُعَادُ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الْقُرْآنِ: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ. وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ. وَيُسَمَّى آخِرُ الْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ إِذْ لَيْسَتْ أَسْجَاعًا وَلَا الْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي السَّجْعِ وَلَا هِيَ أَيْضًا قَوَافٍ. وَأُطْلِقَ اسْمُ الْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى الْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَاخْتَصَّتْ بِأُمِّ الْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَالنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهَذَا سُمِّيَتِ السَّبْعَ الْمَثَانِيَ. وَانْظُرْ هَذَا مَعَ مَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِالْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ الْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ. وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْفُنُونِ أَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ الْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ النَّسِيبِ الْمُخْتَصِّ بِالشِّعْرِ وَالْحَمْدِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْخُطَبِ وَالدُّعَاءِ الْمُخْتَصِّ بِالْمُخَاطَبَاتِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَقَدِ اسْتَعْمَلَ الْمُتَأَخِّرُونَ أَسَالِيبَ الشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي الْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ الْأَسْجَاعِ وَالْتِزَامِ التَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ النَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ الْأَغْرَاضِ وَصَارَ هَذَا الْمَنْثُورُ إِذَا تَأَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ الشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا فِي الْوَزْنِ. وَاسْتَمَرَّ

ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِٱسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلَ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطِبِ وَٱلْمُخَاطَبِ. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِٱسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خُطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

اَلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

ٱلَّتِي يُعْطَى فِيهَا تَجْرِي مَجْرَى ٱلْجُودَةِ أَنْ يَقُولَ أَوَّلًا مَا فَصْلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِمَاذَا تَتَقَوَّمُ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَمِنْ كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَأَيُّمَا هِيَ أَجْزَاؤُهَا ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ أَصْنَافُ ٱلْأَغْرَاضِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ بِٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. وَأَنْ يَجْعَلَ كَلَامَهُ مِنَ ٱلْأَوَائِلِ ٱلَّتِي لَنَا بِٱلطَّبْعِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى. (قَالَ) فَكُلُّ شِعْرٍ وَكُلُّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ فَهُوَ إِمَّا هِجَاءٌ وَإِمَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِٱسْتِقْرَاءِ ٱلْأَشْعَارِ وَبِخَاصَّةٍ أَشْعَارُهُمُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ أَعْنِي ٱلْحَسَنَةَ وَٱلْقَبِيحَةَ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلْحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلضَّرْبُ بِٱلْعِيدَانِ وَٱلزَّمْرُ وَٱلرَّقْصُ أَعْنِي أَنَّهَا مُعَدَّةٌ بِٱلطَّبْعِ لِهٰذَيْنِ ٱلْغَرَضَيْنِ. وَٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ هِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ. وَأَصْنَافُ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّشْبِيهِ ثَلَاثَةٌ ٱثْنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا. أَمَّا ٱلِٱثْنَانِ ٱلْبَسِيطَانِ فَأَحَدُهُمَا تَشْبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمْثِيلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَكُونُ فِي لِسَانٍ لِسَانٍ بِأَلْفَاظٍ خَاصَّةٍ عِنْدَهُمْ مِثْلَ كَأَنَّ وَإِخَالُ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ حُرُوفَ ٱلتَّشْبِيهِ. وَإِمَّا أَخْذُ ٱلشَّبِيهِ بِعَيْنِهِ بَدَلَ ٱلشَّبِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْإِبْدَالَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

هُوَ ٱلْبَحْرُ مِنْ أَيِّ ٱلْمَوَاضِعِ جِئْتَهُ

وَيَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ فِي هٰذَا ٱلْقِسْمِ تَدْخُلُ ٱلْأَنْوَاعُ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا أَهْلُ زَمَانِنَا ٱسْتِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثْلَ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ ٱلصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ

إلّا أنّ الكنايات أكثر ذلك هي إبدالات من لواحق الشّيء . والاستعارة هي إبدال من مناسبه أعني إذا كان شيء نسبته إلى الثاني نسبة الثالث إلى الرابع فإبدال اسم الثالث إلى الأوّل وبالعكس . وقد تقدّم في كتاب الخطابة من كم شيء تكون الإبدالات . وأمّا القسم الثاني فهو أن يبدّل التّشبيه مثل أن تقول : الشمس كأنّها فلان أو الشمس هي فلان لا فلان كالشمس ولا هو الشمس

والصنف الثالث من الأقاويل الشعريّة هو المركّب من هذين (قال) وكما أنّ الناس بالطبع قد يخيّلون ويحاكون بعضهم بعضاً بالأفعال مثل محاكاة بعضهم بعضاً بالألوان والأشكال والأصوات وذلك إمّا بصناعة وملكة توجد للمحاكين وإمّا من قبل عادة تقدّمت لهم في ذلك . كذلك توجد لهم المحاكاة بالأقاويل بالطبع والتخييل . والمحاكاة في الأقاويل الشعريّة تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتّفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كلّ واحد منها مفرداً عن صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرّقص والمحاكاة في اللفظ . أعني الأقاويل المخيّلة الغير موزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمّى الموشّحات والأزجال وهي الأشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة إذ كانت الأشعار الطبيعيّة هي ما جمعت

ٱلأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَٱلأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّ أَشْعَارَ ٱلعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا ٱلوَزْنُ وَٱلمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلمُخَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِعْلَ ٱلتَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ. صِنَاعَةُ ٱللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ٱلوَزْنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلمَنْطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ سُقْرَاطَ ٱلمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادُقْلِيسَ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلأَمْرِ فِي أَشْعَارِ أُومِيرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِٱلحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَيْنِ. وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أَحْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا وَكَذٰلِكَ ٱلفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوْزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أَحْرَى أَنْ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلمُخَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ ٱلمُحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلْتَئِمُ ٱلمُحَاكَاةُ بِٱلقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلفِعْلِ



البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قالَ) وَلَمّا كانَ ٱلمُحاكونَ وَٱلمُشبِّهونَ إنّما يَقصِدونَ بِذٰلكَ أن يَحُثّوا على عَمَلِ بَعضِ ٱلأفعالِ ٱلإراديّةِ وَأن يَكُفّوا عن عَمَلِ بَعضِها فَقَدْ يَجِبُ ضَرورَةً أن تَكونَ ٱلأُمورُ ٱلّتي تُقصَدُ مُحاكاتُها إمّا فَضائِلَ وَإمّا رَذائِلَ وَذٰلكَ أنّ كُلَّ فِعلٍ وَكُلَّ خُلقٍ إنّما هُوَ تابِعٌ لِأحَدِ هٰذَينِ أعني ٱلفَضيلَةَ وَٱلرَّذيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرورَةً أن تَكونَ ٱلفَضائِلُ إنّما تُحاكى بِٱلفَضائِلِ وَٱلفاضِلينَ وَأن تَكونَ ٱلرَّذائِلُ تُحاكى بِٱلرَّذائِلِ وَٱلأرذَلينَ . وَإذا كانَ كُلُّ تَشبيهٍ وَحِكايَةٍ إنّما تَكونُ بِٱلحَسَنِ وَٱلقَبيحِ فَظاهِرٌ أنّ كُلَّ تَشبيهٍ وَحِكايَةٍ إنّما يُقصَدُ بِها ٱلتَّحسينُ وَٱلتَّقبيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هٰذا ضَرورَةً أن يَكونَ ٱلمُحاكونَ لِلفَضائِلِ أعني ٱلمائِلينَ بِٱلطَّبعِ إلى مُحاكاتِها أفاضِلَ . وَٱلمُحاكونَ لِلرَّذائِلِ أنقَصَ طَبعًا مِن هٰؤلاءِ وَأقرَبُ إلى ٱلرَّذيلَةِ وَعَن هٰذَينِ ٱلصِّنفَينِ مِنَ ٱلنّاسِ وُجِدَ ٱلمَديحُ وَٱلهَجوُ . أعني مَدحَ ٱلفَضائِلِ وَهَجوَ ٱلرَّذائِلِ وَلِهٰذا كانَ بَعضُ ٱلشُّعَراءِ يُجيدُ ٱلمَدحَ وَلا يُجيدُ ٱلهَجوَ وَبَعضُهُم بِٱلعَكسِ أعني يُجيدُ ٱلهَجوَ وَلا يُجيدُ ٱلمَدحَ فَإذَنْ بِٱلواجِبِ ما كانَ يوجَدُ لِكُلِّ تَشبيهٍ وَحِكايَةٍ هٰذانِ

الفصلان اعني التحسين والتقبيح وهذان الفصلان انما يوجدان للتشبيه والمحاكاة التي تكون بالقول لا المحاكاة التي تكون بالوزن ولا التي تكون باللحن . وقد يوجد للتشبيه بالقول فصل ثالث وهو التشبيه الذي يقصد به مطابقة المشبه به من غير ان يقصد في ذلك تحسين او تقبيح لكن نفس المطابقة وهذا النوع من التشبيه هو كالمادة المعدة لان يستحيل الى الطرفين اعني انها تستحيل تارة الى التحسين بزيادة عليها وتارة الى التقبيح بزيادة ايضا عليها (قال) وهذه كانت طريقة اوميروش اعني انه كان يأتي في تشبيهاته بالمطابقة والزيادة المحسنة والمقبحة . ومن الشعراء من اجادته انما هي في المطابقة فقط . ومنهم من اجادته في التحسين والتقبيح . ومنهم من جمع الامرين مثل اوميروش وتمثل في كل صنف من هؤلاء باصناف من الشعراء كانوا مشهورين في مدتهم وسياستهم باستعمال صنف صنف من اصناف هذه التشبيهات الثلاثة . وانت فليس يعسر عليك وجود مثالات ذلك في اشعار العرب وان كانت اكثر اشعار العرب انما هي كما يقول ابو نصر في النهم والكريه . وذلك ان النوع الذي يسمونه النسيب انما هو حث على الفسوق ولذلك ينبغي ان يتجنبه الولدان ويؤدبون من اشعارهم بما يحث فيه على الشجاعة والكرم . فانه ليس تحث العرب في اشعارها من الفضائل على سوى هاتين الفضيلتين وان كانت ليس تتكلم فيهما على طريق الحث عليهما

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذَٰلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذَٰلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ ٱلْأَشْعَارَ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هٰهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يَلْتَذُّ بِالتَّشْبِيهِ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي قَدْ أَحَسَّهَا وَبِالْمُحَاكَاةِ لَهَا. وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يُسَرُّ بِالتَّشْبِيهِ بِالطَّبْعِ وَيَفْرَحُ هُوَ أَنَّا نَلْتَذُّ وَنُسَرُّ بِمُحَاكَاةِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا نَلْتَذُّ بِإِحْسَاسِهَا وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ الْمُحَاكَاةُ شَدِيدَةَ الْاسْتِقْصَاءِ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ فِي تَصَاوِيرِ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْمَهَرَةُ مِنَ الْمُصَوِّرِينَ وَلِهَذِهِ الْعِلَّةِ اسْتُعْمِلَ فِي التَّعْلِيمِ عِنْدَ الْإِفْهَامِ وَالتَّخَاطُبِ الْإِشَارَاتُ فَإِنَّهَا أَدَاةٌ مُعِينَةٌ عَلَى فَهْمِ الْأَمْرِ الَّذِي يُقْصَدُ تَفْهِيمُهُ لِمَكَانِ مَا فِيهَا مِنَ الْالْتِذَاذِ الَّذِي هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْإِشَارَاتِ مِنْ قِبَلِ مَا فِيهَا مِنَ التَّخْيِيلِ فَتَكُونُ النَّفْسُ بِحَسَبِ الْتِذَاذِهَا بِهِ أَتَمَّ قَبُولًا لَهُ. فَإِنَّ التَّعْلِيمَ لَيْسَ إِنَّمَا يُوجَدُ لِلْفَيْلَسُوفِ فَقَطْ بَلْ وَلِلنَّاسِ فِي ذَلِكَ مُشَارَكَةٌ يَسِيرَةٌ مَعَ الْفَيْلَسُوفِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ التَّعْلِيمُ بِالطَّبْعِ يَصْدُرُ مِنْ إِنْسَانٍ إِلَى إِنْسَانٍ بِحَسَبِ قِيَاسِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ الْمُعَلِّمِ مِنَ الْإِنْسَانِ الْمُتَعَلِّمِ. وَالْإِشَارَاتُ لَمَّا كَانَتْ إِنَّمَا هِيَ تَشْبِيهَاتٌ لِأُمُورٍ قَدْ أُحِسَّتْ فَبَيِّنٌ أَنَّهَا إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ لِمَوَاضِعِ الْمُسَارَعَةِ إِلَى الْفَهْمِ وَالْقَبُولِ لَهُ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُفْهَمُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْالْتِذَاذِ لِمَوْضِعِ التَّخْيِيلِ الَّذِي فِيهَا. فَهَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ الْأُولَى الْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ. وَأَمَّا الْعِلَّةُ الثَّانِيَةُ فَالْتِذَاذُ الْإِنْسَانِ أَيْضًا بِالطَّبْعِ بِالْوَزْنِ وَالْأَلْحَانِ فَإِنَّ الْأَلْحَانَ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا مُنَاسِبَةٌ لِلْوَزْنِ عِنْدَ الَّذِينَ فِي طِبَاعِهِمْ أَنْ يُدْرِكُوا الْأَوْزَانَ وَالْأَلْحَانَ فَالْتِذَاذُ النَّفْسِ بِالطَّبْعِ بِالْمُحَاكَاةِ وَالْأَلْحَانِ وَالْأَوْزَانِ هُوَ السَّبَبُ فِي وُجُودِ الصِّنَاعَاتِ الشِّعْرِيَّةِ

وبخاصّةٍ عند الفطر الفائقة في ذلك فاذا نشأت الامّة تولّدت فيهم صناعة الشعر من حيث انّ الاوّل يأتي منها اوّلًا بجزءٍ يسيرٍ ثمّ يأتي من بعده بجزءٍ آخر وهكذا الى ان تكمل الصناعات الشعريّة . وتكمل ايضًا اصنافها بحسب استعداد صنفٍ صنفٍ من الناس للالتذاذ اكثر بصنفٍ صنفٍ من اصناف الشعر . مثال ذلك انّ النفوس التي هي فاضلة وشريفة بالطبع هي التي تنشئ اوّلًا صناعة المديح اعني مديح الافعال الجميلة . والنفوس التي هي اخسّ من هذه هي التي تنشئ صناعة الهجاء اعني هجاء الافعال القبيحة وإن كان قد يضطرّ الذي مقصده الهجاء للشرار والشرور ان يمدح الاخيار والافعال الفاضلة ليكون ظهور قبح الشرور اكثر اعني اذا ذكرها ثمّ ذكر بإزائها الافعال القبيحة . فهذا ما في هذا الفصل من الامور المشتركة لجميع الامم او للاكثر وسائر ما يذكر فيه فكلّه او جلّه ممّا يخصّ اشعارهم وعاداتهم فيها وذلك انّه يذكر اصناف الصناعات الشعريّة التي كانت تستعمل عندهم وكيف كان منشأ واحدةٍ واحدةٍ منها بالطبع واي جزءٍ هو المتقدّم منها في الكون على اي جزءٍ وبخاصّةٍ في صناعة المديح وصناعة الهجاء المشهورتين عندهم ويذكر مع هذا اوّل من ابتدأ صناعةً صناعةً من تلك الصنائع الشعريّة المعتادة عندهم ومن زاد فيها ومن كمّلها بعد . وهو في هذا الباب يثني على اوميروش ثناءً كثيرًا ويعرف انّه الذي اعطى مبادئ هذه الصنائع وانّه لم يكن لاحدٍ

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ وَلَا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَٱلْأَنْقَصُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِأَنَّ ٱلطِّبَاعَ أَسْهَلُ وُقُوعًا عَلَيْهَا أَوَّلًا. وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ أَقَلَّ وَٱلْأَنْقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ أَقَلَّ أَيْضًا . (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعَ أَسْبَقُ إِلَى ٱلنُّفُوسِ أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَ ٱلْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُجَادَلَاتِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرَجِ . يُرِيدُ فِيمَا أَحْسَبُ مِثْلَ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : لَا لَا لَا نُعِدُّ بِهَا صَوْتَهُ . وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هٰذَا كَذَا مَادًّا بِهَا صَوْتَهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِآخِرَةٍ كَٱلْحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ . (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلْهِجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلْمُحَاكَاةُ بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ أَيْ مَرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُهْتَمٍّ بِهِ . (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلْاسْتِهْزَاءَ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْمُسْتَهْزِئِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ أَعْنِي قَبَاحَةَ ٱلْوَجْهِ وَهَيْئَةَ ٱلْاسْتِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلْاكْتِرَاثِ بِٱلْمُسْتَهْزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ ٱلْغَاضِبِ أَعْنِي أَنَّ فِيهِ قُبْحًا وَٱهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ ٱلْغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَغْضَبُ عَلَيْهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِيجَادُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي ٱلْأَعَارِيضِ ٱلطَّوِيلَةِ لَا فِي ٱلْقَصِيرَةِ وَلِذَٰلِكَ رَفَضَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ ٱلْأَعَارِيضَ ٱلْقِصَارَ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَخَصُّ ٱلْأَوْزَانِ بِهَا هُوَ ٱلْوَزْنُ ٱلْبَسِيطُ ٱلْغَيْرُ مُرَكَّبٍ وَلٰكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يَبْلُغَ فِيهَا مِنَ ٱلطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ. وَٱلْحَدُّ ٱلْمُفْهِمُ جَوْهَرَ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاكَاةٌ لِلْعَمَلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ ٱلْكَامِلِ ٱلَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كُلِّيَّةٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ مُحَاكَاةً تَنْفَعِلُ لَهَا ٱلنُّفُوسُ ٱنْفِعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُوَلِّدُ فِيهَا مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلْخَوْفِ وَذَٰلِكَ بِمَا يُخَيِّلُ فِي ٱلْفَاضِلِينَ مِنَ ٱلنَّقَاءِ وَٱلنَّظَافَةِ فَإِنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ ٱلْفَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ إِذْ لَيْسَ يُمْكِنُ فِيهَا أَنْ يُتَخَيَّلَ. وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ تَكْمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا ٱللَّحْنُ وَٱلْوَزْنُ وَقَدْ تُوجَدُ مِنَ ٱلْمُنْشِدِينَ أَحْوَالٌ أُخَرُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْوَزْنِ وَٱللَّحْنِ تَجْعَلُ ٱلْقَوْلَ أَتَمَّ مُحَاكَاةً وَهِيَ ٱلْإِشَارَاتُ وَٱلْأَخْذُ بِٱلْوُجُوهِ ٱلَّذِي قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ فَأَوَّلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلشِّعْرِيِّ فِي ٱلْعَمَلِ هُوَ أَنْ تُحْصَى

ٱلْمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱلْمُلَائِمَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِٱسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ إِسْطَقِسَّاتُ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ . فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحَقِّقٍ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ وَهُوَ بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا ٱعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا . وَلِهٰذَا قِيلَ لِلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ
فَٱلقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ
ٱلعَادَاتِ وَٱلِاعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ
سِتَّةً : ٱلأَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلعَادَاتُ وَٱلوَزْنُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ
وَٱللَّحْنُ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهٍ
وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي
يُشَبَّهُ فِي ٱلمَدْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا : ٱلعَادَاتُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ أَعْنِي
ٱلِاسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ
ضَرُورَةً سِتَّةً . وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلعَادَاتُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ
ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ
مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ
قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ
ٱلأَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتُغْنِيَ
بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلأَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ . وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ إِبَانَةُ
صَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلِاحْتِجَاجِ لِصَوَابِ
ٱلِاعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ . وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَإِنَّمَا
يُوجَدُ فِي ٱلأَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ
ٱلأَشْيَاءَ أَعْنِي ٱلعَادَاتِ وَٱلِاعْتِقَادَاتِ وَٱلِاسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلأَصْنَافِ
مِنَ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى أَعْنِي ٱلقَوْلَ ٱلْمُخَيِّلَ وَٱلوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ)
وَأَجْزَاءُ ٱلقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ

كُلَّ مُحاكَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تُوطِئَ لِمُحاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَى مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلْإِدَارَةِ وَإِمَّا أَنْ يُحَاكِيَ ٱلشَّيْءَ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ . وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْأُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ أَعْنِي أَنَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْأُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِأَنَّ ٱلِٱلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحَاكَى بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوكِيَ . وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى صُوَرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ أَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصْوِيرِهَا بِٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزِّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ . وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلتَّالِيَ لِلثَّانِي هُوَ ٱلِٱعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ أَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ . (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْأَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلِٱعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخَطَبِيَّةِ وَٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ .

إنَّ ٱلَّذي يَحُثُّ عَلى ٱلعادَةِ يَحُثُّ عَلى عَمَلِ شَيْءٍ أوْ عَلى ٱلهَرَبِ مِنْ شَيْءٍ وَٱلقَوْلَ ٱلَّذي يَحُثُّ عَلى ٱلاعْتِقادِ إنَّما يَحُثُّ عَلى أنَّ شَيْئًا مَوْجودٌ أوْ غَيْرُ مَوْجودٍ لا عَلى شَيْءٍ يُطْلَبُ أوْ يُهْرَبُ عَنْهُ. وَٱلجُزْءُ ٱلرّابِعُ لِهذِهِ ٱلأجْزاءِ أعْني ٱلتّالِيَ لِلثّالِثِ هُوَ ٱلوَزْنُ وَمِنْ تَمامِهِ أنْ يَكونَ مُناسِبًا لِلغَرَضِ فَرُبَّ وَزْنٍ يُناسِبُ غَرَضًا وَلا يُناسِبُ غَرَضًا آخَرَ. وَٱلجُزْءُ ٱلخامِسُ فِي ٱلمَرْتَبَةِ هُوَ ٱللَّحْنُ وَهُوَ أعْظَمُ هذِهِ ٱلأجْزاءِ تَأْثيرًا وَأفْعَلُها فِي ٱلنُّفوسِ. وَٱلجُزْءُ ٱلسّادِسُ هُوَ ٱلنَّظَرُ أعْني ٱلاحْتِجاجَ لِصَوابِ ٱلاعْتِقادِ أوْ صَوابِ ٱلعَمَلِ لا بِقَوْلٍ إقْناعِيٍّ فَإنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُلائِمٍ لِهذِهِ ٱلصِّناعَةِ بَلْ بِقَوْلٍ مُحاكٍ فَإنَّ صِناعَةَ ٱلشِّعْرِ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلى ٱلاحْتِجاجِ وَٱلمُناظَرَةِ وَبِخاصَّةٍ صِناعَةُ ٱلمَديحِ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُ ٱلمَديحُ صِناعَةَ ٱلنِّفاقِ وَٱلأخْذِ بِٱلوُجوهِ كَما تَسْتَعْمِلُها ٱلخَطابَةُ. (قالَ) وَٱلصِّناعَةُ ٱلعِلْمِيَّةُ ٱلَّتي تُعَرِّفُ بِماذا تُعْمَلُ ٱلأشْعارُ وَكَيْفَ تُعْمَلُ أتَمُّ رِئاسَةً مِنْ عَمَلِ ٱلأشْعارِ فَإنَّ كُلَّ صِناعَةٍ تُوَقِّفُ ما تَحْتَها مِنَ ٱلصَّنائِعِ عَلى عَمَلِها هِيَ أرْأَسُ مِمّا تَحْتَها



البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فاذ قد قيل ما هي صناعة المديح ومماذا تلتئم وكم اجزاؤها وما هي فلنقل في الاشياء التي بها يكون حسن الامور التي يتقوم بها الشعر . فان القول في هذه الاشياء ضروري في صناعة المديح وفي غيرها وهو لها بمنزلة المبدإ وذلك ان الامور التي تتقوم منها الصنائع صنفان امور ضرورية وامور تكون بها اتم وافضل فنقول انه يجب ان تكون صناعة المديح مستوفية الغايات فعلها اعني ان تبلغ من التشبيه والمحاكاة الغاية التي في طباعها ان تبلغها وذلك يكون باشياء احدها ان يكون للقصيدة عظم ما محدود تكون به كلا وكاملة والكل والكامل هو ما كان له مبدأ ووسط وآخر والمبدأ قبل وليس يجب ان يكون مع الاشياء التي هو لها مبدأ والآخر هو مع الاشياء التي هو لها آخر وليس قبل والوسط هو قبل ومعا فهو افضل من الطرفين اذ كان الوسط في المكان قبل وبعد فان الشجعان هم الذين مكانهم في الحرب ما بين مكان الجبناء والمتهورين وهو المكان الوسط وكذلك الحد الفاضل في التركيب هو الوسط وهو الذي يتركب من الاطراف ولا تتركب الاطراف منه وليس يجب ان

يكون المتوسط وسطا اي خيارا في التركيب والترتيب فقط بل وفي المقدار واذا كان ذلك كذلك فقد يجب ان يكون للقصيدة اول ووسط وآخر وان يكون كل واحد من هذه الاجزاء وسطا في المقدار وكذلك يجب في الجملة المركبة منها ان تكون بقدر محدود لا ان تكون باي عظم اتفق وذلك ان الجودة في المركب تكون من قبل شيئين احدهما الترتيب والثاني المقدار ولهذا لا يقال في الحيوان الصغير الجثة بالاضافة الى اشخاص نوعه انه جيد. والحال في المخاطبة الشعرية في ذلك كالحال في التعليم البرهاني اعني ان التعليم ان كان قصير المدة لم يكن التفهم جيدا ولا ان كان اطول مما ينبغي لانه يلحق المتعلم في ذلك النسيان والحال في ذلك كالحال في النظر الى المحسوس اعني ان النظر الى المحسوس انما يكون جيدا اذا كان بين الناظر وبينه بعد متوسط لا اذا كان بعيدا منه جدا ولا اذا كان قريبا منه جدا. والذي يعرض في التعليم بعينه يعرض في الاقاويل الشعرية اعني انه اذا كانت القصيدة قصيرة لم تستوف اجزاء المديح وان كانت طويلة لم يكن ان تحفظ في ذكر السامعين اجزاؤها فيعرض لهم اذا سمعوا الاجزاء الاخيرة ان يكونوا قد نسوا الاولى واما الاقاويل الخطبية التي تستعمل في المناظرة فليس لها قدر محدود بالطبع ولذلك احتاج الناس ان يقدروا زمان المناظرة بين الخصوم اما بآلة الماء على ما جرت به

ٱلْعَادَةُ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ إِذْ كَانُوا إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَإِمَّا بِتَأْجِيلِ ٱلْأَيَّامِ كَٱلْحَالِ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ٱلْخُصُومَاتِ عِنْدَنَا إِنَّمَا هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ بِٱلْمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلْمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلْمَاءِ أَوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَٱلْحَالِ فِي ٱلْأَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ ٱلْمُتَكَوِّنَاتِ إِذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلْكَوْنِ سُوءُ ٱلْبَخْتِ صَارَتْ إِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ. كَذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ أَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ إِلَى ٱلضِّدِّ أَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَلَ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا يُحَسِّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ أَلَّا يُطَوَّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ أَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا أُومِيرُوشَ. وَأَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِنْدَ ٱلْمَدْحِ. أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ أَسْبَابِ ٱلْمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ أَوْ قَوْسٍ ٱشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَأَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

أعني أن تكون إنما تفعل جميع ما تفعله من أجل غرض واحد وغاية واحدة. وإذا كان ذلك كذلك فواجب أن يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصودًا به غرض واحد وأن يكون لأجزائه عظم محدود وأن يكون فيها مبدأ ووسط وآخر وأن يكون الوسط أفضلها فإن الموجودات التي وجودها في الترتيب وحسن النظام إذا عدمت ترتيبها لم يوجد لها الفعل الخاص بها. (قال) وظاهر أيضًا مما قيل من مقصد الأقاويل الشعرية أن المحاكاة التي تكون بالأمور المخترعة الكاذبة ليست من فعل الشاعر وهي التي تسمى أمثالًا وقصصًا مثل ما في كتاب دمنة وكليلة. لكن الشاعر إنما يتكلم في الأمور الموجودة أو الممكنة الوجود لأن هذه هي التي يقصد الهرب عنها أو طلبها أو مطابقة التشبيه لها على ما قيل في فصول المحاكاة. وأما الذين يعملون الأمثال والقصص فإن عملهم غير عمل الشعراء وإن كانوا قد يعملون تلك الأمثال والأحاديث المخترعة بكلام موزون. وذلك أن كليهما وإن كانا يشتركان في الوزن فأحدهما يتم له العمل الذي قصده بالخرافة وإن لم تكن موزونة وهو التعقل الذي يستفاد من الأحاديث المخترعة والشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل إلا بالوزن فالفاعل للأمثال المخترعة والقصص إنما يخترع أشخاصًا ليس لها وجود أصلًا ويضع لها أسماء وأما الشاعر فإنما يضع أسماء لأشياء موجودة وربما تكلموا في الكليات ولذلك كانت صناعة الشعر أقرب إلى الفلسفة من صناعة اختراع الأمثال وهذا الذي

قَالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلْأَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُحَاكَيَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا أَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ ٱلْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ إِلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ ٱلْإِقْنَاعُ فِيهَا أَكْثَرَ وُقُوعًا أَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ إِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ • وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلَّ ذَلِكَ مِثْلَ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ أَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ • وَهٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ أَفْعَالِ ذَلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَٱنْفِعَالَاتِهِ لِلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ • وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى :

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرٌ ... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِٱلْيَفَاعِ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ
رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَحَالَفَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرَافَاتِ وَٱلْأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَٱلْحَاكَاةِ وَهُوَ إِنَّمَا يَعْمَلُ ٱلتَّشْبِيهَ لِلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ يُحَاكِي ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مُمْكِنَةُ ٱلْوُجُودِ وَهُوَ فِي ذٰلِكَ شَاعِرٌ لَيْسَ بِدُونِ مَا هُوَ فِي مُحَاكَاةِ ٱلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ لَيْسَ مَانِعٌ يَمْنَعُ أَنْ تُوجَدَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ عَلَى مِثْلِ حَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ فِي ٱلتَّخْيِيلِ ٱلشِّعْرِيِّ إِلَى مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ ٱلْمُخْتَرَعَةِ وَلَا أَيْضًا يَحْتَاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ أَنْ تَتِمَّ مُحَاكَاتُهُ بِٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذِي يُدْعَى نِفَاقًا وَأَخْذًا بِٱلْوُجُوهِ فَإِنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْمُمَوِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ شُعَرَاءُ وَلَيْسُوا شُعَرَاءَ. وَأَمَّا ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْحَقِيقَةِ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ إِلَّا عِنْدَ مَا يُرِيدُونَ أَنْ يُقَابِلُوا بِهِ ٱسْتِعْمَالَ شُعَرَاءِ ٱلزُّورِ لَهُ وَأَمَّا إِذَا قَابَلُوا ٱلشُّعَرَاءَ ٱلْجَيِّدِينَ فَلَيْسَ يَسْتَعْمِلُونَهُ أَصْلًا. وَقَدْ يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَوَاضِعَ أَنْ يَسْتَعِينُوا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْ عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ لِلْأَشْيَاءِ ٱلْكَامِلَةِ ٱلَّتِي تُمْكِنُ مُحَاكَاتُهَا عَلَى ٱلتَّمَامِ بَلْ لِأَشْيَاءَ نَاقِصَةٍ تَعْسُرُ مُحَاكَاتُهَا بِٱلْقَوْلِ فَيُسْتَعَانُ عَلَى مُحَاكَاتِهَا بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا قَصَدُوا مُحَاكَاةَ ٱلْاعْتِقَادَاتِ لِأَنَّ تَخْيِيلَهَا يَعْسُرُ إِنْ كَانَتْ لَيْسَتْ أَفْعَالًا وَلَا جَوَاهِرَ وَقَدْ تَمْتَزِجُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ بِٱلْمُحَاكَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَحْيَانًا كَأَنَّهَا بِٱتِّفَاقٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَهَا فِعْلٌ مُعْجِبٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا أَنْ تَقَعَ بِٱتِّفَاقٍ مُعْجِبَةً

(قال) وكثير من الاقاويل الشعرية تكون جودتها في المحاكاة البسيطة الغير المتنفسة وكثير منها انما تكون جودتها في نفس التشبيه والمحاكاة وذلك ان الحال في التشبيه كالحال في الاعمال فكما ان من الاعمال ما ينال بفعل واحد بسيط ومنها ما ينال بفعل مركب كذلك الامر في المحاكاة. والمحاكاة البسيطة هي التي يستعمل فيها احد نوعي التخييل اعني النوع الذي يسمى الادارة او النوع الذي يسمى الاستدلال. واما المحاكاة المركبة فهي التي يستعمل فيها الصنفان جميعا وذلك اما بان يبتدأ بالادارة ثم ينتقل منه الى الاستدلال او يبتدأ بالاستدلال ثم ينتقل منه الى الادارة والاعتياد هو ان يبدأ بالادارة ثم ينتقل منه الى الاستدلال فانه فرق كبير بين ان يبدأ اولا بالادارة ثم ينتقل الى الاستدلال او يبدأ بالاستدلال ثم ينتقل الى الادارة. (قال) واعني بالادارة محاكاة ضد المقصود مدحه اولا بما ينفر النفس عنه ثم ينتقل منه الى محاكاة الممدوح نفسه مثلا انه اذا اراد ان يحاكي السعادة واهلها ابتدأ اولا بمحاكاة الشقاوة واهلها ثم انتقل الى محاكاة اهل السعادة وذلك بضد ما حاكى به اهل الشقاوة. واما الاستدلال فهو محاكاة الشيء فقط (قال) واحسن الاستدلال ما خالط بالادارة. (قال) وقد يستعمل الاستدلال والادارة في الاشياء الغير المتنفسة وفي المتنفسة لا من جهة ما يقصد به عمل

اوْ تَرْكٌ بَلْ مِنْ جهَةِ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمُطَابَقَةَ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِدْلَالِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلْغَالِبُ عَلَى اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ اَعْنِي ٱلِٱسْتِدْلَالَ وَٱلْإِدَارَةَ فِي غَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِي ٱلْاَعْرَابِ خَافِيَـةٍ

اَدْهَى وَقَدْ رَقَـدُوا مِنْ زَوْرَةِ ٱلذِّيبِ

اَزُورُهُمْ وَسَوَادُ ٱللَّيْـلِ يَشْفَعُ لِي

وَاَنْثَنِي وَبَيَـاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِي بِي

فَاِنَّ ٱلْبَيْتَ ٱلْاَوَّلَ هُوَ ٱسْتِـدْلَالٌ . وَٱلثَّانِي اِدَارَةٌ وَلَمَّا جَمَعَ هٰذَانِ ٱلْبَيْتَانِ صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ كَانَا فِي غَايَةٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ (قَالَ) وَٱلِٱسْتِدْلَالُ ٱلْاِنْسَانِيُّ وَٱلْإِدَارَةُ اِنَّمَا يُسْتَعْمَـلَانِ فِي ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِٱسْتِـدْلَالِ هُوَ ٱلَّذِي يُثِيرُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلرَّحْمَةَ تَارَةً وَٱلْخَوْفَ تَارَةً وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي نَحْتَاجُ اِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ مَدِيحِ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَهَجْوِ ٱلْقَبِيحَـةِ (قَالَ) فَهٰذَانِ ٱلْجُزْءَانِ ٱللَّذَانِ اَخْبَرْنَا عَنْهُمَا هُمَا جُزْءَا صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَهَاهُنَا جُزْءٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُوَلِّدُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةَ اَعْنِي ٱنْفِعَالَاتِ ٱلْخَوْفِ وَٱلرَّحْمَـةِ وَٱلْحُزْنِ وَهُوَ يَـكُونُ بِذِكْرِ ٱلْمَصَائِبِ وَٱلرَّزَايَا ٱلنَّازِلَةِ بِٱلنَّاسِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ هِيَ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلرَّحْمَـةَ وَٱلْخَوْفَ وَهُوَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْاَفْعَالِ ٱلَّتِي هِيَ مَقْصُودَةُ ٱلْمَدِيحِ عِنْدَهُمْ

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَامَّا اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ المَدِيحِ مِنْ بَابِ الكَيْفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا . وَامَّا اَجْزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ الكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي اَنْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هٰذَا المَعْنَى اَجْزَاءً خَاصَّةً بِاشْعَارِهِمْ وَالَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي اَشْعَارِ العَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ . الجُزْءُ الَّذِي يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَى الصَّدْرِ فِي الخُطْبَةِ وَهُوَ الَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ الدِّيَارَ وَالآثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَالجُزْءُ الثَّانِي المَدْحُ . وَالجُزْءُ الثَّالِثُ الَّذِي يَجْرِي مَجْرَى الخَاتِمَةِ فِي الخُطْبَةِ وَهٰذَا الجُزْءُ اَكْثَرَ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ اِمَّا دُعَاءٌ لِلْمَمْدُوحِ وَامَّا فِي تَقْرِيضِ الشِّعْرِ الَّذِي قَالَهُ وَالجُزْءُ الاَوَّلُ اَشْهَرُ مِنْ هٰذَا الآخِرِ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَ الاِنْتِقَالَ مِنَ الجُزْءِ الاَوَّلِ اِلَى الثَّانِي اَسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اَتَوْا بِالمَدِيحِ دُونَ صَدْرٍ . مِثْلُ قَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

لَهَانَ عَلَيْنَا اَنْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ اَبِي الطَّيِّبِ :

لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَعْدِيدِ اَجْزَاءِ الشِّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَامَّا اَجْزَاءُ صِنَاعَةِ المَدِيحِ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الكَيْفِيَّةِ وَالَّتِي مِنْ جِهَةِ الكَمِّيَّةِ فَقَدْ

أخبرنا بها. فأما من أي المواضع يمكن عمل صناعة المديح فنحن مخبرون عنها بعد ومضيفون ذلك الى ما تقدم (قال) وينبغي كما قيل ان لا يكون تركيب المدائح من محاكاة بسيطة بل مخلوطة من انواع الاستدلالات وانواع الادارة ومن المحاكاة التي توجب الانفعالات المخيفة المحركة المرققة للنفوس وذلك انه يجب ان تكون المدائح التي يقصد بها الحث على الفضائل مركبة من محاكاة الفضائل ومن محاكاة اشياء مخوفة محزنة يتفجع لها وهي الشقاوة التي تحق من عدم الفضائل لا باستيهال وذلك ان بهذه الاشياء يشتد تحرك النفس لقبول الفضائل فان انتقال الشاعر من محاكاة فضيلة الى محاكاة لا فضيلة او من محاكاة فاضل الى محاكاة لا فاضل ليس فيه شيء مما يحث الانسان ويزعجه الى فعل الفضائل اذا كان ليس يوجب محبة لها زائدة ولا خوفا. والاقاويل المديحية يجب ان يوجد فيها هذان الامران وذلك يكون اذا انتقل من محاكاة الفضائل الى محاكاة الشقاوة ورداءة البخت النازلة بالافاضل او انتقل من هذه الى محاكاة اهل الفضائل فان هذه المحاكاة ترق النفوس وتدعها الى قبول الفضائل وانت تجد اكثر المحاكاة الواقعة في الاقاويل الشرعية على هذا النحو الذي ذكر اذ كانت تلك هي اقاويل مديحية تدل على العمل مثل ما ورد من حديث يوسف واخوته وغير ذلك من الاقاصيص التي تسمى مواعظ (قال) وانما تحدث الرحمة والرقة بذكر حدوث الشقاوة

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ . وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُم أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِىءُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلْاِنْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخَيُّلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلْأَصْدِقَاء. وَامَّا عَدُوُّ ٱلْعَدُوِّ اَوْ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيْسَ يُذْكَرُ لَا فِي ٱلْمَدْحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ اِذْ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عَدُوًّا (قَالَ) وَيَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلْمُخِيفَةُ ٱلْمُحْزِنَةُ مُخْرَجُهَا مُخْرَجَ مَا يَقَعُ تَحْتَ ٱلْبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصْدِيقِ بِهَا لِاَنَّهُ اِذْ كَانَتِ ٱلْخُرَافَةُ مَشْكُوكًا فِيهَا اَوْ اُخْرِجَتْ مُخْرَجَ مَشْكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفْعَلِ ٱلْفِعْلَ ٱلْمَقْصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ اَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلْمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفْزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشْفِقُ لَهُ. وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي اَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلْقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَجِيئُونَ اَرَاذِلَ لِاَنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبْعِ لِاَحَدِ قَوْلَيْنِ اِمَّا قَوْلٍ بُرْهَانِيٍّ وَامَّا قَوْلٍ لَيْسَ بُرْهَانِيًّا. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدْخِلُ فِي ٱلْمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ اَشْيَاءَ يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحْزِنَةً وَاَنْتَ تَجِدُ مِثْلَ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلْمَكْتُوبَاتِ ٱلشَّرْعِيَّةِ اِذْ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلْفَضَائِلِ لَيْسَ تُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَاِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلْمَكْتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلْفِعْلُ لَيْسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ بِوَجْهٍ مِنَ ٱلْوُجُوهِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَيْسَ يُقْصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ اَيُّ لَذَّةٍ ٱتَّفَقَتْ لٰكِنْ اِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِتَخْيِيلِ ٱلْفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلْمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعْلُومٌ مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يَلْحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزْنٌ وَلَا خَوْفٌ. وَامَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ مَعَ ٱلِٱلْتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحْمَةَ وَٱلْخَوْفَ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ ٱلْإِنْسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلْتَمَسَ . أَيَّ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعْبَةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيَّ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْيَسِيرَةُ ٱلْهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كَبِيرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٍ وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَصْدِقَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَعْدَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ يَلْحَقُ مِثْلَ ٱلْأَلَمِ ٱلَّذِي يَلْحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ مِنَ ٱلْمُحِبِّينَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ مِثْلَ قَتْلِ ٱلْإِخْوَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ ٱلْآبَاءِ ٱلْأَبْنَاءَ أَوِ ٱلْأَبْنَاءِ ٱلْآبَاءَ وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي ٱبْنِهِ فِي غَايَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُوجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَٱلْخَوْفِ (قَالَ) وَٱلْمَدْحُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ ٱلَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ لِأَنَّ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا يَعْرِفُ فَٱلْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ حِينَئِذٍ فِي ٱلْأُكْذُوبَاتِ أَدْخَلَ مِنْهُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى . وَأَمَّا ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وَعَنْ مَعْرُوفِينَ فَمَا أَحْسَنَ ٱلِاسْتِدْلَالَ ٱلَّذِي يَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ (قَالَ) فَأَمَّا فِي حُسْنِ قِوَامِ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُرَكَّبُ مِنْهَا ٱلْأَشْعَارُ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا فَقَدْ قُلْنَا فِي ذٰلِكَ قَوْلًا كَافِيًا فَأَمَّا أَيُّ ٱلْعَادَاتِ هِيَ ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تُحَاكَى فِي ٱلْمَدْحِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ نَقُولَ فِيهَا فَنَقُولُ إِنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تُحَاكَى عِنْدَ ٱلْمَدْحِ ٱلْجَيِّدِ أَعْنِي ٱلَّذِي يَحْسُنُ مَوْقِعُهَا مِنَ ٱلسَّامِعِينَ أَرْبَعَةٌ إِحْدَاهَا ٱلْعَادَاتُ ٱلَّتِي هِيَ خَيِّرَةٌ وَفَاضِلَةٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ فَإِنَّ ٱلَّذِي يُؤَثِّرُ فِي ٱلنَّفْسِ هُوَ مُحَاكَاةُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحَقِّ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَمْدُوحِ وَكُلُّ جِنْسٍ فَفِيهِ خَيْرٌ مَا وَإِنْ كَانَ فِيهِ أَشْيَاءُ لَيْسَتْ خَيْرًا. وَٱلثَّانِيَةُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعَادَاتُ مِنَ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَتَخْتَصُّ لَهُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَادَاتِ ٱلَّتِي تَلِيقُ بِٱلْمَرْأَةِ لَيْسَتْ تَلِيقُ بِٱلرَّجُلِ. وَٱلثَّالِثَةُ أَنْ تَكُونَ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِيهِ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ فِيهِ مِنَ ٱلشَّبَهِ وَٱلْمُوَافَقَةِ. وَٱلرَّابِعَةُ أَنْ تَكُونَ مُعْتَدِلَةً مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ ٱلْأَطْرَافِ وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْعَوَائِدَ ٱلرَّذْلَةَ لَيْسَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي لَا تَلِيقُ بِٱلْمَمْدُوحِ وَإِنْ كَانَتْ جِيَادًا وَكَذٰلِكَ ٱلْعَوَائِدُ ٱللَّائِقَةُ إِذَا لَمْ تُوجَدْ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمْكِنُ فِيهَا مِنَ ٱلْمُشَابَهَةِ أَوْ لَمْ تُوجَدْ مُسْتَوْفَاةً وَٱلْعَوَائِدُ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَتَدُلُّ عَلَى ٱلْخُلُقِ ٱلْخَيِّرِ ٱلْفَاضِلِ مِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَمِنْهَا مَا هِيَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ وَمِنْهَا مَا هِيَ شَبِيهَةٌ بِهٰذَيْنِ وَٱلْعَوَائِدُ ٱلْجِيَادُ إِمَّا حَقِيقِيَّةٌ وَإِمَّا شَبِيهَةٌ بِٱلْحَقِيقِيَّةِ وَإِمَّا مَشْهُورَةٌ أَوْ شَبِيهَةٌ بِٱلْمَشْهُورَةِ وَكُلُّ

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِإِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَأَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ إِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا إِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى أَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكُسَالَى مَعَ أَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْأَخْلَاقَ وَأَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِأُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ إِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

أَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ
يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسَّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ ... إِلَيْكَ إِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْأَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَأَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَأَنْوَاعُ ٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى أَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ فَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ ٱلْمُحَاكَاةُ لِأَشْيَاءَ مَحْسُوسَةٍ بِأَشْيَاءَ مَحْسُوسَةٍ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُوقِعَ ٱلشَّكَّ لِمَنْ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتُوهِمُ أَنَّهَا هِيَ لِاشْتِرَاكِهَا فِي أَحْوَالٍ مَحْسُوسَةٍ وَذَلِكَ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمْ لِبَعْضِ صُوَرِ ٱلْكَوَاكِبِ سَرَطَانًا وَلِبَعْضِهَا مُمْسِكَ ٱلْحَرْبَةِ لِأَنَّهَا مِنْ جِهَةِ ٱلشَّكْلِ يُمْكِنُ أَنْ يَتَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أَنَّهَا هِيَ هِيَ. وَجُلُّ تَشْبِيهَاتِ ٱلْعَرَبِ رَاجِعَةٌ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ حُرُوفُ ٱلتَّشْبِيهِ عِنْدَهُمْ تَقْتَضِي ٱلشَّكَّ وَكُلَّمَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْمُتَوَهَّمَاتُ أَقْرَبَ إِلَى وُقُوعِ ٱلشَّكِّ كَانَتْ أَتَمَّ تَشْبِيهًا وَكُلَّمَا كَانَتْ أَبْعَدَ مِنْ وُقُوعِ ٱلشَّكِّ كَانَتْ أَنْقَصَ تَشْبِيهًا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلْبَعِيدَةُ وَيَنْبَغِي أَنْ تُطْرَحَ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ:

كَأَنَّهَا هِرَاوَةُ مِنْوَالِ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

إِذَا أَقْبَلَتْ قُلْتَ دُبَّاءَةٌ   مِنَ ٱلْخُضْرِ مَغْمُوسَةٌ فِي ٱلْغُدُرْ
وَإِنْ أَدْبَرَتْ قُلْتَ أُثْفِيَّةٌ   مُلَمْلَمَةٌ لَيْسَ فِيهَا أَثَرْ

وَإِنْ كَانَ هٰذَا أَقْرَبَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لِأَنَّ فِيهِ مُقَابَلَةً مَا. وَمِنْهَا أَنْ تَكُونَ ٱلْمُحَاكَاةُ لِأُمُورٍ مَعْنَوِيَّةٍ بِأُمُورٍ مَحْسُوسَةٍ إِذْ كَانَ لِتِلْكَ ٱلْأُمُورِ أَفْعَالٌ مُنَاسِبَةٌ لِتِلْكَ ٱلْمَعَانِي حَتَّى تُوهِمَ أَنَّهَا هِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ فِي ٱلْمِنَّةِ إِنَّهَا طَوْقُ ٱلْعُنُقِ وَفِي ٱلْإِحْسَانِ قَيْدٌ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ:

وَمَنْ وَجَدَ ٱلْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ أَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَإِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ. وَأَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُتُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبَا

وَكَمَا أَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَاهُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا أَيْضًا وَأَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ. فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ ... فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ أَنَّهُمْ ... سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا

وَكَانُوا كَفَارٍ وَشْوَشُوا خَلْفَ حَائِطٍ ... وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْإِقْنَاعِ أَدْخَلُ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْمِثَالَاتِ ٱلْخُطَبِيَّةِ مِنْهَا إِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلـهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا   لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ

تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا   وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيْتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ   لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى   دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى

فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي

دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا

أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا   وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أَبَى ٱلصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ
إِذَا مَا بَيَاضُ ٱلصُّبْحِ آنَسْتُ ضَوْءَهُ يُعَاوِدُنِي رَجْعٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا ٱلمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا ٱلأَحِبَّةَ بِٱلدِّيَارِ وَٱلأَطْلَالِ كَمَا قَالَ :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ ٱلعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ ٱلأَحِبَّةِ بِٱلخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ ٱلمُتَخَيَّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلبُيُوتِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلسِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ ٱلعَرَبِ وَٱلمُحْدَثِينَ فِي ٱلخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَأَنْحَاءُ ٱسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلمَوَاضِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلخَاصَّةِ بِٱلنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي ٱلرِّثَاءِ كَمَا قَالَ ٱلبُحْتُرِيُّ :

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلخَلْقِ أَوِ ٱلخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلقَيْسِ :

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلَا

وَٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ خِلَافُ ٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَٱلتَّصْرِيحَ بِٱلشَّبِيهِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ ٱلشَّبَهِ وَهُوَ ٱلغَايَةُ فِي

مُطَابَقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ... وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ ... صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ... وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكُ ٱلدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ ... لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ

مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ أَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَأَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ

وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ أَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ ٱلدِّمَاءِ ٱلْمَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ :

لَبِسْنَ ٱلْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ   وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ ٱلْجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ ٱلْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ   وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي ٱلشَّعَرِ ٱلضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْعَرَبُ وَهُوَ إِقَامَةُ ٱلْجَمَادَاتِ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ إِذَا كَانَتْ فِيهَا أَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلنُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَأَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَأَيْتُهُ   وَكَبَّرَ لِلرَّحْمٰنِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ ٱلَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ   حَوَالَيْكَ فِي أَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ   وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَبْقَى عَلَى ٱلْحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ ٱلدِّيَارَ وَٱلْأَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي ٱلرُّمَّةِ :

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ   تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ :

أَعْيَاكَ رَسْمُ ٱلدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ   حَتَّى تَكَلَّمَ كَٱلْأَصَمِّ ٱلْأَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِٱلْجِوَاءِ تَكَلَّمِي   وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَٱسْلَمِي

إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ وَذَكَرَ أَنَّ أُومِيرُوشَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَٱلِٱسْتِدْلَالُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْإِدَارَةُ إِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ

الإرادية وأكثر ما يوجد هذا النوع من الاستدلال في الكتاب العزيز أعني في مدح الأفعال الفاضلة وذم الأفعال الغير فاضلة وهو قليل في أشعار العرب. ومثال الإدارة في المدح قول القرآن: ضرب الله مثلاً كلمة طيبة إلى قوله: ما لها من قرار. ومثال الاستدلال. قوله: كمثل حبة أنبتت سبع سنابل الآية.

(قال) وإجادة القصص الشعري والبلوغ به إلى غاية التمام إنما يكون متى بلغ الشاعر من وصف الشيء أو القضية الواقعة التي يصفها مبلغاً يري السامعين له كأنه محسوس ومنظور إليه ويكون مع هذا ضده غير ذاهب عليهم من ذلك الوصف وهذا يوجد كثيراً في شعر الفحول والمفلقين من الشعراء لكن إنما يوجد هذا النحو من التخييل للعرب إما في أفعال غير عفيفة وإما فيما القصد منه مطابقة التخييل فقط فمثال ما ورد من ذلك في الفجور قول امرئ القيس:

سموت إليها بعد ما نام أهلها ... سمو حباب الماء حالاً على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحي ... ألست ترى السمار والناس أحوالي
فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ومثال ما ورد من ذلك مما القصد به مطابقة التشبيه فقط قول ذي الرمة يصف النار:

وسقط كعين الديك عاورت صحبتي
أباها وهيأنا لموقعها وكرا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعِهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قُتَةً قَدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يُحَصِّلَ ٱلْإِنْسَانُ أَوَّلًا جَمِيعَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلْاِسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلْاِسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ . وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا . وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ ... مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا   لِلطَّيْرِ عِيداً مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ
هَيْهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ   حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ الْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَانَسَ هٰذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا انْتَسَبَا

وَأَمَّا الْحَلُّ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيراً فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا الْإِدَارَةُ. وَالثَّانِي الِاسْتِدْلَالُ. وَالثَّالِثُ الِانْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَالرَّابِعُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ اثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَثِيراً (قَالَ) وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ الْقَوْلَ فِي الْقَصَائِدِ الْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا الْمُقَطَّعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنْ

ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْصُوفَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ أَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهٰؤُلَاءِ تَجُودُ أَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هٰؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقَصِّدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّي وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا أَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْأَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَأَمْثِلَةُ هٰذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذْ أَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَأَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هٰذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلْأَنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هٰذِهِ أَيْضًا فَنَقُولُ: إِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْأَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْأَنْفِعَالِيَّةَ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ تُرِي ٱلْأَنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱسْتَيْقَنَ. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلِانْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلِانْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَفْعَلُهَا هٰذِهِ ٱلأَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلأَفْعَالُ أَخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلِانْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تَثْبُتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ أَوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ هَا هُنَا أَقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِانْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَأَشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِانْفِعَالَاتِ وَأَنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ لَهَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ إِنِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَإِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَإِمَّا فِي ٱلأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَإِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلأَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَأَمَّا ٱلأَقَاوِيلُ ٱلِانْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْقَوْلِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ أَنْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلأُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ وَإِنَّهَا تَهْجُنُهَا إِذْ كَانَتْ هٰذِهِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ أَنْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا إِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَإِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلنَّاصِرِ بِمَحْضَرِ ٱلْمَلَإِ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايَ ٱلْيَهُودِيِّ:

إِنَّ ٱلَّذِي شُرِّفْتَ مِنْ أَجْلِهِ　　يَزْعُمُ هٰذَا أَنَّهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي إِغْضَابِ ٱلنَّاصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سَمْتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلْقَائِلَ إِذَا كَانَ بِٱلسَّمْتِ وَٱلْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْأَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلْأَخْذَ بِٱلْوُجُوهِ. وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ ٱلْقَوْلِ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلْأَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ وَذٰلِكَ أَنَّ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلْآمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ أَوِ ٱلْمُتَضَرِّعِ فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ ٱلْأَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّ تِلْكَ إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعرية

(من ٱلكتاب نفسه)

(قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تَدُلُّ تِلْكَ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا مِثْلُ عَبْدِ شَمْسٍ وَعَبْدِ ٱلْقَيْسِ (قَالَ) وَكُلُّ ٱسْمٍ فَهُوَ اما حَقِيقِيٌّ وَإِمَّا دَخِيلٌ فِي ٱللِّسَانِ وَإِمَّا مَنْقُولٌ نَادِرُ ٱلْإِسْتِعْمَالِ وَإِمَّا مُزَيَّنٌ وَإِما مَعْمُولٌ وَإِمَّا مَعْقُولٌ وَإِمَّا مُفَارِقٌ وَإِمَّا مُغَيَّرٌ . فَٱلْحَقِيقِيُّ هُوَ ٱلْإِسْمُ ٱلَّذِي يَكُونُ خَاصًّا بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وَٱلدَّخِيلُ هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ لِأُمَّةٍ أُخْرَى فَيُدْخِلُهُ ٱلشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ ٱلْإِسْتَبْرَقِ وَٱلْمِشْكَاةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأَعْجَمِيَّةِ ٱلدَّخِيلَةِ فِي لِسَانِ   أَمَّا ٱلْإِسْمُ ٱلنَّادِرُ ٱلْمَنْقُولُ فَهُوَ نَقْلُ ٱسْمٍ غَرِيبٍ إِمَّا مِنَ ٱلنَّوعِ إِلَى ٱلْجِنْسِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْقَتْلِ مَوْتًا وَإِمَّا مِنَ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلنَّوْعِ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلنُّقْلَةِ حَرَكَةً وَإِمَّا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِثْلُ تَسْمِيَةِ ٱلْخِيَانَةِ سَرِقَةً وَإِمَّا أَنْ يُنْقَلَ شَيْءٌ مَنْسُوبٌ إِلَى ثَانٍ إِلَى شَيْءٍ ثَالِثٍ مَنْسُوبٍ إِلَى رَابِعٍ مِثْلُ نِسْبَةِ ٱلْأَوَّلِ إِلَى ٱلثَّانِي مِثْلَ مَا كَانَ يُسَمِّي بَعْضُ ٱلْقُدَمَاءِ ٱلشَّيْخُوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلْعُمْرِ وَيُسَمِّي ٱلْعَشِيَّةَ شَيْخُوخَةَ ٱلنَّهَارِ وَذٰلِكَ أَنَّ نِسْبَةَ ٱلشَّيْخُوخَةِ إِلَى ٱلْعُمْرِ نِسْبَةُ ٱلْعَشِيَّةِ إِلَى ٱلنَّهَارِ وَأَمَّا ٱلْإِسْمُ ٱلْمَعْمُولُ ٱلْمُرْتَجَلُ فَهُوَ ٱلْإِسْمُ ٱلَّذِي يَخْتَرِعُهُ ٱلشَّاعِرُ ٱخْتِرَاعًا وَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ مَنِ ٱسْتَعْمَلَهُ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ ذٰلِكَ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وَأَكْثَرُ مَا فِي ٱلصَّنَائِعِ هُوَ مَنْقُولٌ لَا مَعْمُولٌ مُخْتَرَعٌ وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُحْدَثُونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِسْتِعَارَةِ أَعْنِي ٱلْمَنْقُولَ إِلَى ٱلصَّنَائِعِ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ :

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ ٱلْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَأَمَّا ٱلْمُفَارَقُ وَٱلْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ. وَٱلْمُزَيَّنَةُ هِيَ أَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ أَجْزَائِهَا نَغَمًا فَتَزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ يَعْنِي بِٱلْمُفَارَقِ ٱلْأَسْمَاءَ ٱلْمُغَيَّرَةَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا وَٱلنُّقْصَانِ مِنْهَا وَٱلْحَذْفِ أَوِ ٱلْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذَلِكَ ٱلْأَسْمَاءَ ٱلَّتِي يَعْسُرُ ٱلنُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ ٱسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَٱلِٱسْمُ ٱلْمَعْقُولُ فَإِنَّـهُ فِيمَا أَحْسِبُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ ٱلْمُخْتَلَفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ ٱلِٱسْمُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلنُّقْصَانِ مِثْلُ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَأَمَّا ٱلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ ٱلْمُسْتَعَارَةُ ٱلَّتِي تُسْتَعَارُ إِمَّا مِنَ ٱلشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلْكَوْكَبَ نَسْرًا وَإِمَّا مِنَ ٱلضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّمْسَ جَوْنَةً وَإِمَّا مِنَ ٱللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّحْمَ نَدًا وَٱلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَأَفْضَلُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلتَّفْهِيمِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلْمُبْتَذَلُ ٱلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ وَهَذِهِ ٱلْأَقَاوِيـلُ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ ٱلْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْمُتَوَلِّيَـةَ وَٱلْأَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذَلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَتَفَقَّدَ مَنِ ٱلْغَالِبُ عَلَى أَشْعَارِهِ هَذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ (قَالَ) وَٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْعَفِيفَـةُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ

فهي الاقاويل التي تؤلف من الاسماء المبتذلة ومن الاسماء الاخر اعني المنقولة الغريبة المغيرة واللغوية لانه متى تعرى الشعر كله من الالفاظ الحقيقية المتولية كان رمزا ولغزا ولذلك كانت الالغاز والرموز هي التي تؤلف من الاسماء الغريبة اعني بالغريبة المنقول المستعار والمشترك واللغوي . والرمز واللغز هو القول الذي يشتمل على معان لا يمكن او يعسر اتصال تلك المعاني التي يشتمل عليها بعضا ببعض حتى يطابق بذلك احد الموجودات . ويكون اما بحسب الالفاظ المشهورة فاتصال تلك المعاني بعضها ببعض غير ممكن واما بحسب الالفاظ الغير المشهورة فممكن وذلك كثير في شعر ذي الرمة من شعراء العرب . وفضيلة القول الشعري العفيفي ان يكون مؤلفا من الاسماء المتولية من تلك الانواع الاخر وان يكون الشاعر حيث يريد الايضاح يأتي بالاسماء المتولية وحيث يريد التعجب والالتذاذ يأتي بالصنف الاخر من الاسماء ولذلك قد يتضاحك بمن يريد الايضاح فيأتي بالاسماء المشتركة او الغريبة او الالسن او المعمولات ويتضاحك ايضا بمن يريد التعجب والالتذاذ فيأتي بالاسماء المبتذلة وكان الشاعر يجب له الا يفرط في استعمال الاسماء الغير المتولية فيخرج الى حد الرمز ولا ايضا يفرط في الاسماء المتولية فيخرج عن طريقة الشعر الى الكلام المتعارف (قال) واما موافقة الالفاظ بعضها لبعض في المقدار

وَمُعَادَلَةُ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَمُوَازَنَتُهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِجَمِيعِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ ٱلشُّعَرَاءَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَتَأَتَّى بِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَلٰكِنْ كَانَ هٰذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي تَأْتَلِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِيهَا أَبْيَنُ وَمُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي ذُكِرَ فِي ٱلْمِقْدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ ٱلْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ مَعَ هٰذَا فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَٱلْمُوَافَقَةُ أَنْحَاءٌ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا تَخْلُو ٱلْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ طَوِيلُ ٱلْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

عَلَى قَدْرِ أَهْـلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلْـكِرَامِ ٱلْمَـكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَـةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ ٱلْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ ٱلْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا أَعْنِي فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشَـكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَـةِ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

أُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ ٱلضَّرْبِ وَٱلضَّرَبِ وَٱلْحَمْـلِ وَٱلْحَمَلِ وَأَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُخْتَلِفَـةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلُ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلْقَوَافِي عِنْدَ ٱلْعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْآخِرُ وَإِمَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَرِّفُهُ ٱلْمُحْدَثُونَ بِٱللُّزُومِ وَأَمَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي أَجْزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى أَنْحَاءٍ أَرْبَعَةٍ أَحَدُهَا أَنْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَضْدَادِ مِثْلَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ أَوْ يَأْتِيَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْإِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ إِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ. وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبُ

لِأَنَّ ٱلدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنِّيَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالِ

إِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَإِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْأَوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ
كَأَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ
تَمُرُّ بِكَ ٱلْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

إِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ أَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْأَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلأَوَّلِ وَمَا قَالَهُ ابُو ٱلطَّيِّبِ لَهُ وَجهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ امْرُؤُ ٱلقَيْسِ (قَالَ) وَٱلقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا اي مُغَيَّرًا عَنِ ٱلقَوْلِ ٱلحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلأَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلمِقْدَارِ وَبِٱلأَسْمَاءِ ٱلغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ انْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى انَّ ٱلقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلمُغَيَّرُ انَّهُ اذَا غُيِّرَ ٱلقَوْلُ ٱلحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا اوْ قَوْلًا شِعْرِيًا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ   وَمَسَّحَ بِٱلأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
اخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلمَطِيِّ ٱلأَبَاطِحُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ انَّهُ ٱسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

اخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلأَحَادِيثِ بَيْنَنَا   وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلمَطِيِّ ٱلأَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلآخَرِ:

يَا دَارُ ايْنَ ظِبَاؤُكِ ٱللُّعْسُ   قَدْ كَانَ لِي فِي إِنْسِهَا انْسُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِأَنَّهُ اقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَابْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَاتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلإِنْسِ وَٱلأُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَانْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ ٱلأَشْعَارَ ٱلمُحَرَّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تكونُ بالموازنة والمدافعة والابدال والتشبيه وبالجملة باخراج القول غيرَ مخرج العادة مثلُ القلب والحذف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير وتغيير القول من الايجاب الى السلب ومن السلب الى الايجاب وبالجملة من المقابل الى المقابل وبالجملة بجميع الانواع التي تسمَّى عندنا مجازًا فالحذف مثل قول القرآن واسال القرية. وقوله: ولو انَّ قرآنًا سُيِّرت به الجبالُ او قُطِّعت به الارضُ او كُلِّم به الموتى. والقلبُ مثلُ قول القائل: فلانٌ من اجل بنيه لا بنوهُ من اجله والسُّنَّةُ سببُ الانسان لا الانسانُ سببُ السُّنَّة. والتقديمُ والتأخيرُ مثلُ قوله: ولم يجعل له عوجًا قيِّمًا. وقوله: واذ ابتلى ابراهيمَ ربُّهُ. والزيادةُ مثلُ قوله: تنبتُ بالدهن ومثلُ قوله: ليس كمثله شيءٌ ومثلُ قوله ولا طائرٍ يطير بجناحيه ومثالُ التغيير من الايجاب الى السلب قولُ القائل: ما فعله احدٌ الّا انت بدلَ قوله: انت فعلته ومن هذا المعنى قولُ النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ ٱلْكَتَائِبِ

فانه اوجب لهم الفضائل لينفي العيوب واستثنى منها ما ليس بعيب على جهة تسمية الشيء باسم ضده. ومن التغييرات اللذيذة جمعُ الاضداد في شيء واحد كقوله:

فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ

وكونُ الضدِّ سببًا لضدِّه كقوله: ولكم في القصاص حياةٌ وليس يخفى عليك انواعها البسيطةُ والمركَّبةُ المحصورةُ في هذه الكليات

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ إِحْصَاءُ أَنْوَاعِهَا ٱلْأَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ ٱقْتَصَرَ هُنَا عَلَى ٱلْكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَٱلْفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هُوَ أَنْ يُسْتَعْمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ أَبْيَنُ وَأَظْهَرُ وَأَشْبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَبْيَنِ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْأَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ ٱلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا ٱلصِّنْفُ هُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ ٱلْإِفْهَامِ فِعْلَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَعْنِي تَحْرِيكَ ٱلنَّفْسِ مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِبْدَالَ إِذَا كَانَ شَدِيدَ ٱلشَّبَهِ أَفَادَ جُودَةَ ٱلتَّخْيِيلِ وَٱلْإِفْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ ٱلْإِبْدَالِ ٱلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهْمٍ عِنْدَ ٱلْقُدَامِ مِنَ ٱلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَوْلِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ أَنْ ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ ٱلْخَيْطُ ٱلْحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ ٱلْفَجْرِ. (قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُرَكَّبَةُ تَصْلُحُ لِلْوَزْنِ ٱلَّذِي يُثْنَى فِيهِ عَلَى ٱلْأَخْيَارِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَهٰذِهِ ٱلْأَسْمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ ٱلْوُجُودِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهِيَ مِثْلُ قَوْلِهِمِ ٱلْعَبْشَمِيُّ ٱلْمَنْسُوبُ إِلَى عَبْدِ شَمْسٍ. وَأَمَّا ٱللُّغَاتُ فَتَصْلُحُ لِلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ أَمْرُ ٱلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ ٱلْأَهْوَالِ وَكَانَ صِنْفًا مِنَ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ مَعْرُوفًا. وَأَمَّا ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمَنْقُولَةُ ٱلْغَرِيبَةُ فَتَخْتَصُّ بِٱلْأَشْعَارِ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْقِصَصِ ٱلْمَشْهُورَةِ



البحث الثامن

في صناعة الاشعار القَصصية

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَفِيمَا قُلْنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ ٱلْأَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ . وَٱلْأَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ فِيهَا وَإِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ أَحْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ أَحْوَالِ ٱلْمُتَأَخِّرِ وَكَيْفَ تَنْتَقِلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْأَيَّامُ . وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ . وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَأَثْنَى ثَنَاءً عَامًّا عَلَى أُومِيرُوشَ . وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ :

مَاذَا أُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
أَرْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِأَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ ... مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَأَرَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قالَ) وَأجزاءُ هٰذا ٱلنَّوعِ هِيَ اجزاءُ صِناعةِ ٱلمديحِ العفيفيَّة مِنَ ٱلإدارةِ وَٱلاستدلالِ وَٱلتَّركيبِ منهما. ورُبَّما كانَ بعضُ اجزائها انفعاليا كالحالِ في صناعةِ ٱلمديحِ . وصنائعُ ٱلشِّعرِ واحكامُها في ٱلتَّلحينِ وٱلغناءِ احكامُ صناعةِ ٱلمديحِ . وذكرَ فروقًا بَينَ صناعةِ ٱلمديحِ وبَينَ صنائعِ ٱلشِّعرِ ٱلأُخرِ عندهم وخواص تختصُّ بها تلكَ ٱلأشعارُ ٱلأُخَرُ في ٱلاوزانِ وَٱلاجزاءِ وَٱلمحاكاةِ وَٱلقدرِ وَانَّ هاهُنا اوزانًا هِيَ ٱلَّتي بعضِ ٱلأشعارِ مِنْ بعضٍ وذكرَ مَنْ اجادَ مِنَ ٱلشُّعراءِ في هٰذهِ ٱلأشياءِ ومَنْ لم يُجِدْ واثنى في هٰذا كلِّه على اوميروش وكلُّ ذٰلكَ خاصٌّ بهم وغيرُ موجودٍ مثالُهُ عِندنا إمَّا لانَّ ذٰلكَ ٱلَّذي ذكرَ غيرُ مشتركٍ للأكثرِ مِنَ ٱلأُممِ وإمَّا انَّهُ عَرَضَ للعربِ في هٰذهِ ٱلأشياءِ امرٌ خارجٌ عنِ ٱلطَّبعِ وهُوَ ابينُ فإنَّهُ ما كانَ ليُثبتَ في كتابِهِ هٰذا ما هُوَ خاصٌّ بهم بلْ ما هُوَ مشتركٌ للأُممِ ٱلطَّبيعيَّة

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من ٱلكتاب نفسه)

ويَنبغي انْ يكونَ ما يأتي بهِ ٱلشَّاعرُ مِنَ ٱلكلامِ يسيرًا بالإضافةِ إلى ٱلكلامِ ٱلمحاكى كما كانَ يفعلُ اوميروشُ فإنَّهُ إنَّما كانَ يعملُ صدرًا يسيرًا ثُمَّ يتخلَّصُ إلى ما يُريدُ محاكاتَهُ مِنْ غيرِ انْ يأتيَ في ذٰلكَ بشيءٍ لم يُعتَدْ لكنْ ما قدِ اعتيدَ فإنَّ غيرَ ٱلمعتادِ

مُنْكَرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحْسَبُ لِأَنَّ لِلْأُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ:

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ ... إِثَارَةَ نَبَّاثِ ٱلْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمُ ٱلضَّبَّ بِٱلنُّونِ لِمَكَانِ ٱلسَّرَابِ ٱلْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ ٱلْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِإِيرَادِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ ٱلنُّطْقِ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ ٱسْمُ ٱلْفَصَاحَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلُ ظَاهِرَ ٱلصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ ٱلصِّدْقَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ ٱلْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّغْيِيرِ وَٱلْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَٱلْغَلَطُ ٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ. أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ يَصِفُ ٱلْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ:

أُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ ... قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ ٱلشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَهْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ ٱلْأَشْرَارِ بِٱلشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لَا فِي ٱلْأَقَلِّ أَوْ عَلَى ٱلتَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْوُجُودِ هُوَ ٱلْيَقُ بِٱلْخَطَابَةِ مِنْهُ بِٱلشِّعْرِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّانِي مِنْ غَلَطِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ ٱلْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ يَزِيدَ فِي ٱلصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ ٱلرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ ٱلْحَيَوَانِ ذِي ٱلْأَرْبَعِ وَٱلْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ ٱلْفَرَسَ :

وَعَلَى أُذَيْنِهِ أُذْنٌ ثَالِثٌ   مِنْ سِنَانِ ٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلْأَزْرَقِ

وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلنَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ ٱلتَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَٱلْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشْبِهَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ ٱلنَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ ٱلْعَرَبِ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَبِبَقَرِ ٱلْوَحْشِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلرَّابِعُ أَنْ يُشَبِّهَ ٱلشَّيْءَ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ سَقِيمَةُ ٱلْجُفُونِ فِي ٱلْحَسَنَةِ ٱلْغَاضَّةِ ٱلنَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمْ مَرْضَى مِنَ ٱلْكَرَمِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْـهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ أَضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ أَنْ يَأْتِيَ بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقُرْءِ وَٱلْجَلَدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ أَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ أَنْ يَتْرُكَ ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ إِلَى ٱلْإِقْنَاعِ وَٱلْأَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْإِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ :

وَمَا جَبُنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰـذَا ٱلصِّنْفُ إِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ :

ٱللهُ يَعْلَمُ مَـا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِـدِ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلْ وَاحِدًا أُقْتَلْ وَلَا يَنْـكِي عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْأَحِبَّةُ فِيهِمِ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِـدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ إِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِأَنَّ ٱلتَّغْيِـيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَـدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّـةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ أَغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَأَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا إِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَـنَزَّ

لهم هذه الأشياء ولا شعروا بها فهذا هو ما تأدى الى فهمنا مما ذكره ارسطو في كتابه هذا من الأقاويل المشتركة لجميع اصناف الشعر والخاصة بالمديح اعني المشتركة منها ايضا للأكثر او للجميع وسائر ما ذكره في كتابه هذا من الفصول التي بين سائر اصناف الشعر عندهم وبين صنف المديح فهو خاص بهم ومع ذلك فلسنا نجده ذكر من ذلك في هذا الكتاب الواصل الينا الا بعض ذلك. وذلك يدل على ان هذا الكتاب لم يترجم على التمام وانه بقي منه التكلم في سائر فصول اصناف كثير من الاشعار عندهم وقد كان هو وعد بالتكلم في هذه كلها في صدر كتابه. والذي نقص مما هو مشترك هو التكلم في صناعة الهجاء لكن يشبه ان يكون الوقوف على ذلك بقرب من الاشياء التي قيلت في باب المديح اذ كانت الاضداد يعرف بعضها من بعض. وانت تتبين اذا وقفت على ما كتبناه هاهنا ان ما شعر به اهل لساننا من القوانين الشعرية بالاضافة الى ما في كتاب ارسطو هذا وفي كتاب الخطابة نزر يسير كما يقوله ابو نصر. وليس يخفى عليك ايضا كيف ترجع تلك القوانين الى هذه ولا ما ذكروا من ذلك على وجه الصواب مما ذكر على غير ذلك والله الموفق للصواب بفضله ورحمته

الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٍّ وَٱلطُّفَاوَةِ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا   وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا
مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي   وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا   فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَلُجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ :

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى   قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ :

عُوجَا عَلَى طَلَلِ ٱلدِّيَارِ لَعَلَّنَا   نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّءٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ ٱلَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصَائِدَ وَذَكَرَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱلتَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ أَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

وَمُهَلْهِلُ ٱلشُّعَرَاءِ ذَاكَ ٱلْأَوَّلُ

وَزَعَمَتِ ٱلْعَرَبُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ أَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعَرَاءُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ أَوَّلُهُمُ ٱلْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ٱلْكِنْدِيِّ وَٱلْمُرَقِّشَانِ وَٱلْأَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ ٱلْأَصْغَرِ وَٱلْأَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ . وَٱسْمُ ٱلْأَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَٱسْمُ ٱلْأَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ . وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمِيئَةَ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ . وَٱلْأَعْشَى وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَٱلْحٰرِثُ بْنُ حِلِّزَةَ . ثُمَّ تَحَوَّلَ ٱلشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ ٱلنَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى وَٱبْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلشَّمَّاخُ وَأَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ إِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ إِلَى ٱلْيَوْمِ . وَمِنْهُمْ كَانَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ ٱلنَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَأَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ . وَكَانَ ٱلْأَصْمَعِيُّ يَقُولُ أَوْسٌ أَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ ٱلنَّابِغَةُ طَأْطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ أَوْسٍ زُهَيْرٌ وَكَانَ أَوْسٌ زَوْجَ أُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ أَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدِ ٱخْتَلَفَ فِي ذَٰلِكَ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱدَّعَتِ ٱلْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا أَنَّهُ ٱلْأَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذَٰلِكَ لِقَائِلِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ ذَٰلِكَ شِعْرًا فَٱدَّعَتِ ٱلْيَمَانِيَةُ لِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَنُو أَسَدٍ لِعَبِيدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِمُهَلْهِلٍ وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمِيئَةَ وَٱلْمُرَقِّشِ ٱلْأَكْبَرِ وَإِيَادٌ لِأَبِي دُؤَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ٱلْأَفْوَهَ ٱلْأَوْدِيَّ أَقْدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ ٱلنَّفَرُ ٱلْمُدَّعَى لَهُمُ ٱلتَّقَدُّمُ فِي ٱلشِّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ أَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ ٱلْهِجْرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ أَوْ نَحْوِهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي أَمَالِيهِ) قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: أَوَّلُ مَنْ يُرْوَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ مُهَلْهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيْبُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَٱلْأَضْبَطُ بْنُ قُرَيْعٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هٰؤُلَاءِ وَبَيْنَ ٱلْإِسْلَامِ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) أَوَّلُ مَنْ قَالَ ٱلشِّعْرَ ٱبْنُ حِذَامٍ (وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ): ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ أَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ ٱلرَّسُولِ فِي ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَنَّهُ أَشْعَرُ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ إِلَى ٱلنَّارِ يَعْنِي شُعَرَاءَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِعْبِلُ بْنُ عَلِيٍّ الْخُزَاعِيُّ . وَلَا يَقُودُ قَوْمًا إِلَّا أَمِيرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الشُّعَرَاءِ : امْرُؤُ الْقَيْسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ الشِّعْرِ فَافْتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ أَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ الْخَسْفِ وَهِيَ الْبِئْرُ الَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَوْلُهُ افْتَقَرَ أَيْ فَتَحَ وَهُوَ مِنَ الْفَقِيرِ وَهُوَ فَمُ الْقَنَاةِ وَقَوْلُهُ : عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ أَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ مِنَ الْيَمَنِ وَأَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ لَيْسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتْحُ امْرِئِ الْقَيْسِ أَصَحَّ بَصَرًا فَإِنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ يَمَانِيُّ النَّسَبِ نِزَارِيُّ الدَّارِ وَالْمَنْشَإِ . وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِأَنْ قَالَ : رَأَيْتُهُ أَحْسَنَهُمْ نَادِرَةً وَأَسْبَقَهُمْ بَادِرَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغْبَةٍ وَلَا لِرَهْبَةٍ (وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ بِالشِّعْرِ) إِنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ الشُّعَرَاءَ لِأَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلَكِنَّهُ سَبَقَ إِلَى أَشْيَاءَ فَاسْتَحْسَنَهَا الشُّعَرَاءُ وَاتَّبَعُوهُ فِيهَا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ الْمَعَانِيَ وَمَنِ اسْتَوْقَفَ عَلَى الطُّلُولِ وَوَصَفَ النِّسَاءَ بِالظِّبَاءِ وَالْمَهَى وَالْبِيضِ وَشَبَّهَ الْخَيْلَ بِالْعِقْبَانِ وَالْعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ النَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأْخَذَ الْكَلَامِ فَقَيَّدَ الْأَوَابِدَ وَأَجَادَ الِاسْتِعَارَةَ وَالتَّشْبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ الْجُمَحِيُّ : إِنَّ سَائِلًا سَأَلَ الْفَرَزْدَقَ مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ ذُو الْقُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ) : مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فَقَالَ الْمَلِكُ الضِّلِّيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ : الشَّابُّ الْقَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ : الشَّيْخُ أَبُو عَقِيلٍ يَعْنِي نَفْسَهُ . وَكَانَ الْحُذَّاقُ يَقُولُونَ : الْفُحُولُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَخْطَلُ وَٱلْأَعْشَى وَجَرِيرٌ وَكَانَ خَلَفُ ٱلْأَحْمَرُ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمُ ٱلْأَعْشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو ٱلْخَطَّابِ ٱلْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنُصَيْبٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسِّمْطَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ) وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسِّمْطَ لِأَحَدٍ غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ وَٱلْحٰرِثَ بْنَ حِلِّزَةَ وَأَثْبَتَا ٱلْأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ: عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ ٱلْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ قَالَ: أَعَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ ٱلْإِسْلَامِ. قَالَ: مَا أَرَدْتُ إِلَّا ٱلْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَٱلْإِسْلَامُ قَالَ: ٱلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ ٱلشِّعْرِ قُلْتُ: وَٱلْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ ٱلْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ ٱلْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي نَحَرْتُ ٱلشِّعْرَ نَحْرًا (وَسُئِلَ) ٱلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

ثَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ... كَفَى بِٱلْمَوْتِ نَأْيًا وَٱغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى ... فَشُقِّي ٱلْجَيْبَ وَٱنْتَحِبِي ٱنْتِحَابَا

فَٱتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ ٱلْوَقْتِ فَٱلْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَٱلْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا ٱلْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ ٱلْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلٰكِنْ ... فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ ٱلْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيَرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ اَحَدٌ مِنَ النُّقَّادِ مَقَالَةَ الْحُطَيْئَةِ (وَسَأَلَهُ اَبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً اُخْرَى) فَقَالَ الَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيْسَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ اَيُّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ الضَّرَاعَةَ اَفْسَدَتْهُ كَمَا اَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَاللهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اَشْعَرَ الْمَاضِينَ . وَاَمَّا الْبَاقُونَ فَلَا اَشُكُّ اَنِّي اَشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) اَبْنُ اَبِي الْخَطَّابِ اَنَّ اَبَا عَمْرٍو يَقُولُ اَشْعَرُ النَّاسِ : اَرْبَعَةٌ اَمْرُؤُ الْقَيْسِ وَالنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ الْمُفَضَّلُ : سُئِلَ الْفَرَزْدَقُ فَقَالَ : اَمْرُؤُ الْقَيْسِ اَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ : النَّابِغَةُ اَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ الْاَخْطَلُ : الْاَعْشَى اَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ اَبْنُ اَحْمَرَ : زُهَيْرٌ اَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ : لَبِيدٌ اَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ : طَرَفَةُ اَشْعَرُ النَّاسِ وَقَالَ الْكُمَيْتُ : عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَشْعَرُ النَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى اخْتِلَافِ الْاَهْوَاءِ وَقِلَّةِ الْاِتِّفَاقِ . وَكَانَ اَبْنُ اَبِي إِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ : اَشْعَرُ الْجَاهِلِيَّةِ الْمُرَقِّشُ الْاَكْبَرُ وَاَشْعَرُ الْاِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ اَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ اَطَالَ الْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً : مَنْ اَشْعَرُ الْعَرَبِ فَقَالَ : اَخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبَدَةَ وَقِيلَ اَوْسَ بْنَ حَجَرٍ . وَلَيْسَ لِاَحَدٍ مِنَ الشُّعَرَاءِ بَعْدَ اَمْرِئِ الْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعْشَى فِي ٱلنُّفُوسِ . وَعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ وَأَهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعْشَى وَأَهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا . قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ : قَالَ أَهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحْصَفَهُمْ شِعْرًا وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ سُخْفٍ وَأَجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ . وَأَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَأَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَأَجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَأَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ . وَزَعَمَ أَصْحَابُ ٱلْأَعْشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَأَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعْشَى أَشْعَرُ ٱلْأَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ : فَأَيْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ : بِهَذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعْشَى مَا قُلْتُ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعْشَى ٱلْأَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ : أَرَجُلًا أَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ : أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَأَشْعَرُ هُذَيْلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ : أَفْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ أَلْسُنًا وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَأَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلْيَةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسْطَى وَقَدْ تَرَكْتَهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا . ثُمَّ سَرَاةُ ٱلْأَزْدِ أَزْدِ شَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرْثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرْثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ ٱلْأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيْضًا: أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنْهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ. وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: خُتِمَ ٱلشِّعْرُ بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ . وَزَعَمَ يُونُسُ : أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ: لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذٰلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي ٱلرُّجَّازِ كَٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذٰلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: افْتُتِحَ الشِّعْرُ بِامْرِئِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِابْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَالْجَاهِلِيُّ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْإِسْلَامِيُّ ذُو الرُّمَّةِ وَالْمُوَلَّدُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ الْبَدِيعَ وَخَاصَّةً التَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ الشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ الثَّلَاثَةُ الْأَعْشَى وَالْأَخْطَلُ وَأَبُو الْفَوَارِسِ وَهٰذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ الْخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِالتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ التَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ الثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ الْأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي الْمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ اسْمًا مِنَ الْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَالْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي الْاشْتِهَارِ ابْنُ الرُّومِيِّ وَابْنُ الْمُعْتَزِّ وَطَارَ اسْمُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَالْحَسَنِ فِي الْمُوَلَّدِينَ وَامْرِئِ الْقَيْسِ فِي الْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ الدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ابْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ الْأَغَانِي:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ الْآدَابِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللّٰهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللّٰهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ الْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ الظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ الْمُحْدَثِينَ

فَانَّ فِيهِ اَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي اُسْلُوبِ ٱلمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَاَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ اَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسٍ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنَّورِ وَٱلبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ اَمْثَالِ ذٰلِكَ اِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلفَرْشِ وَمُخْتَارِ ٱلآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلخَدَمِ اَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ اِلَى جَعْدِ ٱلكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَاِلَى وَصْفِ ٱلبِيدِ وَٱلمَهَامِهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلقِفَارِ وَٱلمَنَازِلِ ٱلخَالِيَةِ ٱلمَهْجُورَةِ وَلَا اِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَاَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا اَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ اِذَا اَحْسَنَ ٱلكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱليَسِيرِ وَيُنْسَبَ اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ اَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ اَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ اَنَّ قَائِلًا اَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ اَيْ اَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلاَعْشَى وَهُوَ اَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلاَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَاَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ اِنْ يَأْمُرْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ ‏ ‏ ‏ بِقَتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْنَقُ

وَاَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَاِنَّمَا عَلَى ٱلاِنْسَانِ اَنْ يَحْفَظَ مِنَ

الشيء احسنه ويلغي ما لا يستحسنه فليس مأخوذا به ولكن اقواما ارادوا ان يرفعوا انفسهم الوضيعة ويشيدوا بذكرهم الخامل ويعلوا اقدارهم الساقطة بالطعن على اهل الفضل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك الا ضعة ولا يزداد الآخر الا ارتفاعا. الا ترى الى ابن المعتز قد قتل اسوأ قتلة ودرج فلم يبق له خلف يقرظه ولا عقب يرفع منه وما يزداد بادبه وشعره وفضله وحسن اخباره وتصرفه في كل فن من العلوم الا رفعة وعلوا ولا نظر الى اضداده كلما ازدادوا في طعنه وتقريظ انفسهم. واسلافهم الذين كانوا مثلهم في ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطا وضعة وكلما وصفوا اشعارهم وقرظوا آدابهم زادوا بها ثقلا ومقتا فاذا وقع عليهم التحصيل الموافق عدلوا عن ثلبه في الآداب الى التشنيع بامر الدين وهجاء آل ابي طالب وهم اول من فعل ذلك وشنع به على آل ابي طالب عند المكتفي حتى نهاهم عنه فعدلوا عن عيب انفسهم بذلك الى عيبه وارتكبوا اكثر منه. وكان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وادبه ولقد قرأت بخط عبيد الله بن طاهر رقعة اليه بخطه وقد بعث اليه برسالة الى ابن حمدون في انه يجوز ولا ينكر ان يغير الانسان بعض نغم الغناء

أَلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ. فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ. وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

في ٱلحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعتَ مَكْتُومُ)

وَامَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمشْهُورَاتُهُ ارْبَعٌ قَوْلُهُ: (ارَوَاحٌ مُوَدِّعٌ امْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (اتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ امِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ ارَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غِيَرِ ٱلْاَ م يَامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ ابُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هٰؤُلَاءِ اشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي ايْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا. وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ اشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ ابِي عُبَيْدَةَ انَّهُ قَالَ: ٱتَّفَقُوا انَّ اشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَامَّا اصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ اوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحٰرِثُ بْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْاَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ ابِي كَاهِلٍ وَٱلْاَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرَ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ إِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَامَّا ٱلْمُغَلَّبُونَ فَمِنْهُمْ نَابِغَةُ بْنُ جَعْدَةَ وَمَعْنَى ٱلْمُغَلَّبِ ٱلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي إِذَا فَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ٱلْجَعْدِيِّ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاء وَلَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ إِنَّ مَوْتَ ٱلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى ٱلْأَخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي ٱلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَٱلْمُغَلَّبُونَ ٱلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْأَهْتَمِ وَغَلَبَهُ ٱلْمُخَبَّلُ ٱلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي ٱلْخُطَبِ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ فِي بَابِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هٰذَا ٱلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ ٱلشِّعْرَ إِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ إِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ إِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنِ ٱلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا إِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قبيح فهو من عندهم ليس النمط واحدا. هذا مذهب ابي عمرو واصحابه كالاصمعي وابن الاعرابي اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون فاما ابن قتيبة فقال: لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثا في عصره. ثم قال ابن رشيق في باب آخر: طبقات الشعراء اربع جاهلي قديم ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدريج هكذا في الهبوط الى وقتنا هذا فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر متصفحا اشعار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي وبين الاسلامي والمخضرم وان للمحدث الاول فضلا عمن بعده في المنزلة. ففي الجاهلية والاسلاميين من ذهب بكل ملاحة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة (قال) ابو الحسن الاخفش: يقال ماء خضرم اذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام مخضرما كانه استوفى الامرين (قال) ويقال: اذن مخضرمة اذا كانت مقطوعة فكانه انقطع عن الجاهلية الى الاسلام. (وحكى) ابن قتيبة عن الاصمعي قال: اسلم قوم في

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبِلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُحَضْرَمٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْحَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَالِطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفِلْقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ يَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي حُمَيْسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيْعِرًا. وَقَالِيَةُ ٱلْأَفَاعِي دُوَيْبَّةٌ فَوْقَ ٱلْخُنْفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ وَزَعَمَ ٱلْحَاتِمِيُّ أَنَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ: مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ مَنِ ٱسْتُجِيدَ جَيِّدُهُ وَأَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ فِي ٱلْهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ:

ٱلشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهُ   وَٱلشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ
إِذَا ٱرْتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهُ   زَلَّتْ بِهِ إِلَى ٱلْحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ   فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ   وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمِّرْ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ. قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ ٱلدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ: أَنْشَدَتْهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ أَيْ أَبْيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ آخَرُونَ: إِنَّ ٱلْمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا كَانَ ٱسْمُ ٱلْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ: هٰذَا ٱلْبَيْتُ عُقْرُ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَيْ أَجْوَدُ بَيْتٍ فِيهَا كَمَا يُقَالُ: هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ. اه. وَفِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ لِلْقَالِي: قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ:

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي   صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ هِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَأَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ أَشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْأَفْضَلُ ٱلْأَشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِأَنَّهُ أَوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِأَنَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي : ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ أَوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَأَحْسِبُ ٱلْأَصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ أَيْضًا قَالَ. لَقِيَتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ أَنْتَ ٱلَّذِي يَرْجُو قَوْمُكَ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ : نَعَمْ. قَالَتْ. فَأَنْشِدْنِي ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ :

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا ... مُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ

إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ ٱلْقِمَا ... مِ لِكَ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ

وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصَبَا ... نِ فَحِينًا أَقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ : أَوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ أَنْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

هٰذَا وَأَمْثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلِاضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ إِذَا أُحْوِجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ بِقُلُوبٍ. مَجَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱلْقُلُوبُ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي ٱلْأَشْعَارِ أَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا أَدْمَاءَ طَلَّ خَمِيلَةٍ   مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا يَنْفَكُّ تَرْعَى عَرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ. وَتَرَكَ بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّيبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَإِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزَّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ أَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطَبِهِ. وَإِلَّا كَانَ كَخَابِطِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ أَشَدُّ

حَضرًا. وَأَمَدُّ عصرا وذلكَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ أَوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَإِنْ حَكَى عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱبْنُ جِنِّيَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاء حدثنا أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلغِلَابِيُّ حدثنا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِق قَالَ: دَخَلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَخِفُّ ٱلْأَرْضُ إِنْ تَفْقِدْكَ يَوْمًا ... وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنَظَرَ إِلَيْهِ ٱلنُّعْمَانُ نَظَرَ غَضْبَانَ. وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ: أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ إِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِأَنَّكَ مَوْضِعُ ٱلْقِسْطَاسِ مِنْهَا ... فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ ٱلنُّعْمَانُ وَأَمَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ. فَإِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلْمَلِكِ ٱلْأَشَمِّ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذٰلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ أَمْرِهِ وَٱلْقُدَمَاءُ فِي هٰذَا أَعْذَرُ لِأَنَّهَا لُغَتُهُمْ

الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

ومن الشعر مطبوع ومصنوع فالمطبوع هو الاصل وضع عليه اوّلا وعليه المدار والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفًا تكلف اشعار المولدين. لكن وقع في هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا واستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل بعد ان عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على التنقيح والتثقيف يصنع القصيدة ثم يكرر نظره بها خوفا من التعقب بعد ان يكون قد فرغ من عملها في ساعة او ليلة. وربما قصد اقامة نشاطه فتباطأ عمله لذلك. والعرب لا تنظر في اعطاف شعرها بان تجنس او تطابق او تقابل فتترك لفظة للفظة او معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ولكن نظرها في فصاحة الكلام او جزالته

وَبَسْطِ ٱلْمَعْنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَإِتْقَانِ بِنْيَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِحْكَامِ ٱلْقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلْكَلَامِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْلِ صَنْعَةِ ٱلْحُطَيْئَةِ حَتَّى نَسَقَهُ ٱلْكَلَامَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ:

فَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ بِأَنْ يَبْنُوا ٱلْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا
وَلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ وَلَا عَنُفُوا بِذَاكَ وَلَا أَسَاؤُوا
فَإِنَّ ٱلْجَارَ مِثْلَ ٱلضَّيْفِ يَغْدُو لِوُجْهَتِهِ وَإِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ
وَإِنِّي قَدْ عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَوْمٍ أَعَانَهُمُ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱسْتَظْرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ نَحْوَ ٱلْبَيْتِ وَٱلْبَيْتَيْنِ فِي ٱلْقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلْقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ ٱلرَّجُلِ وَصِدْقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِلَافِ ٱلطَّبْعِ وَإِيثَارِ ٱلْكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَتَّجِهُ ٱلْبَتَّةَ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيدَةٌ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ ٱلصَّنْعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَأَمَّا حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ ٱلْأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ ٱلتَّصْنِيعِ ٱلْمُحْكَمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ بُعْدٍ وَيَطْلُبُهَا بِكُلْفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَأَمَّا ٱلْبُحْتُرِيُّ فَكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي ٱلْكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دَمَاثَةً وَسُهُولًا مَعَ إِحْكَامِ ٱلتَّصَنُّعِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ وَلَا أَمْلَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَكَادُ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ عِنْدِي

ألطفُ أصحابهِ شِعرًا وأكثرُهم بديعًا وافتنانًا وأقربهم قوافيَ وأوزانًا ولا أرى وراءهُ غايةً لطالبها في هذا الباب. غير أنَّا لا نجد المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعًا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ولأنَّهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقًا سابلةً وكثَّرا منها في أشعارهما تكثيرًا سهَّلها عند الناس وجسَّرهم عليها. على أنَّ مسلمًا أسهل شعرًا من حبيب وأقلُّ تكلُّفًا وهو أوَّل من تكلَّف البديع من المولَّدين وأخذ نفسهُ بالصنعة وكثَّر منها ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل مسلم إلَّا النُّبَذ اليسيرة. وهو زُهَير المولَّدين كان يُبطئ في صنعته ويُجيدها. وقالوا: أوَّل من فتق البديع من المحدثين بشار بن بُرد وهو ساقة العرب وآخر من يُستشهد بشعرهِ ثمَّ اتَّبعهما مقتديًا بهما كلثوم بن عمرو العتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأبو نواس واتَّبع هؤلاء أبو تمَّام والبحتري وعبد الله بن المعتز فانتهى علم البديع والصنعة وخُتِم به. وشبَّه قوم أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة وحسن الديباجة والمعرفة بمدح الملوك. وأمَّا بشار فقد شبَّهوهُ بامرئ القيس لتقدُّمه على المولَّدين وأخذهم عنهُ. ومن كلامهم: بشار أبو المحدثين. وسمعنا أبا عبد الله غير مرَّة يقول: إنَّما سُمّي الأعشى صنَّاجة العرب لأنَّهُ أوَّل من ذكر الصنج في شعرهِ. قال ويُقال بل سُمّي صنَّاجةً لقوَّة طبعهِ وحلية شعرهِ يُخيَّل إليك إذا

أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضًا وألينه كلامًا فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع.

انقضى كلام عبد الله ورجعنا إلى القول في الطبع والتصنيع. فإذا كان الشاعر مصنعًا فإن جيده من سائر شعره كأبي تمام، فصار محصورًا معروفًا بأعيانه فإذا كان الطبع غالبًا عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبًا من قريب كالبحتري. ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تطيراته على محمد بن أبي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر:

فله شهامة سوذنيق باكر ... وحوافر خفر ورأس صلتع

وذكر قول أبي تمام (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر أن الحافر الرأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف في اللفظ من الحافر الأحفر إلا أن أبا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها. والذي أراه أن ابن الرومي أبصر بأبي تمام وغيره منا وأن التسليم له والرجوع إليه أحزم. غير أني لو شئت أن أقول ولست رادًا عليه ولا معترضًا بين يديه أن المعنى الذي أراده وأشار إليه من جهة أبي تمام إنما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما أشبههما لا معنى الكلام الذي هو روحه. وأما اللفظ الذي ذكر أنه لا يبالي به إنما هو فصيح

الكلام ومستعمله ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومي قوله ان الحافر الوأب والمقعب اشرف في اللفظ من الحافر الاخفر. فكلامه راجع الى ما قلته في ابي تمام غير مخالف له وان كان في الظاهر على خلافه لساغ ذلك الا ان اكثر الناس على ما قال وانما هو هذا معرض للكلام لا مخالفة . وقال الجاحظ: كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا الا ان يكون المتكلم به بدويا اعرابيا فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي (قال) وانشد رجل قوما شعرا فاستغربوه فقال: والله ما هو بغريب ولكنكم في الادب غرباء . وعن غيره ان رجلا قال لابي تمام في مجلس قد حفل واراد تبكيته لما انشده: يا ابا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم . فقال له : وانت لم لا تفهم من الشعر ما يقال ففضحه . ويروى ان هذه الحكاية كانت مع ابي العميثل وصاحبين له خاطباه فاجابهما . وقال بعض من نظر بين ابي تمام وابي الطيب انما ابو تمام كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج . وابو الطيب كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع . وكان الاصمعي يقول زهير والنابغة من عبيد الشعر يريد انهما يتكلفان اصلاحه ويشغلان به خواطرهما وحواسهما . ومن

أَصْحَابِهِمَا فِي ٱلتَّنْقِيحِ وَفِي ٱلتَّثْقِيفِ وَٱلتَّحْكِيكِ طُفَيْلُ ٱلْغَنَوِيُّ . وَقَدْ قِيلَ إِنَّ زُهَيْرًا أَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلنَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ ٱلْكَيِّسَ . وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُذَّاقِ يَقُولُ : قُلْ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يَخْدُمُكَ وَلَا تَقُلْ مِنْهُ مَا تَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ ٱلْأَصْمَعِيِّ . وَسَأُحَلِّي هٰذَا ٱلْبَابَ مِنْ كَلَامِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَأَخْتِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِأُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعْضَ مَا ضَمِنْتُ وَأَقْضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ أَهْلَهُ :

وَلِي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ ... أُطَأْطِئُ مِنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا أَجَنَّتِ
تَمَنَّيْتُكُمْ شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَصَبْوَةً ... عَسَى ٱللّٰهُ أَنْ يُبْدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ
وَعَيْنٌ جَفَاهَا ٱلنَّوْمُ وَٱعْتَادَهَا ٱلْبُكَا ... إِذَا عَنَّ ذِكْرُ ٱلْقَيْرَوَانِ ٱسْتَهَلَّتِ

فَلَوْ أَنَّ أَعْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ إِلَى ٱلْوَطَنِ أَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ بَعْضَ ٱلسَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا أَتَى بِهِ هٰذَا ٱلْوَلَدُ ٱلْحَضَرِيُّ ٱلْمُتَأَخِّرُ ٱلْعَصْرِ . وَمَا أَخُطُّ فِي هٰذَا ٱلتَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا أَتَّعِقُ بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا ٱلْخَدِيعَةُ مِمَّا نُظِنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِنْ قَدْ رَأَيْتُ وَجْهَ ٱلْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَٱلْحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَإِيجَازِهِ إِلَّا كَمَا قَالَ ٱلْأَحْمَرُ ٱلسَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ :

مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَكْفِي ٱلْمُصِيبَ قَلِيلُهُ
وَمِنْهُ ٱلَّذِي لَا يَكْتَفِي ٱلدَّهْرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَحَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ أَمْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ أَصْنَافَ ٱلشِّعْرِ أَرْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِٱسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْأَمْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْخُمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِٱفْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْحُمُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ أَنَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

أيضًا بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه . والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية والشعر قراره الطبع وسمكه الرواية ودعائمه القلم وبابه الدربة وساكنه المعنى ولا خير في بيت غير مسكون . وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية أو كالأواخي والأوتاد للأخبية . وأمّا ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة لو لم تكن لاستغني عنها . قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة : الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان . قال ولست أفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد إلا أني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية ولا رواية ولا طريق إلى الرواية إلا السمع وملاك السمع الحفظ . وقال دعبل في كتابه من أراد المديح فبالرغبة ومن أراد الهجاء فبالبغضاء ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء : فقسم الشعر كهذه الأقسام الأربعة وكان الرثاء عنده من باب المدح على ما قدمت . إلا أنه جعل العتاب

بَدَلًا مِنْهُ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ: اَلشِّعْرُ مَا ٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلْمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشْبِيهِ ٱلْوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا لِقَائِلِهِ فَضْلُ ٱلْوَزْنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسه)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقَةَ ٱلْإِفْصَاحِ وَٱلْإِشَادَةِ بِذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَنْ يَجْعَلَ مَعَانِيَهُ جَزْلَةً وَأَلْفَاظَهُ نَقِيَّةً غَيْرَ مُبْتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجْتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقْصِيرَ وَٱلتَّطْوِيلَ فَإِنَّ لِلْمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّمَا عَابَ مِنْ أَجْلِهَا مَا لَا يُرِيدُ عَيْبَهُ وَقَدْ رَأَيْتَ عَمَلَ ٱلْبُحْتُرِيِّ إِذَا مَدَحَ ٱلْخَلِيفَةَ كَيْفَ يُقِلُّ ٱلْأَبْيَاتَ وَيُبْرِزُ وُجُوهَ ٱلْمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ ٱلْكُتَّابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَدْ حُكِيَ عَنْ عُمَارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بَنِيَّ إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا ٱلْمُمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱبْنِ أُمِّ ٱلْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلرَّحْمَانِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعْنِي مِنْ شِعْرِكَ ٱلَّذِي لَيْسَ يَأْتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنْسَى أَوَّلُهُ وَقُلْ فِيَّ بَيْتَيْنِ يَعْلَقَانِ بِٱلرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعْطِيكَ عَطِيَّةً لَمْ يُعْطِكَهَا أَحَدٌ قَبْلِي فَغَدَا عَلَيْهِ وَقَالَ:

وَأَنتَ ٱبنُ بَطحَاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَشَا
تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سَيلَ ذِي حَدَبٍ غَمرِ
وَأَنتَ ٱبنُ سَوَّارِ ٱليَدَينِ إِلَى ٱلعُلَا
تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمسُ ٱلمُضِيئَةُ لِلبَدرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحسَنتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلمَمدُوحُ مَلِكًا لَم يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيفَ أَطنَبَ وَذَلِكَ مَحمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلمَذمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنهَا وَكَذَلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَستَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعطِيَهُ صِفَةَ غَيرِهِ فَيَصِفَ ٱلكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلقَاضِيَ بِٱلحَمِيَّةِ وَٱلمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِشُعَرَاءِ وَقتِنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَصحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأيِ فِيهِ وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمدَحَ ٱلمَلِكُ بِبَعضِ مَا يَحسُنُ فِي غَيرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذَلِكَ مِثلُ قَولِ ٱلبُحتُرِيِّ فِي مَدحِ ٱلمُعتَزِّ:

لَا ٱلعَذلُ يَردَعُهُ وَلَا م ٱلتَّعنِيفُ عَن كَرَمٍ يَصُدُّهْ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنكَرَهُ عَلَيهِ أَبُو ٱلعَبَّاسِ أَحمَدُ بنُ عُبَيدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلخَلِيفَةَ عَنِ ٱلكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هٰذَا بِٱلهِجَاءِ أَولَى مِنهُ بِٱلمَدحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلأَخطَلِ قَولُهُ فِي عَبدِ ٱلمَلِكِ بنِ مَروَانَ هٰذَا ٱلبَيتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلخِلَافَةَ مِنهُمُ
لِأَبيَضَ لَا عَارِي ٱلخِوَانِ وَلَا جَدبِ

وَقَالُوا : لَوْ مَدَحَ بِهَـذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ. وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ :

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيصَ عَلَيْهِمِ

بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ :

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ

مَذِقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هَذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ

مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا

يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هَذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذَلِكَ حَسُنَ قَوْلُهُ :

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلنَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَلْبَابِ مِنَ ٱلْإِتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَقْلُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَدَالَةُ وَٱلشَّجَاعَةُ كَانَ ٱلْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

أَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالُهُ
وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِٱلْعِفَّةِ لِقِلَّةِ إِمْعَانِهِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنَّهُ لَا يَنْفَدُ فِيهَا مَالُهُ بِٱلسَّخَاءِ لِإِهْلَاكِ مَالِهِ فِي ٱلنَّوَالِ وَٱنْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ ٱللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا
كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

أَرَادَ أَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ ٱلسَّخَاءِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي ٱلْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى أَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهْ. فَأَتَى فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ بِٱلْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَقْلِ فَٱسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ ٱلْمَدْحِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ : (أَخِي ثِقَةٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يُحْدِثُ هٰذَا ٱلشُّعَرَاءُ فَيَعُدُّونَ أَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ وَأَقْسَامَهَا وَكُلٌّ دَاخِلٌ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ أَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمَ وَٱلْحِلْمَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْأَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْأَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ . وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلِٱنْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَإِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْأَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ أَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَأَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ أَقْسَامٍ : يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَإِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْئَلَةِ وَٱلِٱقْتِصَارُ عَلَى أَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلْإِتْلَافُ وَٱلْإِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ . وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ إِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ . وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْإِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْإِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ ‏ وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ
وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ ‏ مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ ‏ وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ ‏ فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا
وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ‏ تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ‏ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ:

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا ‏ يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا ‏ مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا ‏ ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا
لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ ‏ أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مَا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةِ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةِ ٱلْغَفْلَةِ وَجَوْدَةِ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ:

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ ‏ وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً. وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلْقَائِدُ ٱلْجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ ٱلْإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلْبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . وَيُمْدَحُ ٱلْقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلْعَدْلَ وَٱلْإِنْصَافَ وَتَقْرِيبَ ٱلْبَعِيدِ فِي ٱلْحَقِّ وَتَبْعِيدَ ٱلْقَرِيبِ فِي ٱلْأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلْمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلْفَقِيرِ وَٱلْغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلْوَجْهِ وَلِينِ ٱلْجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلْمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱسْتِخْرَاجِ ٱلْحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلْوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ . وَصِفَاتُ ٱلْقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلْمَظَالِمِ وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلْمَلِكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلْفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا . وَأَكْثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلْجَمَالِ وَٱلْأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلْخَلْقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنْيَا وَكَثْرَةِ ٱلْعَيْشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا . إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ جُمْلَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ : ٱلْمَدْحُ بِٱلْفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ يَزْرِي لِغَيْرِهِ :

أَنْتَ نِعْمَ ٱلْمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ
لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ أَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ رُبَّمَا ذَكَرُونَا شَيْئًا نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا أَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ أَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ:

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ   سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ إِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا إِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ وَأَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلرَّسُولَ:

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا   بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ   مَا يَعْلَمُ ٱللّٰهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِأَبِي دِعْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ:

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ   يَحْمِلْنَ مَا تَدْرِي وَمَا لَا تَدْرِي

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ أَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ:

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللّٰهُ   وَمَا إِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ أَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُجْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْإِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْإِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْإِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلْاخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ:

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ   وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ إِذَا مَا سَأَلْتَهُ   تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلِاقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْأَخِيرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ
إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلُ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ:

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافَيْ سَرِيرِهِ إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ
فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ ٱلرَّدَى وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِي:

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ:

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
إِذَا رَفَعْتَ ٱمْرَأً فَٱللهُ رَافِعُهُ وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللهِ مُعْتَصِمًا فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ وَأَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ
تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا
أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ:

شُمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعبِلٌ بَلْ قَوْلُ ابِي الطَّمَحَانِ القَيْنِيّ

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ
دُجَى اللَّيلِ حَتَّى نَظَّمَ الجَزْعَ ثَاقِبُهُ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا البَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ ابِي الطَّمَحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ النَّابِغَةِ :

بِاَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكَ كَوَاكِبٌ   اِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ ابِي الطَّمَحَانِ اَشْعَرُهَا . قَالَ الحَاتِمِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :

تَرَاهُ اِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا   كَاَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي اَنْتَ سَائِلُهُ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ اَبِيهِ اَنَّهُ قَالَ : اَجْمَعَ اَهْلُ العِلْمِ اَنَّ بَيْتَيْ ابِي نُوَاسٍ اَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي المَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا :

اَنْتَ الَّذِي تَأْخُذُ الاَيْدِي بِحُجْزَتِهِ
اِذَا الزَّمَانُ عَلَى اَنْيَابِهِ كَلَحَا

وَكَانَتْ بِالدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ
مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى الحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الوَاحِدِ عَنْ اَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْتُ ابْنَ الاَعْرَابِيِّ يَقُولُ : اَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ ابِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ   فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْاَلُ الاَيَّامَ مَا اسْمِي مَا دَرَتْ
وَاَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِلْمُحْدَثِ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ
وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ
مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ
يَنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يَعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ
كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَخْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا　　كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ　　وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ　　قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُفَدِّينَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ　　وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِلُهْ
فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ　　جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ　　بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا　　تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ : أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ :

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ　　كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ : كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ : يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ　　لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ　　كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا　　أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

---

(١) وكان الاصل : بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَضْحَكَ ٱللهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ
مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ
إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ
يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ
تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ
نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ
أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ ٱتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسهِ)

اَلِافْتِخَارُ هُوَ ٱلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْمَدْحِ حَسُنَ فِي ٱلِافْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي ٱلِافْتِخَارِ. فَمِنْ أَبْيَاتِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

إِنَّ ٱلَّذِي سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا ... بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ ثَعْلَبٍ : أَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ ٱلْعَرَبُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ ٱلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ ... كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ أَفْخَرُ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ ... جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ : قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا ... وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَّفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ... وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمْ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ إِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا ... مَكَانَ ٱلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ ٱلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ :

فَاِذَا نَظَرْتَ رَاَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلاَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ:

وَلَوْ اَنَّ قَيْسًا قَيْسَ عَيْلَانَ اَقْسَمَتْ

عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَٱلْآخَرُ بَيْتٌ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ:

اِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً

هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ اَوْ قَطَرَتْ دَمًا (١)

اِذَا مَا اَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلِافْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ:

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْاَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ بِبَاْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنْزَلِ

وَاِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ فَتَاةٌ بِعِقْدٍ اَوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ: سَتُدْعَوْنَ اِلَى قَوْمٍ اُولِي بَاْسٍ شَدِيدٍ. وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَاَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ اَشَدَّ طَلَبٍ وَقَالَ: كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ. فَهٰذَا ٱلِافْتِخَارُ بِٱلشَّجَاعَةِ خَاصَّةً. وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِٱلْكَثْرَةِ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ:

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ اِلَّا عِنْدَ اَوَّلِنَا وَلَا تَغِيبَنَّ اِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ اَنْكَرَ قُدَامَةُ اَنْ يَمْدَحَ ٱلْاِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ اَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِاَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ. وَٱلَّذِي

---

(١) ويروى: هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ . وَأَنكَرَ ٱلْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ :

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ... بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ ... وَلٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٌ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ ٱلْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ ٱلْمَدْحِ أَنْ يَجْعَلَ ٱلْمَمْدُوحَ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَٱلْآبَاءُ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيَجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي ٱلْفَخْرِ حَظًّا وَفِي ٱلْمَدْحِ نَصِيبًا . وَإِذَا حُصِّلَتِ ٱلْحَقَائِقُ كَانَ ٱلنَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ ٱلْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ ٱلْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَٱنْتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَٱزْدَادَ وَإِنْ أُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ ٱلْوَالِدِ يَعُمُّ ٱلْقَبِيلَةَ وَلِلْوَالِدِ مِنْهُ ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوْفَرُ وَٱلْحَظُّ ٱلْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ : وَٱلَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلْاخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱلْمُتَوَكِّلِ ٱللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ ... يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا ... تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ ... وَفِي ٱلسِّرِّ مِنْهَا وَٱلصَّرِيحِ ٱلْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ ... أَبَى ٱللّٰهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنَ ٱلْفَخْرِ مَا قَالَ ٱلْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ

يَفْخَرُ بِوِلَايَةٍ مِنْ خُزَيْمَةَ بْنِ خَازِمٍ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُومَتِي   وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ
عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ   يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ .

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ   وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ
أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ   قَبْلُ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ
ٱلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ   وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَزَاوِيدِ
سُيُوفُكُمْ أَنْقَذَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ   فِي يَوْمِ ذِي قَارَ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ . وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعْسِرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُخَالِسُ ٱلْمَذَقَاتِ فِينَا   يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ ٱفْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَمَادِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ



البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسه)

وَلَيسَ بَيْنَ ٱلرِّثَاءِ وَٱلْمَدحِ فَرْقٌ إِلَّا أَنْ يُخْلَطَ بِالرِّثَاءِ شَيْءٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْصُودَ بِهِ مَيْتٌ مِثْلَ كَانَ أَوْ عَدِمْنَا كَيْتَ وَكَيْتَ أَوْ مَا شَاكَلَ ذٰلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّهُ مَيْتٌ. وَسَبِيلُ ٱلرِّثَاءِ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرَ ٱلتَّفَجُّعِ بَيِّنَ ٱلْحَسْرَةِ مَخْلُوطًا بِٱلتَّلَهُّفِ وَٱلْأَسَفِ وَٱلْاِسْتِعْظَامِ إِنْ كَانَ ٱلْمَيْتُ مَلِكًا أَوْ رَئِيسًا كَبِيرًا كَمَا قَالَ ٱلنَّابِغَةُ فِي حِصْنِ بْنِ حُذَيْفَةَ:

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ ... وَكَيْفَ بِحِصْنٍ وَٱلْجِبَالُ جُمُوحُ
وَلَمْ تَلْفِظِ ٱلْمَوْتَى ٱلْقُبُورُ وَلَمْ تَزَلْ ... نُجُومُ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثُمَّ جَاءَ نَعِيُّهُ ... فَظَلَّ نَدِيُّ ٱلْقَوْمِ وَهُوَ يَنُوحُ

فَهٰذَا وَمَا شَاكَلَهُ رِثَاءُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ ٱلْجِلَّةِ وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ حِينَ قَالَ: (مَاتَ ٱلْخَلِيفَةُ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ) فَرَفَعَ ٱلنَّاسُ رُؤُوسَهُمْ وَفَتَحُوا عُيُونَهُمْ وَقَالُوا: أَنْعَاهُ إِلَى ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ ثُمَّ قَالَ: (فَكَأَنَّنِي أَفْطَرْتُ فِي رَمَضَانِ) يُرِيدُ إِنِّي بِمُجَاهَرَتِي بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ كَأَنَّمَا جَاهَرْتُ نَهَارًا بِٱلْإِفْطَارِ فِي رَمَضَانَ فَكُلُّ أَحَدٍ يُنْكِرُ عَلَيَّ ذٰلِكَ وَيَسْتَعْظِمُهُ مِنْ فِعْلِي وَهٰذَا مَعْنًى جَيِّدٌ غَرِيبٌ فِي لَفْظٍ رَدِيءٍ غَيْرِ مُعْرِبٍ عَمَّا فِي ٱلنَّفْسِ. وَمِنْ أَفْضَلِ ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ

اَلْحُسَيْنِ بْن مَطِيرٍ يَرْثِي مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِأَبْنِ أَبِي حَفْصَةَ:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ بُقْعَةٍ
مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعَا

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ ٱلْجُودَ وَٱلْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا

فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ ٱلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

وَمِمَّا قَصَّرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِالْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ   فِجَاجُ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱنْثَغَرَ ٱلثَّغْرُ

وَقَدْ أَجَادَ أَيْضًا فِي ٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي رَثَى بِهَا إِدْرِيسَ بْنَ بَدْرٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ أَنْسَ سَعْيَ ٱلْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ   بِأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ

وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ ٱلْمَعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ ٱلرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكُ ٱلْجِنِّ وَهُوَ أَشْهَرُ فِي هٰذَا مِنْ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدِ ٱنْفَرَدَ بِهَا قَالَ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدِ ٱسْتَوَى ٱلنَّاسُ وَمَاتَ ٱلْكَمَالُ   وَصَاحَ صَرْفُ ٱلدَّهْرِ أَيْنَ ٱلرِّجَالُ

هٰذَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ   قُومُوا ٱنْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ ٱلْجِبَالُ

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاء أَنْ يَضْرِبُوا ٱلْأَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلْأَعِزَّةِ وَٱلْأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلْأُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ أَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَأَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ إِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاء أَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ ٱقْتِدَاء بِهِمْ وَأَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ أَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلْأَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلْأَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي أَبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ أَوَّلُهَا :

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ ٱلْأَمَلْ وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا ٱشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَأَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاء أَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاء نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاء. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا أَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي أَوَّلِهَا نَسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاء أَخِيهِ خَالِدٍ :

أَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ لِعَاقِبَةٍ أَوْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْأَحْوَلِ أَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِأَبِي مُحَاقَةَ أَعْشَى بَاهِلَةَ إِنَّمَا هِيَ لِأُخْتِهِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وَأَسْهَا الدَّعْجَاءُ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْمُتَعَارَفَ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَّةٌ أَوَّلُهَا تَشْبِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ. وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ الْوَاجِبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّ الْآخِذَ فِي الرِّثَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ النَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْحَسْرَةِ وَالْاهْتِمَامِ بِالْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ بِسَنَةٍ وَحِينَ أَخَذَ بِثَارِهِ وَأَدْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ فِي تَأْبِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ الْمِنْقَرِيِّ:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللّٰهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ ... وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

وَيَقُولَ الْكُمَيْتُ فِي تَأْبِينِ النَّبِيِّ هٰذَا الْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ:

اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ ... شَمْسُ النَّهَارِ وَأَظْلَمَ الْعَصْرَانِ

وَالنِّسَاءُ أَشْجَى النَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ الْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ اللّٰهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضُعْفِ الْعَزِيمَةِ

فَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةَ تَرْثِي زَوْجَهَا كُلَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ أَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا أَشْجَى لَفْظَهَا وَأَظْهَرَ الْفَجِيعَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ الْأَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ النِّيرَانِ وَذٰلِكَ:

يَا ابْنَةَ الْأَقْوَامِ إِنْ لُمْتِ فَلَا ... تَعْجَلِي بِاللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي

وَمِنْ أَشَدِّ الرِّثَاءِ صُعُوبَةً عَلَى الشَّاعِرِ أَنْ يَرْثِيَ طِفْلًا أَوِ امْرَأَةً لِضِيقِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ الصِّفَاتِ. أَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَبِي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ نَخْلُ مُجَوَّدٌ إِذْ ذَكَرَ ٱلْمُحَدَّثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلْحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعْفِي كُلَّ إِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي أُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحِسِّ عَلَى سُوءِ أَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي أُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكِ مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكِ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلِٱسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقِكِ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا فَضَاءٌ

وَمِنْ أَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ قَالُوا : لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى أَتَى عَبْدُ ٱللهِ بْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجَرَكَ ٱللهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَٱشْكُرِ

ٱللهَ عَلَى مَا أُعْطِيتَ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا رُزِيتَ فَقَدتَ خَلِيفَةَ ٱللهِ وَأُعْطِيتَ خِلَافَةَ ٱللهِ فَفَارَقْتَ جَلِيلًا وَأُعْطِيتَ عَظِيمًا إِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ ٱلرِّئَاسَةَ وَأُعْطِيتَ ٱلسِّيَاسَةَ فَأَوْرَدَهُ ٱللهُ مَوَارِدَ ٱلسُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِصَالِحِ ٱلْأُمُورِ:

فَٱصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَٱشْكُرْ حِبَاءَ ٱلَّذِي بِٱلْمُلْكِ أَصْفَاكَا
لَا رُزْءَ أَصْبَحَ فِي ٱلْأَيَّامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ ٱلْقَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ جَرَى ٱلشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ

قَالَ أَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي ٱلْفَضْلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِٱلْأَمِينِ:

تَعَزَّ أَبَا ٱلْعَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ بِأَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنْ
حَوَادِثُ أَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنْ
وَفِي ٱلْحَيِّ بِٱلْمَيْتِ ٱلَّذِي غَيَّبَ ٱلثَّرَى
فَلَا ٱلْمُلْكُ مَغْبُونٌ وَلَا ٱلْمَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا أَنْتَ مَغْبُونٌ. وَٱتَّبَعَهُ أَبُو تَمَّامٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي أَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامِ) يَقُولُ فِيهَا لِلْوَاثِقِ بَعْدَ ٱلْمُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا ٱلْكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَأَطْنَبَ كَمَا أَرَادَ وَأَحْتَجَّ وَأَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةَ مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَأَرَادَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ ٱلتَّقْصِيرَ فَٱقْتَصَرَ عَلَى:

قَدْ قُلْتُ إِنْ غَيَّبُوكَ وَٱصْطَفَقَتْ عَلَيْكَ أَيْدٍ بِٱلتُّرْبِ وَٱلطِّينِ
ٱذْهَبْ فَنِعْمَ ٱلْمُعِينُ كُنْتَ عَلَى ٱلدُّنْيَا وَنِعْمَ ٱلظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ اللهُ أُمَّــةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْــلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ النِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي القَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ابْنِ عَبْدِ المَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ :

أَلَا مَنْ رَأَى الطِّفْــلَ المُفَارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْــدَ الكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا :

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنَ الدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي

وَإِنَّ مَــكَانًا فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْــدُهُ
لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِــكُلِّ مَــكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى الشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ القَصِيدَةِ :

فَهَبْنِي عَدِمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لِابْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ الطَّرِيقُ هِيَ الَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ الشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي الرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَــكُنِ المَرْثِيَّــةُ مِنْ نِسَاءِ المُلُوكِ وَبَنَاتِ الأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ الشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ الطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

وَلَوْ أَنَّ النِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ القَصِيدَةِ :

مَشَى الأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَــاةً كَأَنَّ المَرْوَ مِنْ زِفِّ الرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ

أُجِلُّ قَدْرَكِ أَنْ تُسْمَى مُؤَبَّنَةً   وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

وَرِثَاءُ ٱلْأَطْفَالِ أَنْ يَذْكُرَ مَخَايِلَهُمْ وَمَا كَانَتِ ٱلْفِرَاسَةُ تُعْطِيهِ فِيهِمْ مِمَّنْ تَحَنَّنَ لِمَصَابِهِمْ وَتَفَجَّعَ بِهِمْ كَالَّذِي صَنَعَ أَبُو تَمَّامٍ فِي ٱبْنَيْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ مَدْحُهُ شَرِيفًا وَٱقْتِضَاؤُهُ لَطِيفًا وَهِجَاؤُهُ إِنْ هَجَا عَنِيفًا فَإِنَّ ٱلِٱقْتِضَاءَ ٱلْخَشِنَ رُبَّمَا كَانَ سَبَبَ ٱلْمَنْعِ وَٱلْحِرْمَانِ وَدَاعِيَةَ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْهِجْرَانِ. وَقَوْمٌ يُدْرِجُونَ ٱلْعِتَابَ فِي ٱلِٱقْتِضَاءِ وَٱلِٱقْتِضَاءَ بِٱلْعِتَابِ وَأَنَا أَرَى غَيْرَ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَصْوَبَ فَٱلِٱقْتِضَاءُ طَلَبُ حَاجَةٍ وَبَابُ ٱلتَّلَطُّفِ فِيهِ أَجْوَدُ فَإِنْ بَلَغَ ٱلْأَمْرُ ٱلْعِتَابَ فَإِنَّمَا هُوَ طَلَبُ ٱلْإِبْقَاءِ عَلَى ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْمُرَاعَاةِ وَفِيهِ تَوْبِيخٌ وَمُضَادَّةٌ لَا تَجُوزُ مَعَهَا بَعْدُ ٱقْتِضَاءٌ إِلَّا أَنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ خَلَطُوا هٰذَيْنِ وَسَاوَوْا بَيْنَهُمَا. فَمِنْ أَحْسَنِ ٱلِٱقْتِضَاءِ عَلَى مَا تَخَيَّرُوهُ وَنَحَوْتُ إِلَيْهِ قَوْلُ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي ٱلصَّلْتِ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ جُدْعَانَ:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي   حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ ٱلْحَيَاءُ

وَعِلْمُكَ بِٱلْحُقُوقِ وَأَنْتَ فَرْعٌ   لَكَ ٱلْحَسَبُ ٱلْمُهَذَّبُ وَٱلسَّنَاءُ

خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ   عَنِ ٱلْخُلُقِ ٱلْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ

إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا   كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

فَأَنْتَ تَرَى هٰذَا ٱلِٱقْتِضَاءَ كَيْفَ يُلِينُ ٱلصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ ٱلْقَطْرَ وَيَحُطُّ ٱلْعُصْمَ إِلَى ٱلسَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

لَأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ   إِنَّ ٱهْتِمَامَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا أَلُومُكَ إِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ   فَٱلشَّيْءُ بِٱلْقَدَرِ ٱلْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فَأَمَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ٱلْأُمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرُّخَا إِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ أُرَجِّيكَ   لِمَا أَخْشَى مِنَ ٱلدَّهْرِ

فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَوْكَدِ م   أَسْبَابِي إِلَى ٱلْفَقْرِ

أَتَرْضَى لِي بِأَنْ أَرْضَى   بِتَقْصِيرِكَ فِي أَمْرِي

وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْتُ   فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي

فَهُوَ ٱلْعِتَابُ ٱلْمَحْضُ وَٱلتَّوْبِيخُ ٱلَّذِي دُونَهُ ٱلْجَلْدُ بِٱلسَّوْطِ بَلْ بِٱلسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعْتُهُ فِي ٱلْعِتَابِ عَلَى هٰذَا ٱلشَّكْلِ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ ٱلْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْأَمْرِ ٱلْمُهِمِّ وَفِي يَدِي   بَقَايَا أُمَنِّي ٱلنَّفْسَ فِيهَا ٱلْأَمَانِيَا

فَسَاوَفْتَ فِي ٱلْأَيَّامِ حَتَّى إِذَا ٱنْقَضَتْ   أَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا

وَكُنْتُ كَأَنِّي نَازِفُ ٱلْبِئْرِ طَالِبًا   لِإِجْمَامِهَا أَوْ يَرْجِعَ ٱلْمَاءُ صَافِيَا

فَلَا هُوَ أَبْقَى مَا أَصَابَ لِنَفْسِهِ   وَلَا هِيَ أَعْطَتْهُ ٱلَّذِي كَانَ رَاجِيَا

وَمِنْ أَمْلَحِ مَا رَأَيْتُ فِي ٱلِٱقْتِضَاءِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ قَوْلُ أَبِي

ٱلعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلعَـلَاء . وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ :

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلعَيْنُ يَا عُمَرْ　　فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ
سَنَرْقِيـكَ بِٱلْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا　　فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاء :

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّـةً　　لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا　　بَعْـدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ
وَجَنَّةُ ٱلفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَـا　　آجِـلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِـلَهْ
لٰـكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي　　أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاء لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيـرًا وَٱلِٱقْتِضَاء لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسهِ)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاء فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاء وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ . وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلِٱسْتِلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِٱحْتِجَاجُ وَٱلِٱنْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلْإِجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِٱعْتِذَارُ وَٱلِٱعْتِرَافُ . وَأَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلْأَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ أَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ ... وَأُكْبِرُ قَدْرَكَ أَنْ أَسْتَرِيبَا
وَأَكْرَهُ أَنْ أَتَمَادَى عَلَى ... سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا
أُكَذِّبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخِطْتَ ... وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ أَكُنْ ... أَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَأَشْكُو ٱلْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحِي ... عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبَا
أَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ ... طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ ... يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَأَغْيَدَ إِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ ... كَلِيلًا وَإِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضًا ... وَأَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ ... رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ ... وَلَا خَوْفَ إِلَّا أَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
أُعِيذُكَ أَنْ أَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ
تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ إِلَيْكَ تَقَدَّمَا
أَلَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ
هِيَ ٱلْأَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ أَنْجُمَا

فَهٰذَا أَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عِتَابٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَوَافِي كَأَنَّهُ   طِعَانٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا ٱلْمُتَكَسِّرِ

وَقَدْ نَحَوْتُ أَنَا بَعْضَ هٰذَا ٱلنَّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا ٱلْقَاضِيَ جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُخَايِلًا   لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا

وَلٰكِنْ رَأَيْتُ ٱلْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً   عَلَيَّ إِذَا كَانَ ٱلْمَدِيحُ تَطَوُّعَا

فَقُمْتُ بِمَا لَا يَخْتَفِي عَنْكَ مَكَانُهُ   مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

إِلَى أَنْ أَقُولَ :

فَوَٱللّٰهِ مَا طَوَّلْتُ بِٱللَّوْمِ فِيكُمُ   لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا

أَلُوذُ بِأَكْنَافِ ٱلرَّجَاءِ وَأَتَّقِي   شَمَاتَ ٱلْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ أَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ :

تَقَطَّعَتِ ٱلْأَسْبَابُ إِنْ لَمْ تُعِرْ لَهَا
قُوًى أَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاصِلُ
سِوَى مَطْلَبٍ يُنْضِي ٱلرَّجَاءَ بِطُولِهِ
وَتُخْلِقُ أَخْلَاقَ ٱلْجُفُونِ ٱلْوَسَائِلُ
وَقَدْ تَأْلَفُ ٱلْعَيْنُ ٱلدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا
وَيُرْجَى شِفَاءُ ٱلسَّمِّ وَٱلسَّمُّ قَاتِلُ

إِلَى قَوْلِهِ :

وَإِنَّ ٱلْمَعَالِي يُسْتَرَمُّ بِنَاؤُهَا   وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ ٱلْمَنَازِلُ

مَنَحْتُكُهَا تَشْفِي ٱلْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ   وَتَبْعَثُ أَشْجَانَ ٱلْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تَرُدُّ قَوَافِيهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ   هَوَامِلَ مَجْدِ ٱلْقَوْمِ وَهْيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّيْتَهَا بِحُلِيِّهَا   تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهْيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِأَبِي ٱلصَّقْرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ :

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ   سَحَائِبُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا   وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ أَنَّنِي   ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

إِلَى أَنْ يَقُولَ :

سَأَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ   إِذَا ٱطَّرَدَ ٱلْقِيَاسُ أَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا . عَلَى أَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ :

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهْوَ مُسْبِلٌ   وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهْوَ مُنْعِمُ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ ٱلْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا   وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ أَقْتَمُ
وَمَا بَخِلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى   وَلٰكِنَّهَا ٱلْأَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَأَمَّا أَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

يَا أَعْدَلَ ٱلنَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي   فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ
أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً   أَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا ٱنْتِفَاعُ أَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ   إِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ ٱللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

فَهٰذَا ٱلْكَلَامُ فِي نِهَايَةِ ٱلْجُودَةِ غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ ٱلْوَاجِبِ وَٱلسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي ٱلْقُبْحِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَوْمٍ يَنْتَقِصُونَهُ عِنْدَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشْعَارِهِ . وَٱلْإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَبْيَاتٍ :

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَهُ وِجْدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمُ
مَا كَانَ أَخْلَقَنَا مِنْكُمْ بِتَكْرِمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمْرَكُمْ مِنْ أَمْرِنَا أَمَمُ
وَبَيْنَنَا لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ مَعْرِفَةٌ إِنَّ ٱلْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ ٱلنُّهَى ذِمَمُ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيُعْجِزُكُمْ وَٱللّٰهُ يَكْرَهُ مَا تَأْتُونَ وَٱلْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ ٱلْعَيْبَ وَٱلنُّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي
أَنَا ٱلثُّرَيَّا وَذَانِ ٱلشَّيْبُ وَٱلْهَرَمُ

وَلَيْسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ كَادَ يُقْتَلُ بَعْدَ ٱنْصِرَافِهِ مِنْ مَجْلِسِ إِنْشَادِهَا . وَأَمَّا عِتَابُ ٱلْأَكْفَاءِ وَأَهْلِ ٱلْمَوَدَّاتِ مِنَ ٱلظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبَّاسٍ ٱلصُّولِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْهِ كَمَا وَرَدَ :

وَكُنْتَ أَخِي بِإِخَاءِ ٱلزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرْتَ حَرْبًا عَوَانَا
وَكُنْتُ أَذُمُّ إِلَيْكَ ٱلزَّمَانَ فَأَصْبَحْتُ فِيكَ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَا
وَكُنْتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطْلُبُ مِنْكَ ٱلْأَمَانَا

وَهٰذَا عِنْدِي مِنْ أَشَدِّ ٱلْعِتَابِ وَأَوْجَعِهِ . وَمِنْ أَكْرَمِ ٱلْعِتَابِ قَوْلُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ :

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ ... وَأَنْتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاء

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ:

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ ... وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ

لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ ... إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ

وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ ... وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ

وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عِصَابَةٌ ... إِنْ حَصَّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ

وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى ... يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ

فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتَبْكِيَنَّ بِحَسْرَةٍ ... وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ

وَلَتُفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ ... حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ

وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ ... مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ

وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ ... وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ

وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا ... صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ

وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ ... وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ

وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ ... فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَإِلَى هُنَا أَوْمَأَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ:

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا ... فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدْتُ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ:

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ ... ـيَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
أَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْأَوَّلُ
حَسْبُ ٱلْأَحِبَّةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ   رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

إِلَّا أَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا أَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ أَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ أَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلٌ بَيِّنُ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا أَحْسَنَ إِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

ٱلْعُمْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً   مِنْ أَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابْ

وَقَالَ أَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْأُمُورِ مُعَاتِبًا   صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيُحَذِّرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْأُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ إِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ   تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا
أَأَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَإِنَّنِي   أَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا
أَأَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً   بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا
فَأَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَإِنَّهَا   كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا   فَتُضْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدٍ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ   إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا أَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرِّبَابِ رَهْطِ عَمْرِو بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمُ   لَا يُلْقِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ   لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا
كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ   وَآفَةُ ٱلْحُوتِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوَ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أَحْسَابَهَا   يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا اطْلَقَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ٱلْحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ ٱلزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ ٱلْهِجَاءَ ٱلْمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا ٱلْهِجَاءُ ٱلْمُقْذِعُ. قَالَ: ٱلْمُقْذِعُ أَنْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِي شِعْرًا عَلَى مَدْحٍ لِقَوْمٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِ لٰكِنِّي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنَلْ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَشَدُّ ٱلْهِجَاءِ أَعَفُّهُ وَأَصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ ٱلْوَسَاطَةِ: فَأَمَّا ٱلْهَجْوُ فَأَبْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلُوقُهُ بِٱلْقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِٱلنَّفْسِ فَأَمَّا ٱلْقَذْفُ وَٱلْفُحْشُ فَبَابٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ ٱلْوَزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ ٱلْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ ٱلْحُذَّاقِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَفُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعْلَمُ:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فَإِنَّ هٰذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ ٱلْهِجَاءِ وَأَمَضِّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ ٱلنَّابِغَةُ بَعْدَ وَقْعَةِ حِسًا سَأَلَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفْحَشْتُمْ عَلَى ٱلرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنِّي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا   فَإِنَّ مَظِنَّةَ ٱلْجَهْلِ ٱلشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي ٱلْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي ٱلنَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ : أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ ٱبْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ٱبْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ : لَسْتَ كَٱلرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ فَيُصَدَّقَ وَيُحْمَلَ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي ٱلْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ : أَنْتَ وَٱللّٰهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِٱلْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ٱلْأَسْلَمِيُّ ٱلْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ   وَمَهْمَا قَالَ فَٱلْحَسَنُ ٱلْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ ٱلْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ ٱلْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ : إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى ٱلتَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ لِٱتِّسَاعِ ٱلظَّنِّ فِي ٱلتَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ عِلْمًا وَقَبِلَتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ ٱلتَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا ٱلتَّصْرِيحُ فَذَلِكَ . وَلِهَذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَاسٍ وَكَذَلِكَ هِجَاءُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ فِيهِ ٱخْتِلَافٌ لِٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِ ٱلْمَهْجُوِّينَ فَمِنَ ٱلتَّفْضِيلِ فِي ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّقِّيِّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِي ٱلنَّدَى   يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَٱلْأَغَرِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْقَيْسِيِّ إِتْلَافُ مَالِهِ   وَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْعَبْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ   وَلَكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ

وَمِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَٱلِٱسْتِخْفَافِ قَوْلُ زِيَادٍ ٱلْأَعْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جَرْمٍ فَإِنَّمَا   يُقَالُ لِشَيْخِ ٱلصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ أَنْتُمُ إِنَّا نَسِينَا مَنَ أَنْتُمُ   وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ ٱلْأَعَاصِرِ
أَأَنْتُمْ أُولَى جِئْتُمْ مَعَ ٱلرِّيحِ وَٱلدَّبَا   فَطَارَ وَهَذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى ٱللهُ خَلْقَ ٱلنَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ   بَقِيَّةَ خَلْقِ ٱللهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا إِلَّا مَدَقَّ ٱلْحَوَافِرِ

أَخَذَ مِنْهُ ٱلطِّرِمَّاحُ هَذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا   وَضَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ ٱلْقَبَائِلِ

وَمِنَ ٱلِٱحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى ٱلْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ   وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ   وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهُمَا ٱلْعَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ ٱلتَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هَفَّانَ :

سُلَيمانُ ميمُونُ ٱلنَقيبَةِ حَازِمٌ   وَلكِنَّهُ وَقفٌ عَليهِ ٱلهَزَائِمُ

وَفيهِ يَقُولُ ٱبنُ ٱلرُّومِيِّ :

قِرنُ سُلَيمانَ قَد اَضَرَّ بِهِ   شَوقٌ اِلَى وَجهِهِ سَيتلِفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلقِرنَ بِٱللقاءِ وَكَمْ   يَـكذِبُ فِي وَعدِهِ وَيُخلِفُهُ

اَخَذَ معنَى ٱلبَيتِ ٱلاَخيرِ مِن قَولِ ٱلخَـارِجِيِّ . وَقَد قَالَ لَهُ ٱلمنصُورُ : اَيُّ اَصحَابِي كَانَ اَشَدَّ اِقدَامًا فِي مُبارَزَتِكُم فَقَالَ : مَا اَعرِفُ وُجُوهَهُم وَلـكِن اَعرِفُ اَقفَاءَهُم . وَاَجوَدُ فِي ٱلهِجَاءِ اَن يَسلِبَ ٱلاِنسانَ ٱلفَضَائِلَ ٱلنَفسِيَّـةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِن بَعضِهَا . فَاَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلخِلقَةِ ٱلجِسمَانِيَّةِ مِنَ ٱلمَعَايِبِ فَاِنَّ ٱلهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هِجوًا ٱلبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلآبَاءِ وَٱلاُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَقصِ وَٱلفَسَادِ لَا يَـكُونُ عَيبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَابِغَةُ ٱلجَعدِيُّ يَقُولُ اِنِّي وَاَوسًا لَنَبتَـدِرُ بَابًا مِنَ ٱلهِجَاءِ فَمَن غَلَبَ مِنَّا اِلَيهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ اَوسُ بنُ مَغرَاءَ :

لَعَمرُكَ مَا تَبلَى سَرَابِيـلُ عَامِرٍ   مِنَ ٱللُّؤمِ مَا دَامَت عَلَيهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ : هٰذَا ٱلبَيتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبتَـدِرُهُ . وَٱلَّذِي اُرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ اَنَّ اَشَدَّ ٱلهِجَاءِ مَا اَصَابَ ٱلغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفُ ٱلاَحمَرُ بِعَينِهِ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسه)

وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ أَنْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإِنِ اضْطَرَّهُ ٱلْمِقْدَارُ إِلَى ذٰلِكَ وَأَوْقَعَهُ فِيهِ ٱلْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصَدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ ٱلْمُعْتَذَرِ إِلَيْهِ مِنْ بَابِ ٱلِاحْتِجَاجِ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ ٱلْمُلُوكِ وَذَوِي ٱلسُّلْطَانِ وَحَقُّهُ أَنْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدْرَجًا فِي ٱلتَّضَرُّعِ وَٱلدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ ٱلْمُلُوكِ وَإِعَادَةِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ ٱلنَّاقِلِ وَٱلْحَاسِدِ فَأَمَّا مَعَ ٱلْإِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَقَدْ أَحْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلْأَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ أَسَأْتُ فَبِٱلنُّعْمَى ٱلَّتِي سَلَفَتْ ... إِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ أَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ :

ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهَا ... جَهْدُ ٱلْأَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ

مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَٱلْغُوَاةُ تَمُدُّنِي ... أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ أَبُو عَلِيٍّ ٱلْبَصِيرُ مَذْهَبَ ٱلْحُجَّةِ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ بَعْدَ ٱرْتِكَابِ ٱلْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا فَإِنْ زَعَمْتَ بِأَنْ ... جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا ٱلنَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدِ ٱللهُ أَبَا جَعْفَرٍ   دَعَابَةٌ بِتُّ عَلَى نَارِهَا
وَإِنْ تَأَذَّيْتَ فَيَا رُبَّمَا   تَأَذَّتِ ٱلْعَيْنُ بِأَشْفَارِهَا

وَأَجَلُّ مَا وَقَعَ فِي ٱلِٱعْتِذَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ ٱلْعَرَبِ قَصَائِدُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلثَّلَاثُ إِحْدَاهُنَّ «يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلْعَلْيَاءِ فَٱلسَّنَدِ» يَقُولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمْرُ ٱلَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ   وَمَا هُرِيقَ عَلَى ٱلْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَٱلْمُؤْمِنِ ٱلْعَائِذَاتِ ٱلطَّيْرَ تَمْسَحُهَا   رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ ٱلْغِيلِ وَٱلسَّعَدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ   إِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا   كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى ٱلْكَبِدِ
أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي   وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ ٱلْأَسَدِ

وَٱلثَّانِيَةُ (أَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا مِنْ مَدْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُحْتَجًّا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً   وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً   لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَأً لِيَ جَانِبٌ   مِنَ ٱلْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ   أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ ٱصْطَنَعْتَهُمْ   فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذٰلِكَ أَذْنَبُوا
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِٱلْوَعِيدِ كَأَنَّنِي   إِلَى ٱلنَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ ٱلْقَارُ أَجْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً   تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ   إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَٱلثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَٱلْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قَسَمٍ قَدَّمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ ٱمْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي ٱلْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

فَإِنْ كُنْتَ لَا ذُو ٱلضِّغْنِ عَنِّي مُكَذِّبٌ وَلَا حَلِفِي عَلَى ٱلْبَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَدْ عَلِقَ بِهَذَا ٱلْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ يَعْتَذِرُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ وَأَنْتَ ذَاكَ بِمَا نَأْتِي وَنَجْتَنِبُ

وَأَنْتَ كَٱلدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَٱلدَّهْرُ لَا مَلْجَأٌ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ

وَقَالَ عُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنَّنِي أَفُوتُكَ إِنَّ ٱلرَّأْيَ مِنِّي لَعَازِبُ

وَإِلَى هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلٰكِنَّكَ ٱلدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

غَيْرَ أَنَّهُ حَرَّفَ ٱلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَٱخْتَارَ ٱلْعُلَمَاءُ بِهَذَا ٱلشَّأْنِ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِٱمْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ وَلَوْ رَفَعَتْهُ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلْمَطَالِعُ

بَلَى هَارِبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ

لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ ٱلنَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلصُّبْحِ وَأَظُنُّهُ ٱقْتَدَى بِقَوْلِ ٱلْأَصْمَعِيِّ فِي بَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ : لَيْسَ ٱللَّيْلُ أَوْلَى

بِهٰذَا ٱلْمَثَلِ مِنَ ٱلنَّهَارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِٱعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . وَأَفْضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا . وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِيعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ
فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللّٰهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ حُجْرٍ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَدْكَاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِٱنْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :

وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ ٱلدَّابَّةَ اَيْ جَعَلْتُ لَهَا عِذَارًا يَحْجُزُهَا مِنَ ٱلشِّرَادِ فَمَعْنَى اَعْتَذَرَ ٱلرَّجُلُ اَحْتَجَزَ وَعَذَرْتُهُ جَعَلْتُ لَهُ حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْعُقُوبَةِ اَوِ ٱلْعَتْبِ وَمِنْهُ تَعَذَّرَ ٱلْاَمْرُ وَٱحْتَجَزَ اَنْ يُقْضَى وَمِنْهُ جَارِيَةٌ عَذْرَاءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ ٱلْاَعْشَى اَسْيَرَ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَاَعْظَمَهُمْ فِيهِ حَظًّا حَتَّى كَادَ يُنْسِي اَصْحَابَهُ ٱلْمَذْكُورِينَ مَعَهُ وَقَبْلَهُ زُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَكَانَ جَرِيرٌ بَاقِعَةً سَائِرَ ٱلشِّعْرِ مُظَفَّرًا. قَالَ ٱلْاَخْطَلُ لِلْفَرَزْدَقِ وَاَنَا وَٱللّٰهِ اَشْعَرُ مِنْ جَرِيرٍ غَيْرَ اَنَّهُ رُزِقَ مِنْ سَيْرُورَةِ ٱلشِّعْرِ مَا لَمْ اُرْزَقْهُ وَقَدْ قُلْتُ بَيْتًا لَا اَحْسَبُ اَحَدًا قَالَ اَهْجَى مِنْهُ

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَرَبِ قَبِيلَةٌ اِلَّا وَقَدْ نِيلَ مِنْهَا وَعُيِّرَتْ وَهُجِيَتْ فَحَطَّ ٱلشِّعْرُ مِنْهُمْ بَعْضًا بِمُوَافَقَةِ ٱلْحَقِيقَةِ وَمَضَى صَفْحًا عَلَى ٱلْآخَرِينَ لَمَّا لَمْ يُوَافِقِ ٱلْحَقِيقَةَ وَلَا صَادَفَ مَوْضِعَ ٱلرِّيبَةِ. فَمِنَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُحِكْ فِيهِمْ هِجَاءٌ اِلَّا قَلِيلًا عَلَى كَثْرَةِ مَا قِيلَ فِيهِمْ تَمِيمُ بْنُ مُرَّةَ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ وَاَسَدُ بْنُ خُزَيْمَةَ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ ٱلْيَمَنِ. فَاَمَّا مَنْ شُقُوا بِٱلْهِجَاءِ وَمُزِّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ عَلَى تَقَدُّمِهِمْ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْفَضْلِ اَحْيَاءٌ مِنْ قَيْسٍ نَحْوَ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةَ بْنِ اَعْصُرَ بْنِ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَٱسْمُ غَنِيٍّ

عَمْرٌو وَكَانُوا مَوَالِيَ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ يَحْمِلُونَ عَلَيْهِمِ ٱلدِّيَاتِ وَٱلنَّوَائِبَ وَنَحْوَ مُحَارِبِ بْنِ خَصَفَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ غَيْلَانَ وَجَسْرِ بْنِ مُحَارِبٍ وَمِنْ وُلْدِ طَابِخَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ تَيْمٌ وَعُكْلٌ أَبْنَا عَبْدِ مَنَاةَ وَقَعَ عَلَيْهِمِ ٱلسَّبُّ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَٱسْتَهَانَتِ ٱلْعَرَبُ بِهِمْ وَٱنْطَبَعَ ٱلْهِجَاءُ فِيهِمْ وَعَدِيُّ بْنُ عَبْدِ مَنَاةَ كَانُوا قَطِينًا لِحَاجِبِ بْنِ زُرَارَةَ وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَمْلِكَهُمْ مِلْكَ رِقٍّ بِسِجِلٍّ مِنْ قِبَلِ ٱلْمُنْذِرِ. وَٱلْحَبِطَاتُ وَهُمْ وُلْدُ ٱلْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ وَسُمِّيَ ٱلْحَبِطَ لِعِظَمِ بَطْنِهِ شَبَّهُوهُ بِٱلْجَمَلِ ٱلْحَبِطِ وَهُوَ ٱلَّذِي ٱنْتَفَخَ بَطْنُهُ مِنْ كَلَإٍ يَسْتَوْبِلُهُ. فَأَمَّا ٱلسَّلُولُ فَقَدْ قَالَ فِيهِمْ أَبُو زِيَادٍ ٱلْكِلَابِيُّ: كِرَامٌ مِنْ كِرَامِ صَعْصَعَةَ لَمْ يُخَالِفُوا فِي أَمْرٍ وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي صَغَارٍ وَإِنَّمَا كَلِمَةُ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ هِيَ ٱلَّتِي شَامَتْهُمْ يُرِيدُ قَوْلَهُ: أَغُدَّةً كَغُدَّةِ ٱلْبَعِيرِ وَمَوْتًا فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ. قُلْتُ أَمَّا عَامِرٌ فَقَدْ قَالَ هٰذِهِ ٱلْكَلِمَةَ حِينَ دَعَا عَلَيْهِ ٱلرَّسُولُ فَمَا يَصْنَعُ بِقَوْلِ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاء:

وَإِنَّا لَقَوْمٌ لَا نَرَى ٱلْقَتْلَ سُبَّةً ‏ إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

وَٱلسَّمَوْأَلُ فِي زَمَانِ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَيْنَ أَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَمَبْعَثِ ٱلرَّسُولِ مِئَةٌ وَأَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً. قَالَ ٱلْجَاحِظُ لَمْ يُمْدَحْ قَبِيلَةٌ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْ قُرَيْشٍ كَمَا مُدِحَتْ مَخْزُومٌ. قَالَ وَكَانَ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ أَخْطَأَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خُلَفَائِهِمْ. وَمَا أَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ نِعْمَةً بَعْدَ وِلَايَةِ ٱللهِ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ ٱلرَّجُلُ مُمَدَّحًا. قُلْتُ أَنَا: أَمَّا هٰذِهِ ٱلنِّعْمَةُ فَقَدْ أَحَلَّهَا ٱللهُ مُضَاعَفَةً

عِنْدَ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْهُ بِٱلِاسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا وَنَزَلَتْ مَنْزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا. وَأَحْيَا ٱللهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ بِمَا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَعْنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا فَنَبِّهْ لَهَا عَمْرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

إِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّهَا قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: لَمْ يَمْدَحْ أَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرُ ٱلْحُطَيْئَةِ:

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُجَاوِرُ فِي كُلَيْبٍ بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمَ لِأَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمَ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا. فَأَقَامَتْ تَمِيمُ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ:

أَبَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْأَجْنَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ حَتَّى يُحَاكِمَهُمْ إِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَأَنَّهُمْ فِي ٱلْعِزِّ أُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ كَبَنِي زُرَارَةَ أَوْ بَنِي عَتَّابِ

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ   وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزَئِلٍّ كَأَنَّهُمْ   بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمٌ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمٍ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمَحْدُودُونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ حَيٌّ :

تَعَالَى ٱللّٰهُ يَا مُسْلِمَ بْنَ عَمْرٍو   أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ اَبِي حَفْصَةَ اُعْطِيَ مِائَةَ اَلْفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابَلُ اِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْبُيُوتَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلشِّعْرِ. وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى مَا وَصَلَ اِلَيْهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَمْحًا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْاِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ ٱلْاَحْنَفِ. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ. وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ. وَامَّا اَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِّيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْاَمْوَالِ لِاَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْاَرْضَ وَكَذٰلِكَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَنْشَدَنَا اَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ اَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ اِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ:

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ اَسَابِقِي ... اِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْاَصَابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ اِلَّا وَهُوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ اَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ اِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ: اَتَسْبِقُنِي اَنْتَ اِلَى ٱلْاَكْلِ اَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ اِذًا اَصَابِعِي اِذَا لَمْ اَرْمِكَ فَاَقْتُلُكَ وَآكُلُ لَحْمَكَ. ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ: لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفْرَةٍ يَعْنِي ٱلذِّئْبَ إِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهُوَ لَا يُبْقِي عَلَيَّ لِأَنِّي أَقْتُلُهُ قَبْلَ أَنْ يَشْبَعَ مِنْ لَحْمِي . وَمِنْ أَنَاشِيدِهِمْ :

أَبُوكَ ٱلَّذِي تُنْبِتُ يَحْبِسُ خَيْلَهُ ... غَدَاةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَجِفَّ لَهَا ٱلْبَقْلُ

قَالُوا إِذَا أَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيْفِ ٱلْأَرْضَ أَنْبَتَتْ بَقْلًا فِي أُصُولِ بَقْلٍ قَدْ يَبِسَ فَذَلِكَ ٱلْأَخْضَرُ هُوَ ٱلنَّشْرُ وَهُوَ ٱلْغَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ ٱلْإِبِلُ فَيَأْخُذُهَا ٱلسُّهَامُ وَلَا سُهَامَ فِي ٱلْخَيْلِ فَعَابَهُ بِٱلْجَهْلِ بِٱلْخَيْلِ . قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : هٰذَا ٱلْقَوْلُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْخَيْلِ لِأَنَّ ٱلنَّشْرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا أَكَلَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سُهَامٌ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ قُبَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ وَذِكْرِ آلِ ٱلرَّسُولِ :

أُولَئِكَ قَوْمٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ ... وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلْقَتْلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَوْمٌ أَرَادَ لَمْ يُغْمِدُوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا بَعْدَ كَثْرَةِ ٱلْقَتْلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ أَضْرِبْكَ وَلَمْ تَجْنِ عَلَيَّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ . وَقَالَ آخَرُونَ : أَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ إِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلْقَتْلَى كَمَا تَقُولُ : لَمْ أَلْقَكَ وَلَمْ أُحْسِنْ إِلَيْكَ أَيْ إِلَّا وَقَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ وَٱلْقَوْلَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْأَضْدَادِ وَيُنْشِدُونَ قَوْلَ ٱلْآخَرِ :

هَجَمْنَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَكْعَمُ كَلْبَهُ ... دَعِ ٱلْكَلْبَ يَنْبَحْ إِنَّمَا ٱلْكَلْبُ نَابِحُ

وَيُرْوَى :

دَفَعْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْنُقُ كَلْبَهُ ... أَلَا كُلُّ كَلْبٍ لَا أَبَا لَكَ نَابِحُ

وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ :

تَجَنَّبْتَ ٱلْجُيُوشَ أَبَا حَبِيبٍ ... وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا زَيْنَبَ قَالَ: إِنْ دَعَا لَهُ فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَافَى مِنَ ٱلْجُيُوشِ وَأَنْ يَجُودَهُ ٱلسَّحَابُ فَتُخْصِبَ أَرْضُهُ وَإِنْ دَعَا عَلَيْـهِ قَالَ: لَا أَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيـهِ ٱلْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ ٱلْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِأَنْ تَدْرُسَهَا ٱلْأَمْطَـارُ . وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ فَأَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَـةَ لَكَ فِيهَا فَذٰلِكَ أَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ ٱلْمَعْنَى حِينَئِـذٍ كَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

وَخَيْفَاءَ أَلْقَى ٱللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ ... فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

أَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ. وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ ٱللّٰهِ أَيْضًا:

إِنِّي عَلَى كُلِّ إِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ ... أَدْعُو حَنِيفًا كَمَا تُدْعَى ٱبْنَةُ ٱلْجَبَلِ

وَرَوَى ٱلْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ أَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَٱلصَّدَا وَهُوَ ٱبْنَةُ ٱلْجَبَلِ وَقِيـلَ ٱبْنَةُ ٱلْجَبَلِ ٱلصَّخْرَةُ ٱلْمُنْحَدِرَةُ مِنْ أَعْلَاهُ. وَزَادَ أَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ:

إِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ ... عَارِي ٱلْأَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهٰذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ ٱلْآخَرِ:

كَأَنِّي إِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ ... دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ ٱلْجِبَـالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ ٱلْأَوَّلِ فِي سُرْعَةِ ٱلْإِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ إِلَى ٱلثِّقَلِ عَنْ إِجَابَتِهِ مِثْلَ ٱلْجِبَالِ . وَمِنَ ٱلدُّعَاءِ ٱلَّذِي يَدْخُلُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا ... يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا ٱلذِّئْبَ وَٱلضَّبُعَا

قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا ٱجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَيَشْغَلُ كُلٌّ مِنْهُمَا ٱلآخَرَ وَإِذَا تَفَرَّقَا أَدَيَا وَقِيلَ: إِنَّ مَعْنَاهُ فِي ٱلدُّعَاءِ عَلَيْهَا: قَتَلَ ٱلذِّئْبُ ٱلأَحْيَاءَ عَبَثًا وَأَكَلَتِ ٱلضَّبُعُ ٱلأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ. وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ:

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي ... صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ هِجَانِ

وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ ٱلثُّنْيَانَ وَلَا يَغْلِبُ ٱلْفَحْلَ لٰكِنْ أَرَادَ ٱلتَّصْغِيرَ بِٱلَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثُنْيَانًا. وَقَالَ آخَرُ:

وَمَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي ... يَجِيءْ قَبْلَ ٱلسَّوَابِقِ وَهُوَ ثَانِ

أَرَادَ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَا يُسْبَقُ مُتَمَهِّلًا. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَيُذَمُّ قَوْلُهُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ ٱلطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا لَا أَصْلَ لَهَا. قَالَتْ أُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا:

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ ... لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ ٱلأَبَدِ

لٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ ... مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ

فَهٰذَا ٱلْمَدْحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ ٱلرَّاعِي ٱلنُّمَيْرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ ٱلرِّقَاعِ ٱلْعَامِلِيَّ:

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ تُهْجَى هَجَوْتُكُمُ
يَا ٱبْنَ ٱلرِّقَاعِ وَلٰكِنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدِ
تَأْبَى قُضَاعَةُ أَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا
وَٱبْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ:

وَإِنِّي لَظَلَّامٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ

وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَفْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بَلَدِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلْإِرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأْيِيدُ . وَٱلْإِرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنَبْوِ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ أَوْ نَبَا حَدُّهُ
لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ
فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ
نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ
كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا
وَيَقْطَعْنَ أَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ
وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ أَنْفِهِ
إِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ جَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ
إِذَا أَثْقَلَ ٱلْأَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَأَعْظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَإِنَّهُ يُقَالُ أَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ. وَكَذَلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ. وَقِيلَ: أَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ أَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلِٱرْتِجَالِ وَهُوَ أَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِٱرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي إِلَّا فَلْتَةً. وَيُرْوَى أَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ: وَأَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ. فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا أَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي ... أَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

دِمَاكُمْ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ ... أَكُولٍ لِحَيَّاتِ ٱلْبِلَادِ شَرُوبِ
فَإِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ ... فَإِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبِ

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيْهِ: وَٱللهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصْقَعٌ فَكَيْفَ رَأَيْتَ فَٱعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَحَلَفَ: إِنْ كُنْتُ إِلَّا مَازِحًا. وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ: كَانَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ نَظِيرَ أَبِي نُوَاسٍ فِي وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ فِي أَشْيَاءَ إِلَّا أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ قَهَرَ بِٱلْبَدِيهَةِ وَٱلِٱرْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَإِظْهَارِ تَوَقُّرٍ وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ أَقْدَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱرْتِجَالٍ وَبَدِيهَةٍ لِقُرْبِ مَأْخَذِهِ وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَٱجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِمْ أَبُو نُوَاسٍ فَشَرِبَ أَحَدُهُمْ مَاءً ثُمَّ قَالَ أَجِيزُوا: بَرَدَ ٱلْمَاءُ وَطَابَا. فَكُلُّهُمْ تَلَعْثَمَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ. قَالَ: فِيمَ أَنْتُمْ فَأَنْشَدُوهُ. فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ: حَبَّذَا ٱلْمَاءُ شَرَابَا. فَأَتَى بِٱلْقَسِيمِ شَبِيهًا بِصَاحِبِهِ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي أَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ لَا وَزْنُ ٱلْكَلَامِ. وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ ٱلدُّيُوكِ. فَقَالَ لِرَفِيقِهِ: هَلْ رَأَيْتَ ٱلصُّبْحَ لَاحَا. قَالَ نَعَمْ. قَالَ: وَسَمِعْتَ ٱلدِّيكَ صَاحَا. قَالَ نَعَمْ. قَالَ:

إِنَّمَا يَبْكِي عَلَى ٱلْمُغْ ... تَرِّ بِٱلدُّنْيَا وَنَاحَا

فَٱسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ أَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ. فَأَجْرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَهُوَ ٱلِٱرْتِجَالُ. وَأَمَّا ٱلْبَدِيهَةُ فَبَعْدَ أَنْ يُفَكِّرَ ٱلشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سريعًا إنْ حضرتْ آلةٌ الّا أنّهُ غيرُ بطيءٍ ولا مُتراخٍ فإنْ أطالَ حتّى يُفرِطَ أوْ قامَ مِنْ مجلسِهِ لمْ يَعُدْ بديهًا

وقالوا اجتمعَ الشّعراءُ بِبابِ الرّشيدِ فأذنَ لهمْ وقالَ: مَنْ يُجيزُ هذا القسيمَ ولهُ حُكْمُهُ. قالوا: ما هوَ يا أميرَ المؤمنينَ. قالَ: ألمُلكُ للهِ وحدَهُ. فقالَ الجمّازُ: وللخليفةِ بعدَهُ وللمحبِّ إذا ما حبيبُهُ باتَ عِنْدَهُ. فقالَ: أحسنتَ وأتيتَ على ما في نفسي وأمرَ لهُ بعشرةِ آلافِ درهمٍ. وقدْ كانَ أبو الطّيّبِ كثيرَ البديهةِ والارتجالِ الّا أنّ شِعرَهُ فيها نازلٌ عنْ طبقتِهِ جدًّا وهوَ لعمري في سعةٍ مِنَ الفَنَدِ إذْ كانتِ البديهةُ كما قالَ ابنُ الرّوميِّ فيها:

نارُ الرّويّةِ نارٌ جِدُّ مُنضِجةٍ ... وللبديهةِ نارٌ ذاتُ تلويحِ
وقدْ يُفضِّلُها قومٌ لِعاجلِها ... لكنّ عاجلَها يمضي معَ الرّيحِ

وقالَ ابنُ المعتزِّ:

والقولُ بعدَ الفكرِ يُؤْمَنُ زَيْغُهُ ... شتّانَ بينَ رَويّةٍ وبديهةِ

ومِنَ الشّعراءِ مَنْ شِعرُهُ في الرّويّةِ والبديهةِ سواءٌ وعندَ الأمنِ والخوفِ لِقُدرتِهِ وسكونِ جأشِهِ وقوّةِ غريزتِهِ كهُدبةَ بنِ الخشرمِ العُذريِّ وطرفةَ بنِ العبدِ البكريِّ ومُرّةَ بنِ مَحكانَ السّعديِّ إذْ يقولُ وقدْ أمرَ مُصعبُ بنُ الزّبيرِ رجلًا مِنْ بني أسدٍ بقتلِهِ:

بني أسدٍ إنْ تقتلوني تُحارِبوا ... تميمًا إذا الحربُ العوانُ اشمعلّتِ
ولستُ وإنْ كانتْ إليَّ حبيبةً ... بباكٍ على الدّنيا إذا ما تولّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى أَمْنٍ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ أَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا أَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ إِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ   أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا
أَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ   نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ أَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَأَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ أَلْفَ نَاقَةٍ فَأَبَوْا إِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ   وَإِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ ٱلْعَبْدِ لَمَّا أَيْقَنَ بِٱلْمَوْتِ :

أَبَا مُنْـذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي ٱلطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
أَبَا مُنْـذِرٍ أَفْنَيْتَ فَٱسْتَبْقِ بَعْضَنَا
حَنَانَيْكَ بَعْضُ ٱلشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَأَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عَبِيدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ ٱلصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي ٱلسِّنِّ عَلَى ٱلْجَمَاعَةِ إِذْ يَقُولُ لَهُ ٱلنُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : أَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالَ ٱلْجَرِيضُ دُونَ ٱلْقَرِيضِ . قَالَ : أَنْشِدْنِي قَوْلَكَ أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ . فَقَالَ :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْـلِهِ عَبِيـدُ   فَٱلْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَفَةِ بَعْضَ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولٍ   جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ

بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ أَقْرَبُهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهِنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلِٱرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرٌ رَجِلٌ إِذَا كَانَ شَعَرُهُ سَبِطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حُكْمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلْيَكُنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَزُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ اَنِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَمُجَّهُ اَبْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ اَبِي فَنَنٍ:

وَإِنَّ اَحَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَإِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

اَٱللَّوْمُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَٱعْتَدَى لِلْبُخْلِ جَرْيًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِٱتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَخَبَرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ اَكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِاَنَّهُ قَيْدٌ لِلْاَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَاَيَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْاَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ بَعْضَ اَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ اَصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْاَخْبَارِ وَٱلتَّلْمَذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ اَنَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ مَاثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ ٱلْقُوَّةَ عَلَى ٱلنُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ ٱلْآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ ٱلْعَجَّاجِ عَنِ ٱلْفَحْلِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ ٱلرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى ٱسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَٱسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِٱلسِّحْرِ . وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ ٱلشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ ٱلشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ وَيَسْمَعَ ٱلْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ ٱلْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ ٱلْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَٱلنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَٱلنَّسَبَ وَأَيَّامَ ٱلنَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذٰلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَنَاقِبِ وَٱلْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ٱبْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذٰلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ ٱلنُّمَيْرِيُّ وَٱسْمُهُ ٱلْهَيْثَمُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَأَنْطَقِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِٱلْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عَنْهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ . وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ اشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَإِشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ . وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَٱفْتِنَانٌ . لَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَإِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَّةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَيُجَارِيهُ . وَإِذَا أَعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَأَخِّرِ ٱشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى أَنْ يَكُونَ أَوْثَقَ سِهَامًا وَأَحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ . وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ أَوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَإِذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ . وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ ٱلْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَأَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْجِدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَتِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَإِنْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَإِنْ مَدَحَ أَطْرَبَ وَأَسْمَعَ وَإِنْ هَجَا أَقَلَّ وَأَوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ أَغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ إِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا . وَقَدْ قِيلَ : لِكُلِّ

مقام مقالٌ . وشعرُ الشاعر لنفسه وفي مراده وأمور ذاته من مدح وغزل ومكاتبة ومجون وخمرية وما أشبه ذلك غيرُ شعره في قصائد الحفل التي يقوم بها بين السماطين . يقبل منه في تلك الطريق عفوُ كلامه وما لا يتكلّف له ولا ألقى به بالًا ولا يقبل منه في هذه إلّا ما كان محككًا معاودًا فيه النظرُ جيدًا لا غثّ فيه ولا ساقط ولا قلق . وشعرُه للأمير غيرُ شعره للوزير والكاتب ومخاطبتُه للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدّم من هذه الأنواع

والمتأخر من الشعراء في الزمان لا يضرُّه تأخُّره إذا أجاد كما لا ينفع المتقدم تقدُّمه إذا قصّر وإن كان له فضل السبق فعليه دَرَك التقصير كما أنّ للمتأخر فضل الإجادة والزيادة . ولا يكون الشاعر حاذقًا مجودًا حتى يتفقّد شعره ويعيد فيه نظره فيُسقط رديه ويُثبت جيده ويكون بالركيك مُطرحًا له راغبًا عنه . فإنّ بيتًا جيدًا مقام ألف رديّ . وقال امرؤ القيس وهو أوّل ما زعموا أنّه اختير له وعلم به أنّه أفضل الشعراء والمقدّم عليهم :

أذودُ القوافي عنّي ذيادا ذيادَ غلامٍ جريءٍ جرادا
فلمّا كثُرن وعنّينه تخيّر منهنّ ستًا جيادا
فأعزِلُ مرجانها جانبًا وآخذ من دُرّها المستجادا

ويقال إنّ أبا نواس كان يفعل هذا الفعل ويُبقي الجيد ويلتمس له من الكلام ما سهل ومن المعنى ما كان واضحًا جليًا

يُعرَفُ بَدِيًّا. فَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ: شَرُّ ٱلشِّعْرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ. وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ يَقُولُ: خَيْرُ ٱلشِّعْرِ ٱلْحَوْلِيُّ ٱلْمُحَكَّكُ. اَخَذَ فِي ذٰلِكَ بِمَذْهَبِ زُهَيْرِ بْنِ اَبِي سُلْمَى وَاَوْسٍ وَطُفَيْلٍ. وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِهِ اَنْ يَكُونَ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ مُثْنِيًا عَلَى شِعْرِهِ وَاِنَّ فَضِيحَةً ظَاهِرَةً كَانَ غَنِيًّا عَنْهَا. وَكَانَ فِي ٱلْبُحْتُرِيِّ اِعْجَابٌ شَدِيدٌ اِذَا اَنْشَدَ يَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَعْجَبُونَ مَا اَحْسَنَ مَا تَسْمَعُونَ. فَاَنْشَدَ ٱلْمُتَوَكِّلَ يَوْمًا قَصِيدَتَهُ:

عَنْ اَيِّ ثَغْرٍ تَبْتَسِمْ   وَبِاَيِّ طَرْفٍ تَحْتَكِمْ

وَاَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَاى اِعْجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ وَقَالَ:

مِنْ اَيِّ سَلْحٍ تَلْتَقِمْ   وَبِاَيِّ كَفٍّ تَلْتَطِمْ

فَوَلَّى وَهُوَ غَضْبَانُ. فَقَالَ: وَعَلِمْتُ اَنَّكَ تَنْهَزِمْ. فَضَحِكَ ٱلْمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجْلَيْهِ وَاَعْطَى ٱلصَّيْمَرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَاِنْ كَانَ فَحْلًا حَاذِقًا مُبَرِّزًا مُقَدَّمًا مِنْ فَتْرَةٍ تَعْرِضُ لَهُ فِي بَعْضِ ٱلْاَوْقَاتِ اِمَّا لِشُغْلٍ طَرَاَ اَوْ مَوْتِ قَرِيحَةٍ اَوْ نُبُوِّ طَبْعٍ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ اَوْ ذٰلِكَ ٱلْحِينِ. وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ أَضْرَاسِي أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ فَإِذَا تَأَدَّى ذٰلِكَ عَلَى ٱلشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ أَصْفَى كَمَا يُقَالُ أَصْفَتِ ٱلدَّجَاجَةُ إِذَا ٱنْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ أَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِلْحَافِرِ ٱلْبِئْرِ إِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ ٱلْأَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ أَجْبَلَ . وَأُفْحِمَ ٱلشَّاعِرُ عَلَى أُفْعِلَ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَحَمَ ٱلصَّبِيُّ إِذَا ٱنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْبُكَاءِ . فَإِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ أَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتَرٌ . وَقَدْ قِيلَ فِي ٱلذُّبْيَانِيِّ إِنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ ٱلْعُيُوبِ لِأَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتِرْ وَأَكْثَرُ مَا جَاءَ ٱلْإِهْتَارُ فِي صِفَةِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ إِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ أَخْلَى ٱلشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ أَخْلَى ٱلرَّامِي إِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ ٱلْبُحْتُرِيِّ أَنَّهُ قَالَ : فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ ٱلْجَهْمِ فِي ٱلشِّعْرِ وَذَكَرَ أَشْجَعَ ٱلسُّلَمِيَّ فَقَالَ : إِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ أَفْهَمْهَا وَأَنِفْتُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا ٱنْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ أَشْجَعَ فَإِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ ٱلْأَبْيَاتُ مَغْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ إِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا ٱلشِّعْرَ

فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى لكل امرئ بحسب تدبير طبعه واطراد عادته. وسيأتي ذلك في اقاويل العلماء بما ارجو ان يكون فيه هداية ان شاء الله تعالى

قال بكر بن النطاح الحنفي: الشعر مثل عين الماء ان تركتها نضبت وان استهتنها هتنت. وليس مراد بكر ان تستهتن بالعمل وحده لانا نجد الشاعر تكل قريحته مع كثرة العمل مرارا وتنزف مادته وتنفد معانيه فاذا جم طبعه اياما وربما زمانا طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل آبدة واتهم بكل قافية شاردة وفتح له من المعاني والالفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه وابهم دونه . لكن بالمذاكرة مرة فانها تقدح زناد الخاطر وتفجر عيون المعاني وتوقظ ابصار الفتنة وبمطالعة الاشعار كرة فانها تبعث الحسد وتولد الشهوة . وسئل ذو الرمة كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر . فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفاتحه . قيل له: وعنه سألتك ما هو . قال: الخلو بذكر الاحباب ولعمري انه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب ووضع رجله في الركاب على ان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء وانما كان واصف اطلال وناديب اظعان وهو الذي اخرجه من طبقة الفحول . وقيل لكثير كيف تصنع الشعر اذا عسر عليك . قال: اطوف في الرياض المعشبة فيسهل علي صعبه ويسرع الي

أحسنه . وقال الأصمعي : ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي والمكان الخالي. وقيل الخالي يعني الروض

وحدثنا بعض أصحابنا من أهل المهدية وقد مررنا بموضع بها يعرف بالكندية وهو أشرفها أرضا وهواء . قال : جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الكريم على سطح هنالك قد كشف الدنيا . فقلت : أبا محمد . قال : نعم . فقلت : ما تصنع هاهنا . قال : ألقح خاطري وأجلو ناظري قلت : فهل نتج لك شيء . قال : ما تقر به عيني وعينك إن شاء الله تعالى وأنشد شعرا يدخل مسام القلوب رقة . قلت : هذا اختيار منك اخترعته . قال : بل برأي الأصمعي

وقالوا كان جرير إذا أراد أن يؤيد قصيدة صنعها ليلا يشعل سراجا ويعتزل أهله وربما علا السطح وحده وغطى رأسه رغبة في الخلوة في نفسه . فحكي أنه صنع ذلك في قصيدته التي أخزى بها بني نمير

وروي أن الفرزدق كان إذا عصت عليه صنعة الشعر ركب ناقة وطاف وحده منفردا في شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخالية فيعطيه الكلام قياده . حكي ذلك في قصيدته الفائية : عرفت بأعشاش وما كدت تعرف

وذكر أن فتى من الأنصار فاخر بأبيات حسان بن ثابت :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْـدَةٍ دَمَا

وَأَنْظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ أَتَى جَبَـلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى : أَخَاكُمْ أَخَاكُمْ يَا بَنِي لِبِينَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَأَنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيـدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ أَعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ : وَلِلشِّعْرِ أَوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا أَوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْـلَ ٱلْغَدَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَـا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ . فَلِهٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ تَخْتَلِفُ أَشْعَارُ ٱلشَّـاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ . وَحُـكِيَ عَنْ أَبِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَأَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ أَوْقَاتِ صَنْعَـةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا أَحْفَظُهُ وَلَا أَشُكُّ أَنَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَإِنْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْـلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْأَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَـةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي أَسْبَابِ ٱللَّهْوِ أَوِ ٱلْمَعِيشَةِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَإِذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشْأَةً أُخْرَى وَلِأَنَّ ٱلسَّحَرَ أَلْطَفُ هَوَاءً وَأَرَقُّ نَسِيمًا وَأَعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَآلَةٍ مُرِيحَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ. فَأَمَّا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ. قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا. وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ. حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ: لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا. قَالَ: لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ. فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ: ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ. ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ. قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللّٰهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ:

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ بِذَا
فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ. عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ أَبِي تَمَّامٍ وَأَشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ الْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ
بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ أَنَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي الرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ: أَنَا أَبُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ أَبْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ:

أَنَا الدَّهْرُ يُفْنِي الْمَوْتَ وَالدَّهْرُ خَالِدٌ
فَجِئْنِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ الْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ الْأَعْجَازَ بِالصُّدُورِ وَذَلِكَ هُوَ التَّصْدِيرُ فِي الشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا إِلَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَالصَّوَابُ أَنْ لَا يَصْنَعَ الشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ ذَلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ أَلْبَتَّةَ بَلْ أَصْنَعُ الْقَسِيمَ الْأَوَّلَ عَلَى مَا أُرِيدُهُ ثُمَّ أَلْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْقَوَافِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَبْنِي عَلَيْهِ الْقَسِيمَ الثَّانِي أَفْعَلُ ذَلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي الْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَلَمْ أَرَ ذَلِكَ يَخْلُ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ الْقَسِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا فِي النُّدْرَةِ الَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ التَّنْقِيحِ الْمُفْرِطِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهِ بَيْتٌ وَاثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَبْيَاتٍ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَانْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ الشِّعْرِ مِثْلَ أَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً أَوْ رَابِعَةً أَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ إِلَّا ٱنْحَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ أَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عِيٌّ فِي ٱلصَّنْعَةِ شَدِيدٌ وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيَّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ ٱلْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ ٱلشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَخَذَ فِي صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ ٱلْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ ٱلْوَزْنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ أَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَأَطْرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا ٱلتَّخَيُّرَ فِي حِينِ ٱلْعَمَلِ . هٰذَا ٱلَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ ٱلْقَوْمِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ إِذَا جَاءَهُ ٱلْبَيْتُ عَفْوًا ٱنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَقَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ أَسْرَعُ وَأَخَفُّ عَلَيْهِ وَأَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَأَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ أَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَأَدَلُّ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ وَأَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَأَبْعَدُ مِنَ ٱلسَّرِقَةِ . وَسَأَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ : مَا يُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ ٱلْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ ٱلْحَمَّامِ وَقِيلَ : إِنَّ ٱلطَّعَامَ ٱلطَّيِّبَ وَٱلشَّرَابَ ٱلطَّيِّبَ وَسَمَاعَ ٱلْغِنَاءِ يُرَوِّقُ ٱلطَّبْعَ وَيُصَفِّي ٱلْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . وَلَمَّا أَرَادَتْ قُرَيْشٌ مُعَارَضَةَ ٱلْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ ٱلَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلْبِرِّ وَسُلَافِ ٱلْخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلْخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ. فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ. يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ. وَقِيلَ: مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلْغِنَاءُ. وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلْإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ ٱلْقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا. وَقَالُوا: ٱلْحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلْقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلْجَمَامِ. وَهٰذَا عِنْدِي أَنْجَعُ ٱلْأَقْوَالِ وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ. وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ ٱلْمُزَنِيُّ: لَا تَكُدُّوا ٱلْقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلْفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلْجَمَامِ وَٱشْحَذُوا ٱلْقُلُوبَ بِٱلْمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلْحِكْمَةِ إِذَا ٱمْتُحِنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلِٱسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ ٱلْبَابِ وَصَلَ. وَقَالَ ٱلْخَلِيعُ: مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلْوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ. وَقَالُوا: يُرِيدُ ٱلْخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ ٱلْغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلْجِنِّ: مَا أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلْبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلْكَلَامِ وَٱلْفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حِسًّا وَأَحْسَنُ فِي ٱلْأَسْمَاعِ

وَاَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَاَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَاءِ وَاَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ

وَاعْلَمْ اَنَّ ذٰلِكَ اَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْاَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُجَاهَدَةِ وَبِٱلتَّكَلُّفِ وَٱلْمُعَانَدَةِ وَمَهْمَا اَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ اَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا اَوْ حَقِيقَةً عَلَى ٱللِّسَانِ سَهْلًا كَمَاءٍ خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ وَاِيَّاكَ وَٱلتَّوَعُّرَ فَاِنَّ ٱلتَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ اِلَى ٱلتَّعْقِيدِ وَٱلتَّعْقِيدُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ اَلْفَاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفظًا كَرِيمًا فَاِنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفِ ٱللَّفظُ ٱلشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا اَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اَجْلِهِ اَسْوَاَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ اَنْ يُلْتَمَسَ اِظْهَارُهُمَا وَتَرْهَنَ نَفْسَكَ فِي مُلَابَسَتِهِمَا وَقَضَاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي اِحْدَى ثَلَاثِ مَنَازِلَ فَاِنَّ اَوَّلَ ٱلثَّلَاثِ اَنْ يَكُونَ لَفظُكَ رَشِيقًا عَذْبًا اَوْ فَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . اِمَّا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْخَاصَّةِ قَصَدْتَ . اَوْ ٱلْعَامَّةِ اِنْ كُنْتَ لِلْعَامَّةِ قَصَدْتَ وَٱلْمَعْنَى لَيْسَ يَشْرُفُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْخَاصَّةِ وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَتَّضِعُ بِاَنْ يَكُونَ مِنْ مَعَانِي ٱلْعَامَّةِ وَاِنَّمَا مَدَارُ ٱلشَّرَفِ مَعَ ٱلصَّوَابِ وَاِحْرَازِ ٱلْمَنْفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ ٱلْحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ مِنَ ٱلْمَقَالِ . وَكَذٰلِكَ ٱللَّفظُ ٱلْعَامِّيُّ وَٱلْخَاصِّيُّ فَاِنْ اَمْكَنَكَ اَنْ تَبْلُغَ مِنْ بَيَانِ لِسَانِكَ وَبَلَاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطْفِ مَدَاخِلِكَ وَاقْتِدَارِكَ فِي نَفْسِكَ عَلَى اَنْ تُفْهِمَ ٱلْعَامَّةَ مَعَانِيَ

ٱلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ وَلَا تَخْفَى عَنِ ٱلْأَكْفَاءِ فَأَنْتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَنْزِلَةُ ٱلْأُولَى لَا تُوَاتِيكَ وَلَا تَعْتَرِيكَ وَلَا تَسْمَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ نَظَرِكَ فِي أَوَّلِ تَكَلُّفِكَ وَتَجِدُ ٱللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا وَلَمْ تَسْمَحْ إِلَى قَرَارِهَا وَإِلَى حَقِّهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا ٱلْمَقْسُومَةِ لَهَا وَٱلْقَافِيَةَ لَمْ تَحُلَّ مِنْ مَرْكَزِهَا فِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَكْلِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ مَكَانِهَا وَٱلنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ أَحَدٌ. فَإِنْ أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا بِمَا عَلَيْكَ وَلَكَ عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ مِنْهُ عَيْبًا وَرَأَى مَنْ هُوَ دُونَكَ أَنَّهُ فَوْقَكَ. فَإِنْ أَنْتَ ٱبْتُلِيتَ بِأَنْ تَتَكَلَّفَ ٱلْقَوْلَ وَتَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطِّبَاعُ فَلَا تَعْجَلْ وَلَا تَضْجَرْ وَدَعْهُ بَيَاضَ يَوْمِكَ وَسَوَادَ لَيْلِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ فَرُبَّمَا لَا تَعْدَمُ ٱلْإِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ أَوْ جَرَيْتَ فِي ٱلصَّنْعَةِ عَلَى عُرْفٍ فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثِ شُغْلٍ وَمِنْ غَيْرِ طُولِ إِهْمَالٍ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ

إِلَّا أَنَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا عِنْدَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ. وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ

الْأَدَبِ : حَسْبُ الشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ أَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ أَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ الْإِنْفِعَالِ وَيَدَعَ الْإِمْتِلَاءَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ . وَأَفْضَلُ مَا اسْتَعَانَ بِهِ الشَّاعِرُ غِنًى أَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَالْفَقْرُ آفَةُ الشِّعْرِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِأَنَّ الشَّاعِرَ إِذَا صَنَعَ الْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَأَمْعَنَ النَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَإِذَا كَانَ مَعَ ذَلِكَ طَمَعٌ غِنًى قَوِيَ انْبِعَاثُهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ الرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً . وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ الْكَلَامِ وَأَخَذَ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَحْفِزُهُ مِنَ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ أَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي الْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَإِذَا أَوْسَعَ أَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ الْأَبْيَاتِ الْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ الْكَثِيرَةِ وَالْعَادَةُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اخْتَلَفَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ فِي الْمَقَاطِعِ وَالْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ الْفُصُولُ وَالْوُصُولُ بِعَيْنِهَا . فَالْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ الْفُصُولِ وَالْمَطَالِعُ أَوَائِلُ الْوُصُولِ . وَالْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلعَرُوضُ أَيضًا . وَٱلْوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلقِسْمِ ٱلثَّانِي . وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ٱلمَقَاطِعُ مُنْقَطَعُ ٱلأَبْيَاتِ وَهِيَ ٱلقَوَافِي وَٱلمَطَالِعُ أَوَائِلُ ٱلأَبْيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ فِي ٱلبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ أَوْ شَبِيهٍ بِهِ أَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهٰذِهِ ٱلعِبَارَةِ إِلَى ٱلمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ ٱلبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلجَلِيلِ وَإِعْـ ـطَاءُ ٱلجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلبَيْتِ ٱللَّامُ ٱلمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ وَآخِرُ ٱلأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱليَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللَّامِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱليَاءَ ٱلمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى أَنَّا لَا نَعْلَمُ حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا فِي أَنْوَاعِ ٱلأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱلمَقْطَعَ وَٱلمَطْلَعَ أَوَّلُ ٱلقَصِيدَةِ وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلمَقَاطِعِ جَيِّدَةُ ٱلمَطَالِعِ . وَلَا يَقُولُونَ ٱلمَقْطَعِ وَٱلمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ ٱلقَصِيدَةَ إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلأَبْيَاتِ أَوِ ٱلأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَسَأَلْتُ الشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ السَّبِيْنِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ : المَقَاطِعُ أَوَاخِرُ الأَبْيَاتِ وَالمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا . قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ : حَسَنُ المَقَاطِعِ جَيِّدُ المَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ البَيْتِ وَهُوَ القَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ . وَالمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ البَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَالتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ . وَرَوَى الجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شَبَّةَ كَانَ يَقُولُ : النَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ الاِبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ المَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ . وَحَظُّ جُودَةِ القَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ البَيْتِ أَوِ القَصِيدَةِ . حَكَاهُ الجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَقْطَعَ آخِرُ البَيْتِ أَوِ القَصِيدَةِ وَهُوَ بِالبَيْتِ أَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ القَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلعَتَّابِيِّ مَا البَلَاغَةُ . فَقَالَ : كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ . قَالَ : قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ الإِعَادَةَ وَالحُبْسَةَ فَمَا الاِسْتِعَانَةُ فَقَالَ : أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا ٱسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ الكِتَابِ وَهٰذَا القَوْلُ مِنَ العَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ المَقَاطِعَ أَوَاخِرُ الفُصُولِ . وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ الجَاحِظُ عَنِ المَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقاطِعِ كَلَامِي . وَإِذَا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كَانَتِ ٱلطَّاء وَٱللاَّمُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذَا أُرِيدُ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللاَّمُ خَاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِيَاسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طَارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقَالَ لِأَنِّي أَقْلَلْتُ ٱلْحَزَّ وَأَصَبْتُ مَقَاصِدَ ٱلْكَلَامِ وَقَرَّطْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْرَاضِ بِحُرِّ ٱلْفَوَاتِحِ وَٱلْخَوَاتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاء وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتَاحِ دَاعِيَةُ ٱلِٱنْشِرَاحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجَاحِ وَلَطَافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِيَاحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخَاتِمَةَ ٱلْكَلَامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَأَلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِهَا فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا . وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِدَاء شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَقَدِ ٱخْتَارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِدَاآتِ سَأَذْكُرُ هُنَا مَا أَمْكَنَ مِنْهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاء قَالَهُ شَاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ . وَقَوْلِهِ « أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلْبَالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلقطَامِيِّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلْجَمُومَيْنِ سَاهِرَا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ. وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلْجِزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ

عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلكَرَى بَيْنَ ٱلْجُفُونِ مُحِيلُ عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ، فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

ٱبْنَ عَلِيٍّ ٱلْخُزَاعِيَّ وَرَدَ حِمْصَ فَقَصَدَ دَارَ عَبْدِ ٱلسَّلَامِ بْنِ رَغْبَانَ دِيكِ ٱلْجِنِّ فَكَتَمَ نَفْسَهُ عَنْهُ خَوْفًا مِنْ قَوَارِصِهِ فَقَالَ : مَا لَهُ يَسْتَتِرُ وَهُوَ أَشْعَرُ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ أَلَيْسَ ٱلْقَائِلَ :

بِهَا غَيْرُ مَعْذُولٍ فَدَاوِ خُمَارَهَا ... وَصِلْ بِعَشِيَّاتِ ٱلْغَبُوقِ ٱبْتِكَارَهَا

فَظَهَرَ إِلَيْهِ وَٱعْتَذَرَ إِلَيْهِ وَأَحْسَنَ . ثُمَّ تَنَاشَدَا فَأَنْشَدَ دِيكُ ٱلْجِنِّ ٱبْتِدَاءَ قَصِيدَةٍ :

كَأَنَّهَا مَا كَأَنَّهُ خَلَلُ ٱلْخَيْمَةِ ... وَقْفُ ٱلْهَلُوكِ إِذْ بَغَمَا

فَقَالَ لَهُ دِعْبِلٌ : أَسْكُتْ فَوَاللّٰهِ مَا ظَنَنْتُكَ تُتِمُّ ٱلْبَيْتَ إِلَّا وَقَدْ غُشِيَ عَلَيْكَ أَوْ تَشَكَّكَتْ دِمَاغُكَ وَكَأَنَّكَ فِي جَهَنَّمَ تُخَاطِبُ ٱلزَّبَانِيَةَ أَوْ تَخَبَّطَكَ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ . وَإِنَّمَا أَرَادَ ٱلدِّيكُ أَنْ يُهَوِّلَ عَلَيْهِ وَيَقْرَعَ سَمْعَهُ عَسَى أَنْ يُزْعِجَهُ أَوْ يَرُوعَهُ فَسَمِعَ مِنْهُ مَا كَرِهَ . وَلَعَمْرِي مَا ظَلَمَهُ دِعْبِلٌ وَلَقَدْ أَبْعَدَ مَسَافَةَ ٱلْكَلَامِ وَخَالَفَ ٱلْعَادَةَ وَهٰذَا بَيْتٌ قَبِيحٌ مِنْ جِهَاتٍ مِنْهَا إِضْمَارُ مَا لَمْ يُذْكَرْ قَبْلُ وَلَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِمِثْلِهِ فَيُعْذَرَ وَلَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهُ فَيُشْهَرَ مَعَ إِحَالَةِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى تَشْبِيهٍ ثَقُلَ تَجَانُسُهُ ٱلَّذِي هُوَ حَشْوٌ فَارِغٌ لَوْ طُرِحَ مِنَ ٱلْبَيْتِ كَانَ أَحْزَمَ وَٱسْتَدْعَى قَافِيَةً لَا لِشَيْءٍ إِلَّا لِفَسَادِ ٱلْمَعْنَى وَٱسْتِحَالَةِ ٱلتَّشْبِيهِ مَا ٱلَّذِي يُرِيدُ بِبُغَامِهِ فِي تَشْبِيهِ ٱلْوَقْفِ وَهُوَ ٱلسِّوَارُ وَلِمَ كَانَ وَقْفُ ٱلْهَلُوكِ خَاصَّةً . وَمِثْلُهُ قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ يَصِفُ نَاقَتَهُ فِي أَوَّلِ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِهَا ٱلْحَسَنَ بْنَ سَهْلٍ :

كَأَنَّهَا حِينَ تَنَاءَى خَطْوُهَا ... أَخْنَسُ مَوْشِيُّ ٱلشَّوَى يَرْعَى ٱلْقُلَلْ

فالبيتُ الأوّلُ في مخالفةِ العادةِ لازمٌ ومعَ ذلكَ قولُهُ « حينَ تناءى خطوُها » فقصّرَ بها وهوَ يقدرُ أنْ يقولَ « حينَ تدانى خطوُها » وخالفَ جميعَ الشعراءِ بذلكَ لأنّهم يصفونَ النّاقةَ بالظّليمِ والحمارِ والثّورِ بعدَ الكلالِ غلوًّا ومبالغةً في الوصفِ . هذا هوَ الجيدُ فإنْ لمْ يفعلوا لمْ يذكروا انّها بذلتْ جهدَها واستفرغتْ جميعَ ما عندَها بلْ يدعونَ التّأويلَ محتمِلَ الزّيادةِ . ثمَّ قالَ « ترعى القُلَلَ » والثّورُ لا يرعى قُلَلَ الجبالِ وانّما ذلكَ الوعلُ لأنّهُ لا يُسهِلُ والثّورُ في السّهولِ ومواضعِ الرّمالِ إلّا انْ يريدَ بالنّباتِ اعاليَهُ فربّما انْ يكونَ القُلَلُ نبتًا بعينِهِ او مكانًا فقدْ يمكنُ وما سمعتُ بهما

ومنَ الشّعراءِ مَنْ يقطعُ المصراعَ الثّاني منَ الأوّلِ إذا ابتدأَ شعرًا وأكثرُ ما يقعُ ذلكَ في النّسيبِ كأنّهُ يدلُّ بذلكَ على ولَهٍ وشدّةِ حالٍ كقولِ ابي الطّيّبِ :

جللًا كما بي فليكُ التّبريحُ اغذاءُ ذا الرّشإِ الأغنّ الشّيحُ

فهذا اعتذارُ مَنِ اعتذرَ لهُ لوْ وقعَ مثلُ هذا في الرّثاءِ والتّفجّعِ لكانَ موضعَهُ ايضًا وكذلكَ عندَ العظائمِ منَ الأمورِ والنّوازلِ الشّديدةِ . وليحترسْ ممّا ينالُهُ فيهِ زيادةٌ او يقعُ عليهِ مطعنٌ فإنَّ ابا تمّامٍ امتدحَ ابا دلفٍ بحضرةِ مَنْ كانَ يكرهُهُ وافتتحَ قصيدتَهُ المشهورةَ « على مثلِها منْ اربعٍ وملاعبِ » وكانتْ فيهِ حُبسةٌ شديدةٌ . فقالَ الرّجلُ لعنَهُ اللهُ والملائكةُ والنّاسُ اجمعونَ .

فَدَهِشَ أَبُو تَمَّامٍ حَتَّى تَبَيَّنَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَأْخُوذٍ بِمَا قِيلَ وَلَا هُوَ مِمَّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ عَيْبًا. وَلَا يَلْزَمُهُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا أَنَّ ٱلْحَوْطَةَ وَٱلتَّحَفُّظَ مِنَ ٱلْحُجَّةِ ٱلْبَارِدَةِ أَفْضَلُ وَٱلتَّفْرِيطَ أَرْذَلُ وَأَخْبَثُ. وَدَخَلَ جَرِيرٌ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَأَنْشَدَهُ «أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ» فَقَالَ لَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ: بَلْ فُؤَادُكَ يَا ٱبْنَ ٱلْفَاعِلَةِ كَأَنَّهُ يَسْتَثْقِلُ هٰذِهِ ٱلْمُوَاجَهَةَ وَإِلَّا فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا خَاطَبَ نَفْسَهُ وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ بِعَيْنِهَا عَابُوا عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ لِكَافُورَ أَوَّلَ لِقَائِهِ مُبْتَدِئًا وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يُخَاطِبُ نَفْسَهُ لَا كَافُورًا:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا
وَحَسْبُ ٱلْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

فَٱلْعَيْبُ مِنْ بَابِ ٱلتَّأَدُّبِ وَحُسْنِ ٱلسِّيَاسَةِ لَازِمٌ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ فِي هٰذَا ٱلِٱبْتِدَاءِ لَاسِيَّمَا وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي جُودَةَ ٱلِٱبْتِدَاءِ مِنْ أَجَلِّ مَحَاسِنِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ وَأَشْرَفِ مَآثِرِ شِعْرِهِ إِذَا ذُكِرَ ٱلشِّعْرُ. وَدَخَلَ ذُو ٱلرُّمَّةِ عَلَى عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَٱسْتَنْشَدَهُ شَيْئًا مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ «مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا ٱلْمَاءُ يَنْسَكِبُ» وَكَانَ بِعَيْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ رِيشَةٌ فَهِيَ تَدْمَعُ فَتَوَهَّمَ أَنَّهُ خَاطَبَهُ أَوْ عَرَّضَ بِهِ فَقَالَ: وَمَا سُؤَالُكَ يَا جَاهِلُ عَنْ هٰذَا وَمَقَتَهُ وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ وَكَذٰلِكَ فَعَلَ ٱبْنُهُ هِشَامٌ بِأَبِي ٱلنَّجْمِ وَقَدْ أَنْشَدَهُ فِي أُرْجُوزَةٍ:

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفْعَلِ ... فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَانَ هِشَامٌ أَحْوَلَ فَأَمَرَ فَحُجِبَ عَنْهُ مُدَّةً وَقَدْ كَانَ قَبْلَ

ذٰلِكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي ٱلشَّاعِرُ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ إِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي ٱلطَّبْعِ أَوْ مِنِ ٱسْتِغْرَاقٍ فِي ٱلصَّنْعَةِ وَشُغْلِ هَاجِسٍ بِٱلْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ ٱلْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَٱلْفَطِنُ ٱلْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْأَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ ٱلْمُلُوكِ قَالَ لِأَحَدِ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَدْ أَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِّدَ أَحَدٌ بِكَرَمٍ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا. فَقَالَ ٱلْمَلِكُ: إِنَّ ٱلْمَوْتَ حَقٌّ وَلَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ، غَيْرَ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِنَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ ٱلْمَشْهُورِ أَنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ أَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ ٱلْأَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ ٱلشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَإِلَيْهِ أُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ ٱلنُّعْمَانِ. فَنَزَلَ فَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ فَأُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ. فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ٱلْعِبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ: أَتَعْرِفُ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. قَالَ: وَمَا تَقُولُ. قَالَ تَقُولُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلَالْ
عَطَفَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا ... وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَآنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ ... إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا عَلَى قَرْطِ ٱلزَّوَالْ

كَأَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ

وَٱلشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَٱرْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ أَكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يَكُونُ فَقَالُوا : عِشْ أَبَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

يَا أَمِينَ ٱللّٰهِ عِشْ أَبَدًا ... دُمْ عَلَى ٱلْأَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ
أَنْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا ... فَإِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَإِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِأَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي أَسَاءَ فِيهِ أَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ أَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكَ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ إِلَيْهَا . فَصَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ أَوَّلَهَا :

أَرَبْعَ ٱلْبِلَى إِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ ... عَلَيْكَ وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وِدَادِي

وَخَتَمَهَا أَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمُ ... بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ إِلَيْنَا أَنْفُسَنَا يَا أَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ إِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى أَوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا اَشُكُّ اَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اَللّٰهُمَّ اِلَّا اَنْ يَمْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ اِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي اَفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِٱلنَّسِيبِ اِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ اِلَى ٱللَّهْوِ فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ اِلَى مَا بَعْدَهُ . وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ اَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلْاِشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْاِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَٱلْاُقْحُوَانِ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا اَشْبَهَ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِيَّةِ . وَاَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنْعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْاَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنِّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ اَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا اَنْضَى مِنَ ٱلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ . ثُمَّ يَخْرُجَ اِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ . وَكَانُوا قَدِيمًا اَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ اِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ اَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ اَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَاَبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ اِلَّا مَجَازًا لِاَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَمْحُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلْجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلْمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللّٰهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي　　بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي
أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ　　يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلْإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلْعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمْ يَرْضَى بِٱلْكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلْبَرِيدِ وَٱلْفُرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْإِبِلِ لِلْعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ
عَلَى هَرَجٍ وَاهِي ٱلْأَبَاجِلِ أَبْتَرَا
عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ
بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا
إِذَا زُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا
مَشَى ٱلْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلْخَيْلُ ٱلْبَرْبَرِيَّةُ تُهْلَبُ أَذْنَابُهَا كَٱلْبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلْبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلْمَلِكِ . وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا :

جَاءَتْ بِهِ مُعْتَجِرًا بِبُرْدِهِ سَفْوَاءُ تَرْدِي بِنَسِيجِ وَحْدِهِ

تَقْدَحُ قَيْسٌ كُلُّهَا بِزَنْدِهِ

اِلَّا اَنَّ مِنْهُمْ مَنْ خَالَفَ هٰذَا كُلَّهُ فَوَصَفَ اَنَّهُ قَصَدَ ٱلْمَمْدُوحَ رَاجِلًا اِمَّا اِخْبَارًا بِٱلصِّدْقِ وَاِمَّا تَعَاطِيَ صَعْلَكَةٍ . قَالَ اَبُو نُوَاسٍ لِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى :

اِلَيْكَ اَبَا ٱلْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ مَنْ مَشَى

عَلَيْهَا ٱمْتَطَيْنَا ٱلْحَضْرَمِيَّ ٱلْمُلَسَّنَا

قَلَائِصُ لَمْ تَعْرِفْ حَنِينًا عَلَى طَلًا

وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرْعُ ٱلْفَنِيقِ وَلَا ٱلْهَنَا

فَذَكَرَ اَنَّ قَلَائِصَهُمُ ٱلَّتِي ٱمْتَطَوْا اِلَيْهِ مَشْدُودَةٌ بِٱلنِّعَالِ وَاَخْرَجَهُ كَمَا تَرَى مُخْرَجَ ٱللُّغْزِ وَاَتْبَعَهُ اَبُو ٱلطَّيِّبِ فَقَالَ :

لَا نَاقَتِي تَحْمِلُ ٱلرَّدِيفَ وَلَا بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ اَجْهَدُهَا

شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا زِمَامُهَا وَٱلشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

وَقَالَ كَرَّةً اُخْرَى فِي مِثْلِ ذٰلِكَ يَتَشَكَّى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلَى قَدَمِي تَعْجِزُ عَنْهُ ٱلْعَرَامِسُ ٱلذُّلُلُ

وَلَوْ شَاءَ قَائِلٌ اَنْ يَقُولَ فَاِنَّ اَبَا نُوَاسٍ لَمْ يُرِدْ مَا ذَهَبَ اِلَيْهِ اَبُو ٱلطَّيِّبِ لٰكِنْ اَرَادَ اَنَّهُ مَعَهُ فِي بَلَدٍ وَاحِدٍ قَصَدَهُ فِي حَاجَتِهِ مُحْتَذِيًا نَعْلَيْهِ لَكَانَ اَظْهَرَ وَجْهًا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْحَضْرَمِيُّ مِنَ ٱلْجُلُودِ مَخْصُوصًا بِهِ ٱلْمُسَافِرُ دُونَ ٱلْحَاضِرِ . وَظَاهِرُ ٱلْكَلَامِ اَنَّ مَقْصَدَ ٱلشَّاعِرَيْنِ وَاحِدٌ . وَقَدْ ذَكَرَ اَبُو ٱلطَّيِّبِ ٱلْخَيْلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى ٱلإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلتَّهَيُّبِ بِذِكْرِ ٱلْخَيْلِ وَتَعَاطِي ٱلشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ ٱلْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فِيهِ ٱلشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنَي أَغَرَّ كَأَنَّهُ
مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَٱلْوَاجِبُ ٱجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ ٱلْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْفَلَاةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلْوَثْبُ وَٱلْبَتْرُ وَٱلْقَطْعُ وَٱلْكَسْعُ وَٱلِاقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَٱلْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ بَتْرَاءُ كَٱلْخُطْبَةِ ٱلْبَتْرَاءِ وَٱلْقَطْعَاءِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ ٱللّٰهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ٱلْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَٱلنَّسِيبُ ٱلْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا ٱلنَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا ٱلْبَابَ وَفَتَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ ٱلْحَاتِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ :

أعِزْ شِعْرَكَ ٱلْأَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا إِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا
دَعَانِي إِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرَا
فَسَمْعًا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَإِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِأَنْ وَصَفَ ٱلْأَطْلَالَ وَٱلْقَفْرَ إِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْإِمَامِ وَإِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَإِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِٱلشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ « لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ ٱلْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ أَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ ٱلِٱبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَأَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذَلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلِٱبْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلِٱبْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ أَنَّ ٱلْقَاضِي ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَّلَ بِجُودَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلِٱبْتِدَاءُ عَلَى أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَلَاهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ أَرَى لِذَلِكَ وَجْهًا إِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَإِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا ٱبْتِدَاءً جَيِّدًا بِٱبْتِدَاءٍ لَأَرْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَأَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَإِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ أَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيهِ جَوْرًا بَيِّنًا لَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُسَلَّمُ إِلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ فَخْمَ الْإِبْتِدَاءِ لَهُ رَوْعَةٌ وَعَلَيْهِ أُبَّهَةٌ كَقَوْلِهِ :

أَلْحَقُّ أَبْلَجُ وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وَقَوْلِهِ أَيْضًا :

أَلسَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الْكُتُبِ

فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وَقَوْلِهِ « يَا رَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومِ » وَالْغَالِبُ تَحْتَ اللَّفْظِ وَجَهَارَةُ الْإِبْتِدَاءِ

وَكَانَ أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسَنُ بْنُ بِشْرٍ الْآمِدِيُّ يُفَضِّلُ ابْتِدَاآتِ الْبُحْتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ الَّذِي وَضَعَ كِتَابَ الْمُوَازَنَةِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ الطَّائِيَّيْنِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِالْبُحْتُرِيِّ أَعْظَمَ تَنْوِيهٍ وَمِنْ جَيِّدِ ابْتِدَاآتِهِ قَوْلُهُ :

عَارَضْنَنَا أُصُلًا فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ حَتَّى أَضَاءَ الْأُقْحُوَانُ الْأَشْنَبُ

وَقَوْلُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَيْنَيْكَ أَنِّي لَا أَسْلُو » وَقَوْلُهُ « تَرَى عِنْدَهُمْ عِلْمًا بِشَجْوِي وَأَدْمُعِي » فَأَمَّا الْخُرُوجُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ شَبِيهٌ بِالْإِسْتِطْرَادِ وَلَيْسَ بِهِ لِأَنَّ الْخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ نَسِيبٍ إِلَى مَدْحٍ أَوْ غَيْرِهِ بِلُطْفِ تَحَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ كَقَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ الْبُحْتُرِيِّ :

سُقِيَتْ رُبَاكِ بِكُلِّ غَيْثٍ جَاعِلٍ مِنْ وَبْلِهِ حَقًّا لَهَا مَعْلُومَا

وَلَوَ انَّنِي أُعْطِيتُ فِيهِنَّ الْمُنَى لَسَقَيْتُهُنَّ بِكَفِّ إِبْرَهِيمَا

وَاكْثَرُ ٱلنَّاس ٱسْتِعْمَالًا لِهٰذَا ٱلفَنّ ٱبُو ٱلطَّيِّبِ فَإِنَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنْهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَٱنظُرِي اوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَالَا

عَلَّ ٱلْامِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
إِلَى ٱلَّتِي تَرَكَتْنِي فِي ٱلْهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى انْ يَكُونَ ٱلْامِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ ابِي نُوَاسٍ:

سَاشْكُو إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَانَا لَعَلَّ ٱلْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ لِأَنَّ ابَا نُوَاسٍ قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْمَالِ وَٱلسَّحَابَةِ فَقَالَ:

امِيرٌ رَايْتُ ٱلْمَالَ فِي نَقِمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينَ ٱلنَّفْسِ بِٱلضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَانَّهُ اشَارَ إِلَى انَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِٱلْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا او يَتَسَرَّاهَا. وَابُو ٱلطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَٱلشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي ٱلْقِيَادَةِ فَقَالَ:

ايْقَنْتُ انَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِٱلرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى انَّهُ يَشْفَعُ فَإِنْ اجِيبَ إِلَى مُسَاعَدَةِ ابِي ٱلطَّيِّبِ فَذَاكَ وَإِلَّا رَجَعَ إِلَى ٱلْقَهْرِ وَٱلَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ ابِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

احِبُّ ٱلَّذِي فِي ٱلْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

وَلفظَةُ ٱلشَّكوَى تُحمَلُ عَنهُ كَمَا حُمِلَت عَن أَبِي نُوَاسٍ

وَأَولَى ٱلشِّعرِ بِأَن يُسَمَّى تَخَلُّصًا مَا تَخَلَّصَ فِيهِ ٱلشَّاعِرُ عَن مَعنًى إِلَى مَعنًى ثُمَّ عَادَ إِلَى ٱلأَوَّلِ وَأَخَذَ فِي غَيرِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ كَقَولِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبيَانِيِّ آخِرَ نَسِيبِ قَصِيدَةٍ ٱعتَذَرَ بِهَا إِلَى ٱلنُّعمَانِ :

فَكَفكَفتُ مِنِّي عَبرَةً فَرَدَدتُهَا
عَلَى ٱلنَّحرِ مِنهَا مُستَهِلٌّ وَدَامِعُ
عَلَى حِينَ عَاتَبتُ ٱلمَشِيبَ عَلَى ٱلصِّبَى
وَقُلتُ أَلَمَّا أَصحُ وَٱلشَّيبُ وَازِعُ

ثُمَّ تَخَلَّصَ إِلَى ٱلاعتِذَارِ فَقَالَ :

وَلَكِنَّ هَمًّا دُونَ ذَلِكَ دَاخِلًا مَكَانَ ٱلشَّغَافِ تَبتَغِيهِ ٱلأَصَابِعُ
وَعِيدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيرِ كُنهِهِ أَتَانِي وَدُونِي رَاكِسٌ فَٱلضَّوَاجِعُ

ثُمَّ وَصَفَ حَالَهُ عِندَ مَا سَمِعَ مِنهُ ذَلِكَ فَقَالَ :

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتنِي ضَئِيلَةٌ مِنَ ٱلرُّقشِ فِي أَنيَابِهَا ٱلسَّمُّ نَاقِعُ
يُسَهَّدُ مِن لَيلِ ٱلتَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَليِ ٱلنِّسَاءِ فِي يَدَيهِ قَعَاقِعُ

فَوَصَفَ ٱلحَيَّةَ وَٱلسَّلِيمَ ٱلَّذِي شَبَّهَ نَفسَهُ بِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ تَخَلَّصَ مِنَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ فَقَالَ :

أَتَانِي أَبَيتَ ٱللَّعنَ أَنَّكَ لُمتَنِي وَتِلكَ ٱلَّتِي تَستَكُّ مِنهَا ٱلمَسَامِعُ

ثُمَّ ٱطَّرَدَ لَهُ ٱلقَولُ مَا شَاءَ مِن تَخَلُّصٍ إِلَى تَخَلُّصٍ حَتَّى ٱنقَضَتِ ٱلقَصِيدَةُ وَهُوَ مَا أَشَرتُ إِلَيهِ غَيرُ خَافٍ إِن شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى. وَقَد

يَقَعُ مِنْ هٰـذَا ٱلنَّوْعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسْطِ ٱلتَّشْبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ ٱلْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلنَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ يَمْدَحُهُ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسْطِ ٱلنَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى

مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ

نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

بِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شَبَانَةٍ   مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْإِلْمَامَ. وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰـذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيـلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِإِنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءً لِلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى   لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ
إِنَّ ٱلرَّعِيَّـةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ   مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وَرُبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْمَفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى نَزَلْتُ بِفِنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . وَأَمَّا ٱلِٱنْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا لَا يُمْكِنُ ٱلزِّيَادَةُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ أَحْسَنُ مِنْهُ . وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ ٱلشِّعْرِ مِفْتَاحًا لَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ أَرْبَى أَبُو ٱلطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةِ هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا عَقَّدَ أَوَائِلَ ٱلْأَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَإِغْرَابًا عَلَى ٱلنَّاسِ كَقَوْلِهِ أَوَّلَ قَصِيدَةٍ :

وَفَاؤُكُمَا كَٱلرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ   بِأَنْ تُسْعِدَا وَٱلدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ

فَإِنَّ هٰذَا يَحْتَاجُ ٱلْأَصْمَعِيُّ إِلَى أَنْ يُفَسِّرَ مَعْنَاهُ . وَيَقَعُ لَهُ فِي ٱلْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى بِهِ وَأَشْعَرَ لَهُ وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ ٱلْإِغْرَابِ فِي بَابِ ٱلتَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ وَٱلتَّشْنِيعِ ٱلْمُتَكَلَّفِ نَحْوَ قَوْلِهِ :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ   ثَبِيرًا وَٱبْنُ إِبْرٰهِيمَ رَيْعَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْبَشَاعَةِ وَمِنَ ٱلشَّنَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ . وَمَا أَظُنُّهُ سَرَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفَ إِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ أَوْرَدَهَا أَبُو ٱلْعَنْبَسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَزَعَمَ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْتُ رَجُلًا نَامَ فَجَرَّهُ ٱلنَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ . وَقَدْ جَعَلَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ مَكَانَ ٱلرَّجُلِ جَبَلًا وَإِنْ عَلِمْنَا ٱلْإِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ . وَقَالَ أَيْضًا :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي ٱلدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ   وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي ٱلزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَحْرُ أَبُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ   عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ أَبُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي أَخْذِ ٱلْعَفْوِ أَلَا تَرَى مُعَلَّقَةَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً   بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ أَفْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعَفَاءِ إِلَّا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

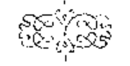
فَلَا هَجَمَتْ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفَرٍ   وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى أَمَلِ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ «لَا صَبَّحَ ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ» وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ «لَا مَسَّى ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ» ثُمَّ يَقُولُ «إِلَّا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ



فهرس

المقالات



اصلاح غلط وقع في بعض النسخ

صواب	خطاء	سطر	صفحة
الجَدَلِ	الجدلِ	٥	٢
الجَدَلِ	الجدلِ	١٤	•
كالحالِ	كالحالَ	١١	٤
كلٍّ	كلٌّ	١٤	•
يُثبتَ	يُثبتُ	١٣	٥
استُبْهِمَ الكلامُ	استَبهَمَ الكلامَ	٠٤	٣١
يُقْنِعَ	يُقنِعُ	١٩	٣٦
من كتاب ادب الدنيا	من كتاب الدنيا	١١	٤٣
فانَّ	فانْ	١١	٤٤
بنَ عتَبَةَ بنِ	بنُ عتَبَةَ بنُ	٠٤	٤٨
وَهْوَ	وَهُوَ	٦و٧و٨	••
جلّها ودِقّها	جُلّها ودُقّها	١٧	٥٤
أمّا التي	التي	٠٨	٥٦
ألاكتراث	ألاكتراث	١٧	٥٧
يَعلَّم	يَعلَم	٠٨	٥٨
والتَّشَدُّدِ	والتشرر	١٤	٥٩
والتَّقصيرُ	والتَّقْصيرِ	٠٧	٦٢
وقصدُ	وقصدِ	٠٨	••
السَّخيف	والسخيف	٠٢	٦٣
والطَّيشُ	والطَّيشِ	٠٣	٧٠
يستودِعُ	يستودَعُ	٠٥	٧١
الحروب مجالسةِ	الحروب وفي مجالسةِ	٠٣	٨٣
كثيرةً	كثيرةٍ	٠٧	٨٦
الشعث	الشعبُ	٠٧	٩٠
مقدّمتيهِ	مقدمتهِ	١٢	١٠٢

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٠٦	٠٩	من فلانِ الملكَ	من فلانٍ الملكَ
١١٩	٠٥	ٱلتَّكرارِ	والتكرار
١٢٢	٠٣	الفاظك	الفاظَكَ
١٢٤	٠٧	ٱلسَّكونيِّ	السَّكُونيِّ
١٢٦	٠٣	من رسالة	من رسالة لابي هلال العسكريّ
١٢٨	٠٧	لِحاقِهِ	الحاقِهِ
١٤٤	١٦	وَغَيرُ ذلكَ مِمَّا يَستَعمِلهُ	وغيرَ . . . . . يستعملُهُ
١٤٦	٠٤	وبالقصانِ	بالقصان
١٥٢	١٠	والجَسدانية	والجُسدانية
١٥٧	٠٣	والملاكرة	والملاكزة
٠٠٠	١٩	ويجاورهم	ويجاوزهم
١٦٠	٠٨	طلبهُ	طلبهُ
١٦٦	٢٠	إنّما	أنّما
١٨٠	٠٤	يسرُ	يسرُ
١٨١	٠٢	ايثارِ	ايثار
١٨٣	١١	فالذِّكرانُ	فالذُّكران
١٨٤	١٢	واحدٌ	واحدٌ
٢١١	١٤	والتبرّوءُ	والتبرُّوءُ
٢١٢	١١	ٱلاحسنُ منها	ٱلأحسن فيها
٠٠٠	٠٠	وتمتبرَ	وتمتبرُ
٠٠٠	١٣	لَقْبُ	لَقَبُ
٠٠٠	١٤	المطّلعُ	المطلَعُ
٢١٤	١١	واشتقاقا الارتجال والبديهة	الارتجال والبديهة
٠٠٠	١٧	بتفقيه	بتقفية
٢١٥	٢٠	ابا داوُدَ	أبا دؤادٍ
٢١٦	٠٠	الخِطابة	الخَطابة
٠٠٠	٠٦	بوءون	برءون

صفحة	سطر	خطاء	صواب
•••	١٨	أَلِفت	أَلِفَتْ
٢١٧	٠٩	لتسمِيم	لَتَسْمِيمِ
٢١٨	١٥	تَاكَا	تَلَكُوَهُ
٢٢١	٠٧	ضُرِبَ	ضَرَبَ
٢٢٢	١٥	دَوْدَ	ذَوْدَ
٢٢٤	٠١	والفوذ	والفوز
٢٣١	١٨	ومعانيه	بمعانيه
٢٣٣	٠٤	والذي	الذي
٢٣٦	١٥	ومَنْ	وممن
•••	١٦	باهلةٍ	باهلةَ
٢٣٨	٠٦	وذكرٌ	وذكر بعضهم
•••	••	ثَمامة	ثُمامة
٢٤٧	٠١	البحث الثاني	البحث الثالث
٢٤٩	١١	البحث الثالث	البحث الرابع
٢٥٣	٠١	البحث الرابع	البحث الخامس
٢٥٨	٠١	البحث الخامس	البحث السادس
٢٦٦	٠١	البحث السادس	البحث السابع
٢٨٣	١٤	طاهرةً	ظاهرةً
٢٨٤	١٤	البحث السابع	البحث الثامن
٢٨٦	١٠	وطاهرٌ	وظاهرٌ
•••	١٠	المرحمة	المرخمة
٢٩٤	٠١	البحث الثامن	البحث التاسع
٢٩٥	١٣	البحث التاسع	البحث العاشر
٢٩٦	١٣	البحث العاشر	البحث الحادي عشر
٣٠٣	١٨	الضّليلُ	الضِّلِّيلُ
٤٢٥	١٥	في المديح والهجو	في غاية صناعة الشعر

واما ما وقع فيهِ من سقوط نقطة او حركة في ظهور امرهِ غنى عن التنبيه اليهِ